الثقافة العربية والحضارة الإسلامية

تأليف الدكتور

محمد الجوهرى حمد الجوهرى





الثقافة العربية
والحضارة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

صدق الله العظيم

دار الأمين

طبع * نشر * توزيع

الجيزة : ٨ شارع أبو المعالى

(خلف المعهد البريطانى) العجوزة

تليفون و فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق

(خلف قاعة سيد درويش) الهرم

تليفون و فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩

ص . ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع ١٤٢٦٧/ ١٩٩٧

ISBN : 977-279-175-7

الثقافة العربية والحضارة الإسلامية

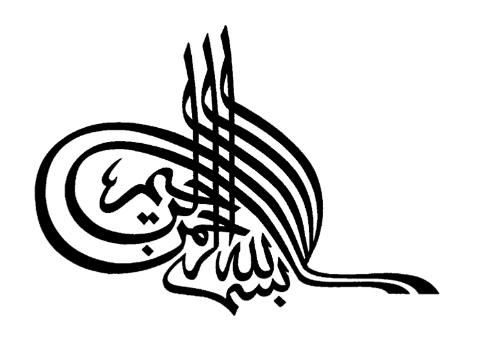
تأليف الدكتور

محمد الجوهرى حمد الجوهرى



فهـرس الموضوعـات

الموضــــوع	الصفحة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم المرسلين . إن الحمد لله ، نحمـــده ونســتعينه ونســتهديه ونستغفره ، ونعــوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمـــالنا ، من يهــده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا . اللهم اجعل عملنـــا كلـــه صالحًـــا ، ولوجهك خالصًا ، ولاتجعل لأحد فيه من شيء يارب العالمين .

جاءت هذه الدراسه بأسلوب سهل ميسر وجاءت أفكارها واضحـــة ومحـــددة ومباشرة خالية من المصطلحـــات حتى نتجنب متاهات الفكر وتعمياته ونصل إلـــى الحقائق بأيسر السبل دون افتئـــات على رأى أو تجاهل لفكر ، أوانتقاء لأفكار دون الأخرى .

وقد اشتملت هذه الدراسة على مبحثين ، المبحث الأول : فى تعريف الثقافـــة العربية والحضارة الإسلامية ووحدة كل منهما ، ويتضمن هذا المبحث فصليـــن ، الفصل الأول : يتعلق بتعـــريف الثقـــافة عامة وتعريف الثقافة العربية ووحدتها . والفصل الثانى : يتعلق بتعريف الحضارة عامة وتعريـــف الحضـــارة الإســـلامية ووحدتها ، ومن ناحية الفصل الأول فقد اتبعت فيه طريقـــة التشـــريح والتفصيـــل لتوضيح مكونات الثقافة أى عناصرها المكونة لنسيجها الكلى ، وهى نفس الطريقة التى اتبعها إدوارد تيلور العـــالم البريطانى الذى وضع أول تعريـــف لمصطلـــح الثقـــافة فى أواخر القرن الماضى ، والذى جاءت التهذيبات التى أدخلها العلمـــاء على هذا التعريف للثقافة فيما بعد ، لاتتعارض معه أوتتناقض معه ، بل تسير فـــى فلكه ووفق مفاهيمه . كما أوضحت الأسس التى تقوم عليها وحدة " الثقافة العربيـــة "، والتى ترجع فى جميع مفاهيمها إلى الدين الإسلامى ومعطياته ، وكذلك أشـــرت إلى بعض الآثار التى خلفها الغزو الفكرى على الثقافة العربية والتى تهدد وحدتها . أما الفصل الثانى فقد جاء متضمنا لتعريف الحضارة الإسلامية ووحدتها التى سادت جميع مجالاتها المختلفة .

والمبحث الثانى فى هذه الدراسة ، جاء عن التعدد والتنوع فى ظـل الوحـدة للثقـافة العربية والحضارة الإسلامية . وفى الحقيقة عند الكتابة فى هذا المبحـث دار فى الذهن سؤالان : السؤال الأول : هل التعدد والتنوع فى مجالات " الثقافـة العربية " المختلفة ، ومجالات الحضارة الإسلامية المختلفه تعدد وتنوع لماينبغى أن يكون ؟ أم لما هو كائن ؟ والسؤال الثانى : هل التعدد والتنوع الموجود الآن فـى المجالات المختلفة يدور فى ظل وحـدة تربطه ؟ أم هو تعدد حضارات مختلفـة ، ولا توجد وحدة تربط أيًا من هذه المجالات التى يدور التعدد فى ظلها ؟ مثلاً هـل التعدد والتنوع فى مجال الفنون ، تعدد وتنوع لما ينبغى أن يكون أم لما هو كـائن الآن ؟ وهل التعدد والتنوع فى مجال الفنون الآن يدور فى ظل وحدة تربطـه ؟ أم أنه تعدد فنون من ثقافات مختلفة ولا يوجد وحدة يدور فى ظلهـا هـذا التعـدد ؟ وجاءت فصول المبحث الثانى متضمنة الإجابة عن هذين السؤالين وشملت الفصول الاتية :

الفصل الأول : التعدد والتنوع فى الفقه الإسلامى .

الفصل الثانى : التعدد والتنوع فى الأدب العربى .

الفصل الثالث : عن الفنون الإسلامية ووحدتها وأنواعها وتعـدد الآراء فـى بعض هذه الأنواع .

الفصل الرابع : عن المجتمع الإسلامى ووحدته ، والمجتمع الإسلامى والتعدد، والقواعد والنظم الاجتماعية الإسلامية وما ينبغى أن تكون عليه .

الفصل الخامس : عن أصول الاقتصـاد الإسـلامى .

الفصل السادس : عن المجال السياسى والتعدد والتنوع فى ظل الوحدة فـى المجال السياسى وعن الحرية فى الإسلام مع الإشارة إلى " الفكر الغربى الحديث " ويرجع اهتمامى بالفكر الغربى الحديث لعدة أسباب منها :

١ – أن الفكر الغربى الحديث الآن فى عنفوان قوته وسيطرته وخاصة فـى مجال الأفكار الجديدة والسياسة والاقتصاد .

٢ – التحيز الواضح الذى لايمكن تجـاهله للكتاب الغربيين فى معظم كتاباتهم ضد الأمور الخاصة " بالثقافات العربية " والأفكار الإسلامية ومعطيات الإسلام فى

السياسة والاقتصاد والاجتماع وجميع المجالات الأخرى . وإغفال هـــذه الحقيقــة وتجاهلهـــا يعد فى نظرى غفلة منا ، لابد أن ندركها حق الإدراك ، وقـــد ذكرهـــا بعض الكتاب الغربيين أنفسهم فى كتاباتهم ، يقول " بيتر جران " فى مقدمة كتابـــه " الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر " عن كتابه هذا :

صدر هذا الكتاب بالإنجليزية عام ١٩٧٩م ، وقد قرئ على نطاق واســـــع ، وما أزعجنى هو أن من كتبوا عن مصر بعد هذا التاريخ لـــم يتخلـــوا عـــن عـــام ١٧٩٨م (عام مجئ الحملة الفرنسية كبداية للتحديث فى مصر) ، بل ولم يفكروا فى مجرد طرح الافتراض القائل بأن مصر كانت تتمع بثقافة حية ، وأنـــه كـــان مـــن الممكن أن تنجز عملية التحديث بنفسها . إن هذه الأفكار التى تمثـــل فـــى الحقيقـــة جوهـــر هذا الكتاب ، قد رفضت رفضًا أساسيًا ، وكان مـــن النـــادر أن يستشـــهد باحث بكتابى هذا طوال السنوات الخمس الأخيرة . وما آلمنى أكثر أنـــــه يبـــدو أن حركة الاستشراق المتمرسة فى فقه اللغة قد ماتت فى هذه الفترة الأخيرة . وبالرغم من أن لدينا الآن مؤرخون اجتماعيون ، ومؤرخون متخصصون فى تاريخ المرأة ونقاد ثقافيون ، وكتاب متخصصون فى الصحوة الإسلامية ، إلا أنـــه لا يبـــدو أن هناك أى تغير . هل هناك استشراق جديد كما أن هناك إمبرالية جديدة ؟ أعتقد ذلك.

ويضيف بيترجران " وإذا تأملنا ماينجز من دراسات حول المكســـيك والهنـــد ومقـــارنته بمصر وبنفس المقاييس ، فسوف نلحظ أن مصر لاتزال هـــى الضحيـــة بشكل واضح . إن كتاب اليوم محنكون تمـــــامًا ، ولكنهـــم لايزالـــون عرضـــة للاستغلال كدأبهـــم من قبل . وأظن أن الطريقة التى استقبل بها هذا الكتاب يمكـــن أن تقدم دليلاً على ذلك"(١) مع ملاحظة أن هـــذا الكتاب كتب من وجهة نظر علمانية غربية وسيلحظ ذلك كل من يقرأه .

٣- كثير من الكتاب الغربيين يجهلون مفاهيم الإسلام ومعطياته .

---

(١) " بيترجران " كتاب(الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصـــــر ١٧٦٠- ١٨٤٠م) ترجمـــة محروس سليمان . مراجعة د . رءوف عباس .

٤- كثير من مفاهيم الفكر الغربى الحديث قد غزت أفكارنا ومفاهيمنا وكانت بداية هذا الغزو الحقيقى هو الحقبة الاستعمارية التى احتل المستعمر فيها أغلب البلاد الإسلامية . والذين يعتقدون أن هذا الغزو الفكرى ليس حقيقة وماهو إلا انتقال للأفكار والثقافات نتيجة الاحتكاك الحر المباشر ، فإننى أدعوهم لإعادة القراءة بطريقة حرة نزيهة ولا يتخلوا عن النظرة النقدية عن فترة احتلال المستعمر ، للأراضى العربية ومافعله فى تنشئة أجيال من العرب والمسلمين تحمل المفاهيم الغربية وذلك بطرق عديدة منها الفرض والقهر .

الفصل السابع : العلوم فىالحضارة الإسلامية ويتضمن بعض الأدلة على أن المسلمين هم أول من وضع المنهج التجريبى العملى كما أنهم أول من وضع أسس بعض العلوم الحديثة مثل "علم الجبر" و " علم الاجتماع " وكذلك فضل المسلمين على الحضارة الغربية المعاصرة .

البـــاب الأول

تعريف " الثقـــافة العـــربية "و تعريف " الحضارة الإسلامية " ووحدة كل منهما

الفصل الأول : في تعريف " الثقافة العربية " ووحدتها

الفصل الثاني : في تعـــريف الحضـــارة الإســلامـيــة ووحدتها

الفصل الأول

فى تعريف (الثقافة العربية) ووحدتها

تمهيد تعتبر الثقافة من الأمور الهامة وخاصة فى العصر الحديث ، فقد أولتها الشعوب والدول رعاية عظيمة ، واتخذت وسائل عديدة للمحافظة عليها وتنميتها ، وتجنبها تأثر وغزو الثقافات الأخرى ، ووضعت لها الاستراتيجيات للنهوض بها ، بل أصبحت الثقافات توضع على مائدة المفاوضات السياسية بين الدول .

وكثيرًا ما تظهر محاولات عديدة للدول الغنية والمتقدمة لفرض ثقافاتها وسيطرتها على الثقافات الأخرى .

وما الاختلافات وتباين المواقف والآراء فى كثير من المؤتمرات العالمية مثل مؤتمرات السكان ومؤتمرات البيئة ومؤتمرات اليونسكو وغيرها إلا اختلافات ثقافية ومحاولة هيمنة ثقافة معينة على بقية الثقافات الأخرى .

ومن الملاحظ أن مفهوم الثقافة ليس واضحًا ومحددًا لدى البعض وأصبحت هنالك تفسيرات عديدة وتخريجات متنوعة حتى أصبح مصطلح " الثقافة " لغزًا من الألغاز .

والثقافة مفهوم يشمل جميع فئات الشعب ، يشترك فيه المتعلم والأمى ، ويشترك فيه العالم المتبحر فى العلم والشخص الذى حظه من العلم قليل . ولذلك يجب أن يكون مفهوم ومعنى الثقافة محددًا وواضحًا ، من أجل ذلك اتجهت إلى التركيز على معنى " مصطلح الثقافة " وتشريحه، مبينًا العناصر المكونة له ، وتفصيلها ، وعملية بناء الثقافات المختلفة من هذه العناصر . وقد أغفلت الآراء العديدة والمتنوعة للعلماء والمفكرين فى هذا المجال حتى لاتختلط الأمور ، ويتوه المعنى الحقيقى " لمصطلح الثقافة " فى زحام الآراء والتخريجات والتفسيرات .

أما مصطلح " الحضارة " فمع تعدد الآراء والتفسيرات والاختلافات لهذا المصطلح ، ومع الاختلافات الكبيرة فى تفسير معناه ، إلا أنه يرتبط بصورة

أو بأخرى بالثــقافة . كما أن مصطلح " الثــقافة " لا يوجد اختـــلاف كبــيرحول معناه مثلما هو حادث فى تعريف "مصطلح الحضارة " واستخدام لفظ ثــقافة ولفظ حضارة فى اللغة سابق لتعريف مصطلح " ثــقافة " ومصطلح " حضارة " .

لفظ ثــقافة " Culture " فى اللغة الإنجليزية من الألفاظ التى تطور معناهـــا واكتسبت معـــانى جـــديدة عبر تطورها فى الفكر الأوروبى حتى استقر بها المقام كمصطلح .

وفى الحقيقة أن هناك عدة ألفاظ اكتسبت معنىً جديدًا وعدة ألفـــاظ تطـــورت معانيها فى الفترة الممتده من العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر إلـــى النصـــف الأول من القرن التاسع عشر فى إنجلترا وأوربا . ومن هـــذه الألفـــاظ صناعـــة ، وديمقراطية ، وطبقة ، وفن وثـــقافة . ولفظ ثـــقافة قبل هذه الفترة الممتـــدة مـــن العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشـــــر ، كـــان معناها أساسًا يدل على " اتجاه النمو الطبيعى " ثم أصبح معناها عن طريق التماثل عملية تدريب إنسانى ، غير أن هذا الاستخدام الأخير الذى كان يعنى تهذيب شيء ما فى العادة تغير إلى أن أصبحت لفظة " ثقافة " تعنى شيئًا مستقلاً فى حد ذاتـــه ، وذلك فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر[1]

وأصبح معناها أولاً حالة أو عادة عقلية عامة ترتبط ارتباطـــا وثيقـــا بفكـــرة الكمال الإنسانى ، وغدت ثانيًا " الحالة العامة للتطور الفكرى فى مجتمع بأســـره " والمعنى الثالث هو " الكيان العام للفنون " وفى أواخـــر القـــرن الثـــامن عشـــــر أصبحت تعنى معنىً رابعًا هو : طريقة شاملة للحياة ، مادية وروحية وعقلية .

وأخـــيرًا جاء عالم الأنثروبولوجيا الإنجليزى روبرت ب تيلور عـــام ١٨٧١م فوضع تعريفا محددا لمعنى الثقافة لأول مرة فى التاريخ حيث قـــال إن مصطلـــح الثقـــافة يشير إلى (ذلك المركب الكلى المعقد الذى يشمل المعرفة ، والاعتقـــاد ، والفن ، والقـــانون ، والتعاليم الأخلاقية ، والعـــادات ، وأى عـــادات أو مقـــدرات مكتسبة بواسطة الإنسان كعضو فى المجتمع) ومنذ ذلك الوقت ظل هذا التعريـــف هو التعريف الصحيح للثــقـــافة حتى الآن .

(١) ريموند وليامز" كتاب " الثقافة والمجتمع " ترجمة وجيه سمعان مراجعة محمد فتحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م .

بين الثقـــافة والحضـــارة

هناك آراء متعددة تخلط بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة . فبعض المفكرين يعتبرون الحضارة ما هى إلا الثقـــافة ، والثقافة ما هى إلا الحضارة .

وبعض الآراء ترى أن الثقافة تمثـــل الجانب المعنوى والحضارة تمثل الجانب المادى .

وبعض الآراء تربط الثقافة بالعدد والآلات .. وهذا التنوع فى مفهوم ومعنـــى الثقافة والحضارة يرجع إلى الأسباب الآتية :

١ - الثقـــافة والحضارة موجودة منذ أزمان قديمة ولكـــن وضـــع مصطلـــح لتعريفهـــا فحديث .

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، كانت هناك عدة ألفاظ بدأت تكتسب معانى جديدة فى أوروبا ، ومنها لفظ ثقافة ولفظ حضارة .

وفى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى تم وضع تعريف محدد لمصطلح ثقافة وكذلك لمصطلح حضارة .

وطوال قرن من الزمن وهى الفترة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر كانت هناك آراء عديدة عـــن مفهـــوم الثقافـــة ومفهـــوم الحضـــارة فى كتابات المفكرين والفلاسفة فى الغرب .

ونتيجـــة لذلك كان هـــذا الخلط واللبس فى معانى الثقـــافة ومعانى الحضارة فى بعض الدراســـات التى تغفل تطورات معانى هذه الألفاظ فى الثقافـــة الغربيـــة المعاصرة .

٢ - اختلاف الثقافات هو الســـبب فى اختلاف التعريفات : فى الوقت الراهن بعد أن تحدد معنى الثقـــافة ومعنى الحضارة ، وتم وضع مصطلحات لتعريفهـــا ، فإن مصطلح ثقافة لا يوجد اختلاف كبير بين العلماء والأنثروبولوجيين فـــى فهـــم معناه وتحديد عناصره .

أما مصطلح حضارة فيوجد بعض الاختلافات فى توضيح معناه .

ونحن نرى أن الاختلافات فى تعريف مصطلح حضارة يرجع إلى اختلاف الخلفية الثقافية للعالم أو المفكر الذى يقوم بالتعريف . أى أن اختلاف الثقافات هو السبب فى اختلاف تعريفات مصطلح الحضارة .

ففى الأدبيات الأمريكية يرتبط تعريف مصطلح الحضارة بالتقدم التقنى والتقدم الثقافى .

وفى كتابات بعض العلماء المسلمين أن الحضارة الإسلامية هى : " كل إنتاج مادى أو روحى ينسب إلى الشعوب التى دخلت الإسلام وتشربت الحياة الإسلامية " وفى بعض كتابات المفكرين الهنود يرتبط تعريف مصطلح الحضارة بالنواحى الروحية وليس المادية مثل المفكر الهندى راس فيهارى داس .

وفى بعض كتابات العلمانيين والمتغربين العرب أنه لا توجد فى العالم الآن سوى حضارة واحدة هى الحضارة الغربية الحديثة ولكن يوجد ثقافات متعددة وهذا الرأى الأخير قد جانبه الصواب لأن جميع الآراء فى الشرق والغرب تربط الحضارة بالثقافة برباط وثيق ، فالحضارة ما هى إلا نتاج مجتمعات لها ثقافة معينة كما أن الإنتاج الحضارى يشمل الإنتاج الثقافى .

أولا : تعريف الثقافة

الثقافة فى اللغة العربية من الفعل ثقف أى صار حاذقاً ، وتثقيف الشيء يعنى تسويته وتهذيبه وصقله . والثقافة تعنى التسوية والتهذيب والصقل .

أما إصطلاحًا فإن " الثقافة " مصطلح عصرى وضع تعريف له فى القرن التاسع عشر الميلادى بصورة محددة . وهذا لايعنى أن الثقافة كواقع موجود لم تعرف إلا فى القرن الماضى، إنما يعنى أن هذا التعريف للثقافة قد وضع فى ذلك الوقت . فالثقافة تاريخيًا كانت موجودة ومتداولة ولم يوضع تعريف لمعناها إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى . ومثلها فى ذلك مثل علم العروض فى الشعر العربى فالشعر العربى تاريخيًا ، كان معروفاً ومتداولاً ، يتغنى به الشعراء ، ولكن لم يكن هناك مقياس أو طريقة لمعرفة سلامة موسيقاه الشعرية ، فسلامة موسيقى الشعر العربى كانت تعتمد على الإحساس والموهبة ، فجاء الخليل بن أحمد ووضع عروض الشعر العربى مبينًا لبحور الشعر وأنواعها وقام بوضع نظام لغوى موسيقى لكل بحر ، وبذلك أوجَد نظامًا نعاير به موسيقى الشعر العربى . وكذلك النحو وقواعده كانت اللغة العربية الفصحى موجودة قبل أن يوضع كذلك .

كذلك مصطلح " الثقافة " فهو تعريف لمعناها وضع حديثا لمعرفة العناصر التى تتكون منها الثقافة . ومنذ وضع هذا التعريف ، أصبح من ممكن تنمية الثقافة وتقويتها والمحافظة عليها من الانقراض ، والمحافظة عليها من غزو الثقافات الأخرى ، وكيفية تأثيرها فى الثقافات الأخرى ، وكيفية انتشارها ، وقد رأينا فى وسائل الإعلام ماتفعله الدول المختلفة للمحافظة على ثقافاتها من غزو الثقافات الأخرى .

وقد ذهب كثير من المفكرين فى القرن الأخير إلى مذاهب شتى وتخريجات متنوعه بمعنى الثقافة ولكنها جميعًا تدور فى فلك التعريف الأول الذى وضعه العالم البريطانى إدوارد تيلور . وقد عرفت الثقافة لمفهومها العصرى بصورة محددة ،

ولأول مرة ســنة ١٨٧١ ميــلادية بواســطة عــالم الأنثروبولجيــا البريطـــانى إدوارد تيلــور .

وقد استخدم مصطلح " الثقافة " ليشير إلى " ذلك المركب الكلى المعقد الـــذى يشمل المعرفة ، والاعتقاد ، والفن ، والقانون ، والتعاليم الأخلاقيــة ، والعـــادات ، وأى عادات أو مقدرات مكتسبة بواسطة الإنسان كعضو فى المجتمع "[(٢)] وبعـــد أن وضع تيلور هذا التعريف قام العلماء بكثير من التعديلات والتخريجات والتغـــيرات ولكن ظلت جميعها تدور فى فلك هذا التعريف ولاتناقضه أو تعارضه ، والثقافـــة سلوك مكتسب وليس وراثيًا ، فكل مجتمع له مجموعة مـــن القواعـــد أو المعـــايير الحاكمة للسلوك والمعرفة والفرد فى ظل هذه المعايير منذ ولادته ، فيكتسب ثقافـــة مجتمعه .

والثقافة بهذا المفهوم مختلفة عن مصطلح الثقافة الذى نستخدمه مثلاً لوصـــف شخص على درجة عالية من البراعة والتمكن فى فن من الفنون المتصلة به مـــن التمدن والحضارة كالموسيقى والأدب والفلسفـــة فوصف الثقافة الذى يطلق علـــى مثل هذا الشخص النابغة فى هذه المعارف والفنون العديدة ، يختلف عن مصطلـــح الثقافة الذى وضعها روبرت ب . تيلور والذى يشمل العامل والفلاح مثلما يشـــمل العالم المتبحر فى العلوم والمعارف . فهى سمات تشمل السلوك العفـــوى البســيط مثلما تشمل الفنون الراقية ، وتشمل سمات السلوك العادية كطريقة الأكل وعـــادات الملابس ، مثلما تشمل الفنون الرفيعة كالموسيقى والأدب والفنون الجميلة .

وهذا التعريف العصرى الشامل للثقافة والذى وضعه روبرت تيلور لأول مرة سنة ١٨٧١م والذى يحدد مفهوم الثقافة يحمل فى ثناياه فلســـفة الإنســـان وفلســـفة الجماعة أى مقومات الإنسان ومقومات الجماعة مع ضرورة إنسجام هذه المقومات فى كيان واحد . وإذا حاولنا أن نتعرف على هذه العناصر التـــى تكـــون النســيج المركب المعقد ، والذى أطلق على " مصطلح الثقافة " ، نجد أن عنصر الاعتقاد ، قد يكون دينيا أو لاديني ، وإذا كان دينيـــًا فقد يكون دينًا سماويًا كالإســـلام أو غير

---

(٢) Grolier Academic Encyclopedia p. 384 Culture

سماوى كالبوذية ، أو الهندوكية ، أو غيرها من الديانات الغير سماوية ، وعنصر الأخلاق قد يكون مصدرها الدين أو مصدرها غير دينى وعنصر القانون قد يكون مستمدًا من شريعة سماوية كالإسلام أو غير ذلك . والعادات كذلك تتأثر بعنصر الاعتقاد ، فعادات المأكل والمشرب والملبس والعادات السلوكية وغيرها تتأثر بالديانة سواء كانت ديانة سماوية أو غير سماوية ، أو لادينية .

وكذلك الفنون فتأثرعنصر الاعتقاد فيها كبير ، وبعض الفلاسفة يعرفون الفنون بأنها التعبير المادى عن فكرة دينية (٣) . ويتضح عنصر الاعتقاد فى جميع مجالات الفنون المختلفة وخاصة فى مجال الرسم ، والنحت وفنون العمارة ، فمعابد وتماثيل ورسوم الحضارات القديمة كالحضارة السومرية والبابلية والمصرية والرومانية يتضح فيها معتقدات هذه الشعوب الدينية بصورة واضحه جلية ، وهكذا بقية العناصر ....

ويتضح من ذلك أن عنصر الاعتقاد هوالعنصر الهام فى تكوين النسيج الكلى للثقافة وذلك يرجع لتأثيره على بقية العناصر الأخرى المكونه لهذا النسيج ، وأحداث التاريخ تؤكد ذلك فقبل دخول الإمبراطورية الرومانية فى الدين المسيحى كان عدد أتباعها قليل ، يلاقون الظلم والعنت والاضطهاد على يد حكام الإمبراطورية الرومانية ، وكانت الثقافة الإغريقية هى السائدة فى الإمبراطورية الرومانية ، وعندما آمن الإمبراطور الرومانى أغسطين بالمسيحية ، قام بنشرها فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وترجم الإنجيل إلى اللاتينية وأعلن الأب إيرونيموس Hiernymus أن الفكر الإغريقى لعنة على البشرية ، وأغلق آخر مدرسة للفلسفه فى أثينا عام ٥٢٩م (٤) وأحرقت فى روما مكتبة البلاتين عام ٦٠٠م (٥) .

وقامت جموع المسيحيين المتعصبين بإحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة قبل الفتح الإسلامى وأصبح استخدام العقل للبحث فى الطبيعة وفهم أسرارها ينظر إليه على أنه إساءة لاستخدام القوى التى منحنا الله إياها فيقول الأب لاكتانتيوس

---

(٣) د . سعاد ماهر : " دراسات فى الحضارة الإسلامية " ، المجلد الأول .
(٤) د . نادية حسنى صقر كتاب مناهج البحث فى الحضارة الإسلامية .
(٥) المصدر السابق .

Lactantius لـو كان هناك احتمال للوصول إلى الحقيقة عـن طريـق البحـث والدراسـة ، لكنا قد توصلنا إليها من زمن بعيد ، وبما أنه لم يتوصل إليها برغـم ما ضاع فى سبيل ذلك من وقت وجهد ، فمن الواضـح الجلـى إذن أن الحكمـة والحقيقة لا وجـود لها [٦] . وتوارت أفكار هوميروس وفرجيل ، وبذلـك تغـيرت ثقافة الإمبراطورية الرومانية نتيجة لتغيرعنصر الاعتقاد بعد أن انتشـرت الديانـة المسيحية فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية وحلت الثقافة المسيحية محـل الثقافـة الإغريقية التى كانت سائدة من قبل .

وكذلك عندما دخل الإسلام بلاد فارس والعراق والشـام ومصـر والمغـرب والأندلـس وغيرها ، انصهرت ثقافات هذه الشعوب فى بوتقة الإسلام وأصبحـت الثقافة العربية الإسلامية هى السائدة فى هذه البلاد وحلت محل الثقـافة الفارسـية والرومانية والقبطية .

وكذلك فى أوربا عندما تم القضاء على نفوذ الكنيسة وسـلطاتها وكهنوتهـا وحلت المعتقدات المادية العلمانية محل المعتقدات المسيحية فى القرن السابع عشـر الميلادى ، تغيرت " الثقافة الأوربية المسيحية " ، وحلت محلها " الثقافة الأوربيـة العلمانية " وهى تحمل اعتقادا جديداً أطلق عليه " المادية الجديدة " .

وعندما اجتاحت جيوش هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العباسية واحتل المغول بعض البلاد الإسلامية واحتكوا بالشعوب الإسلامية والثقافـة العربيـة الإسـلامية والدين الإسلامى ، وبعد فتره آمن المغول بالدين الإسلامى بعد أن آمن أحد حكامهم به حيث عمل على نشره فى ربوع الإمبراطورية المغولية وحلت الثقافة العربيـة الإسلامية محل الثقافة المغولية فى بلاد كثيرة من شرق آسيا نتيجة لإيمان شعوبها بالدين الإسلامى .

فعنصر الاعتقاد فى كل ثقافة له التأثيرالأكبر على بقيـة العنـاصر المكونـه للنسيج الكلى لهذه الثقافة، والثقافات تختلف لأن مفاهيم عناصرها مختلفة . فالثقافة الهندية أو الثقـافة الصينية أو الثقافة اليابانية أو الثقـافة الغربية أو الثقافة العربية

---

(٦) المصدر السابق .

الإسلامية ثقافات مختلفة لأن كل عنصر من عناصرها له مفهوم مختلف ، فـــالدين الإسلامى ومفاهيمه الذى يمثل عنصر الاعتقاد فى الثقافة العربية يختلف عن مفاهيم الدين البوذى أو الدين المسيحى أو الدين اليهودى أو اللادينية التى تمثل الاعتقـــاد فى بعض الثقـــافات . ومفاهيم الأخلاق ومصادرها فى الثقافة العربية الإســـلامية مثلاً مختلفة عن مفاهيم الأخلاق ومصادرها فى بقية الثقافات الأخرى وهذا لاينفى أن هناك أخلاقـًا مشتركة . وكذلك بقية العناصر كالقـــانون والعـــادات والفنـــون وغيرها مفاهيمها مختلفة فى الثقافات المختلفة .

والحقيقة أن الثقافات لاتصنعها الشعوب بوعى وإنما هى تصنع وتتكون مــــن عناصرها من تلقاء نفسها عبرالأجيال أثناء تجارب الشعوب الطويلة مع الحياة ومع البيئة ومع غيرها من الأمم .

وكل ثقافات العالم مبنية على اللغة ، فاللغة هى وعاء الثقافة واللغة مثلها مثل الثقافة لاتنتمى إلى الوراثة أو الجنس بل هى تكتسب وتتعلم .

ثانياً : تعريف الثقافة العربية

الثقافة العربية هى ثقافة الشعوب التى اعتنقت الإسلام ، وإطلاق مصطلح " الثقافة العربية " على ثقافة الشعوب الإسلامية التى تتكلم اللغة العربية فقط دون ثقافة الشعوب الإسلامية التى لغتها غير عربية مثل باكستان وإيران وبنجلادش وغيرها ، هو إطلاق مجازى يجب أن ننتبه إليه ونصححه وليس هنا مجال مناقشة كيفية نشأة هذه التسمية ولكن سوف نوضح فقط لماذا كانت هذه التسمية مجازية وليست حقيقية وسنوضح ذلك فى السياق التالى :

١ - إذا رجعنا إلى تعريف مصطلح " الثقافة " الذى استقرعليه تعريف معنى الثقافة فى الشرق والغرب نجد أنه " ذلك النسيج الكلى المركب الذى يشمل المعرفة، والاعتقاد والفن والتعاليم الأخلاقية والقانون والعادات وأى مقدرات مكتسبة بواسطة الإنسان كعضو فى المجتمع " ، هذا التعريف لايشمل اللغة كعنصر من عناصره فاللغة وعاء للثقافة وليست عنصر من عناصرها وهناك دول عديدة لغاتها مختلفة ولكن ثقافتها واحدة ومنها الدول الإسلامية والدول الغربية العلمانية .

٢ - ليس هناك فرق بين مصطلح " الثقافة العربية " و" الثقافة العربية الإسلامية " وإطلاق مصطلح " الثقافة العربية " على ثقافة الشعوب التى تتكلم العربية فقط يعنى " الثقافة العربية الإسلامية " .

٣- وإذا اعتبرنا أن عنصر " اللغة العربية " من عناصر " الثقافة العربية الإسلامية " لأن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم والقرآن الكريم هوالكتاب المقدس للمسلمين . كما سنوضح فيما بعد ، فإن مصطلح الثقافة الإسلامية الذى يشير إلى ثقافة الدول الإسلامية التى لاتتكلم العربية يعنى الثقافة العربية الإسلامية وبذلك فهناك مصطلحات ثلاثة بمعنى واحد للثقافة العربية يمكن استخدام أى منها وهى : -

١ - الثقافة العربية الإسلامية .

٢ - الثقافة العربية .

٣ - الثقافة الإسلامية .

وقد نشأت الثقافة العربية مع مجيء الإسلام وانتشرت بانتشاره ، حيث شملت رقعة واسعة من العالم امتدت من غانة إلى فرغانة ومن المحيط الأطلسى إلى الصين وقد دخلت شعوب مختلفة الثقافات فى حوزة الإسلام ، وانصهرت ثقافاتها المختلفة فى بوتقة الإسلام ، وخرجت لنا الثقافة العربية الإسلامية التى غطت هذه الرقعه المتسعة من الأرض . وقد ظل العالم الإسلامى دولة واحدة لعدة قرون لها رئيس واحد هو الخليفة ، ولغة رسمية واحدة هى اللغة العربية ، وعاصمة واحده هى عاصمة الخلافة ، ينتقل الناس والتجار والرحالة فى أرجائها ولكل إنسان الحق فى الاقامة فى أى مكان حسب مشيئته ، وحتى بعد تفتت الدولة الإسلامية الواحدة إلى عدة دول فإن حرية التنقل والإقامة والعمل فى أى مكان فيها لأى فرد كانت مكفولة حتى القرن الماضى وقد ظلت ثقافة شعوبها سواء كانت دولة واحدة أو عدة دول " ثقافة " واحدة حتى أواخر القرن الماضى ، عندما احتل الاستعمار أغلب دول العالم الإسلامى ، وعمل على غزو " الثقافة العربية الإسلامية " وهدد وحدتها . وقد ظلت الثقافة العربية الإسلامية محافظة على وحدتها لم تتغير مفاهيم عناصرها حتى آواخر القرن الماضى .

ومنذ أواخر القرن الماضى وحتى الآن ، تغيرت بعض مفاهيم عناصر الثقافة العربية الإسلامية ، مثل إحلال القوانين الفرنسية محل القوانين المستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية فى بعض الأقطار الإسلامية ، ودخول بعض عادات الغرب التى تمثل ثقافته لتحل محل عاداتنا الإسلامية وكذلك بعض التغييرات فى مجال الفنون وغيرها مما هدد وحدة الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة .

وعنصر الاعتقاد فى الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة هو الدين الإسلامى وكل العناصر المكونه للنسيج الكلى للثقافة العربية الإسلامية تحمل مفاهيم الدين الإسلامى ، فالتعاليم الأخلاقية هى تعاليم الدين الإسلامى الأخلاقية ، والقوانين هى القوانين المستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية ، والعادات هى العادات الإسلامية مثل عادات الطعام والشراب والملابس والأعياد والأفراح وغيرها من العادات .

والفنون : تحمل مفاهيم الدين الإسلامى ، وخاصة فى مجال العمارة والفنون التطبيقية وغيرها . والمقدرات التى يكتسبها الإنسان من المجتمع الإسلامى لها معايير ومقاييس وأنماط اجتماعية إسلامية اكتسبتها المجتمعات الإسلامية من مفاهيم الإسلام على مر التاريخ ، وكذلك فى مجال المعرفة ، فجميع المعارف متاحه فى الإسلام أما مباشرتها فعلاً ففى حدود ألا تحل حراماً أو تحرم حلالاً .

ويمكن تعريف مصطلح الثقافة العربية الإسلامية بأنها (هى ثقافة الشعوب الإسلامية والتى تحمل عناصرها المكونة لنسيجها الكلى مفاهيم الدين الإسلامى ومعطياته ، فى المعرفة والاعتقاد والفنون والتعاليم الأخلاقية والقانون والعادات وأى مقدرات مكتسبة بواسطة الإنسان كعضو فى المجتمع الإسلامى) .

ثالثا : وحـدة الثقـافة العـربية

ترجع وحـــدة " الثقافة العربية الإسلامية " إلى الدين الإسلامى فكل عنصر من العناصر المكونة لنسيج " الثقافة العربية الإسلامية " يحمل مفاهيم ومعطيات الديـــن الإسلامى فالمعرفة أوالاعتقاد أوالفنون أو القانون أو التعاليم الأخلاقية أوالعـــادات وأى مقدرات مكتسبة بواسطة الإنسان بوصفه عضواً فى المجتمع الإسلامى ، كـــل عنصر من هذه العناصر المكونة للنسيج الكلى المركب والمعقد "للثقـــافة العربيـــة الإسلامية " يحمل مفاهيم الدين الإسلامى التى تسود " الثقافة العربية الإسلامية " .

أ - فالدين الإسلامى كان هو الأساس الذى قامت عليه وحدة " الثقافـــة العربيـــة الإسلامية " .

ب - القيم الأخلاقية فى " الثقافة العربية الإسلامية " مصدرها الديـــن الإســـلامى وكان ذلك عاملاً من عوامل وحدة " الثقافة العربية الإسلامية " .

جـ - والقوانين التى هى عنصر من عناصر " الثقافة العربية الإسلامية " مـــاهى إلا قوانين أحكام الشريعة الإسلامية التى طبقت على الأفـــراد والمجتمعـــات والدول الإسلامية طوال التاريخ الإسلامى .

ء - العادات التى هى عنصر من عناصر " الثقافة العربيـــة الإســـلامية " هـــى العادات الإسلامية التى اكتسبها الأفراد والمجتمعات مـــن مفـــاهيم الإســـلام ومعطياته فكان ذلك عاملاً هامًا من عوامل وحدة الثقافة العربية الإسلامية .

هـ - وكذلك المجتمعات الإسلامية وما اكتسبته من قواعد ونظم إسلامية وأثـــر ذلك على الأفراد وعاداتهم ومقدراتهم المكتسبة ومعارفهم مما كان له أثـــره على وحدة الثقافة العربية الإسلامية .

و - والفنون كانت تحمل المفاهيم الإسلامية .

وسوف نلقى الضوء على كل عنصر من هذه العناصر .

(أ) الدين الإسلامى أساس وحدة (الثقافة العربية) :

الدين الإسلامى ليس مجرد عقيدة وطقوس يؤديها الفرد ، بل هو نظام كامل لحياة الفرد والجماعة . ولما كان الدين الإسلامى هو الرسالة الخاتمة التى أنزلت على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم الرسل أجمعين ، فقد جاء للناس كافة ، صالحا لكل زمان ومكان قال تعالى : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا "[٧] وقال تعالى : "قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته وآتبعوه لعلكم تهتدون "[٨] وقال تعالى : " تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا "[٩] .

لذلك جاءت رسالة الإسلام جامعة شاملة ، وجاء مالا يختلف باختلاف الزمان والمكان بها مثل العقائد والعبادات والأحكام القطعية، مفصلاً تفصيلاً تامًا بالآيات العديدة الشارحة له والمبينة له وبالسنة النبوية الصحيحة وليس فيه اجتهاد ولاتغيير ، أما ما يختلف باختلاف الزمان والمكان فقد جاء مجملاً يحتاج لاجتهاد العلماء حسب كل عصر والأمة الإسلامية كما جاء فى القرآن الكريم ، أمة واحدة حتى وإن تعددت ، الأقطار قال تعالى : " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون "[١٠] ، ويقول تعالى : " وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون "[١١] وثقافتها ثقافة واحدة ومفاهيمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها مفاهيم واحدة ، وقد اشتمل الإسلام على كثير من الأصول والتشريعات والأحكام التى تناولت شتى نواحى الحياه وسنوجزها فيما يلى :

١- العقائد :

وتتمثل فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره فالإيمان بالله سبحانه وتعالى فى العقيدة الإسلامية يستوجب الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس له شريك ولا شبيه فى ذاته وصفاته

---

(٧) سورة سبأ آية ٢٨ .
(٨) سورة الأعراف آية ١٥٨ .
(٩) سورة الفرقان آية ١ .
(١٠) سورة الأنبياء آية ٩٢ .
(١١) سورة المؤمنون آية ٥٢ .

وأفعاله يقول تعالى : " قل هو الله أحـد الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفـوًا أحـــد "[١٢] .

ويقول تعالى : " وإلهكم إلــه واحــد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم "[١٣] .

والشهادتان اللتان يقولهما الإنسان المسلم " أشهد ألا إلــه إلا اللــه وأشــهد أن محمدًا رسول الله " .

تعنى إثبات ذات الله تعالى ، وإثبات صفاته ، وإثبات أفعاله جل فـى عــلاه وإثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما تعنى بناء الإيمــان علــى هــذه الأركان الأربعة[١٤] .

والإيمان بالملائكة التى من خلق الله سبحانه وتعالى وهى تســبحه دائمًــا : " قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم "[١٥]

ويدعون الله دائمًا "ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما "[١٦] والإيمان بالرسل أجمعين وأولهم سيدنا محمد صلى الله عليه وســلم والإيمان بالكتب التى أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله، يقــول تعالى : " الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون "[١٧] والإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره.

٢- العبـــادات :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بنى الإســلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاه وإيتاء الزكاه وصـــوم رمضـــان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا " فالشهادتان ، والصلاة ، والصوم ، والزكـــاة والحج هى أركان الإسلام وهى وسائل لدوام الذكر والارتباط بالله سبحانه وتعــالى وتزكية النفس وتصفيتها من الادران كما أنها وسائل بناء النفس القويـــة والإيمـــان الصادق والبناء الاجتماعى المتين . . .

---

(١٢) سورة الإخلاص . (١٣) سورة البقرة آية ١٦٣ .
(١٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى . الباب الثالث جوامع الأدلة للعقيدة .
(١٥) سورة البقرة آية ٣٢ . (١٦) سورة غافر آية ٧ .
(١٧) البقرة آية ٥ .

٣ - الأخـــــلاق :

الأخلاق الإسلامية عميقة الأثر فى بناء الفرد والأسرة والمجتمع ومن ثم كانت انعكاساتها فى مجالات الحياة المختلفة كالمجال الثقافى والسياســـى والاقتصـــادى . يقول الله سبحانه وتعالى فى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم " وإنـــك لعلـــى خلق عظيم "[(١٨)] .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

وقد دعى الإســـلام إلى كل خلق طيب ونهى عن كل خلق مذموم . والأخلاق الحسنة التى يحض عليها الإسلام ويدعو الناس للتمسك بها مثل الصدق والأمانة ، والإخلاص والحلم والتعاون والشكر والرحمة والإيثار والكـــرم والعطـــف علـــى الفقراء والضعفاء ، والحب فى الله والعدل . . . والأخلاق الســـيئة التـــى ينهـــى الإسلام عنها مثل الكذب والغش والخداع ، والنفاق ، والخيانة والرياء ، والحسد ، والغضب والبخل والشح والظلم .

والأخلاق الإسلامية تتميز بميزة عظيمة لأن مرجعيتها وينبوعها هو الإســـلام وهو ينبوع ثر لاينضب ولايغيض ، نقى ، مسترسل لايتوقف ، مبرأ من العيـــوب بعكس الينابيع الأخرى التى لاتخل من انقطاع ، وغيض وضيـــق مثـــل الينـــابيع اليونانية والرومانية وغيرها [(١٩)] .

والإسلام الذى أضفى على الأخلاق هذه الميزه العظيمة كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة جعل الأخلاق الحسنة والفضائل مأمور بهـــا فـــى شريعة الإسلام فهى واجبة ، وجعل الأخلاق السيئة والرذائل منهـــى عنهـــا فـــى الإسلام فهى محرمة . واتباع الأخلاق الحسنة والفضائل فى الإسلام فيـــه معنـــى خلقى ومعنى تعبدى أى أن التمسك بالأخلاق الحسنة والفضائل معناه أننى تمسكت بالأخـــلاق الخلقـــية المحمودة والمقبولة والمفضلة ، ومعناه أننى تقربت لله سبحانه

---

(١٨) سورة القلم آية ٤ .

(١٩) د . أحمد محمد الحوفىعضو مجمع اللغة العربية وأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القـــاهرة: "الأساس الإسلامى للأخلاق " كتاب (دراسات فى الحضارة الإسلامية) المجلد الثالث .

وتعالى بالتمسك بهذه الأخلاق الحميدة وسوف يثيبنى سبحانه عليها فى الآخرة ، وبالمثل تجنب الأخلاق السيئة والرذائل فيه نفس المعنى الخلقى والتعبدى [٢٠] .

وأم الفضائل والأخلاق الحسنة فى الإسلام " فضيلة التقوى " . ويقول الدكتور أحمد محمد الحوفى فى بحثة " الأساس الإسلامى للأخلاق : (كما أن الإسلام جعل من فضيلة " التقوى " أهم الفضائل وأعظمها . و" للتقوى " دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه وتشمل خشيته سبحانه وتعالى والخوف من عقابه . والتقوى بهذه الدلالة الشاملة تعتبر المحور الذى تدور حولة الأخلاق الإسلامية وهى الأساس الوطيد الذى لايتبدل ولايخضع للأهواء أو المقاييس الفردية، أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير . فالتقوى هى المركز الذى تلتف الفضائل من حوله ، ويرنو إليه كل فرد برغبة ورهبة ، ويدور فى محيطه سواء حقق له نفعـًا عاجلا أم لم يحقق ، بل إنه يدور من حوله منجذبا إليه ، وإن كان فى دورانه ضرر محقق يمسه فى نفسه أو فى ماله أو فى رغبة من رغباته . وما من شك أن الذى يتقى ربه يحبه ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه فيحيا فى طهارة نفس وصلاح عمل ، وبراءة تدبير ، وثراء من الخير والحق وينفر من كل شر ويتحاشى كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى – وهو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها – إلا كريما ، شجاعا ، عادلا ، أمينا عفيفا ، صادقا ، . . . . مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب والغرور ومن كل رذيلة) .

ويقول د . الحوفى :

(وقد ترددت مادة التقوى فى القرآن الكريم بهذا المعنى تسعا وثلاثين ومئتى مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثا وثمانين ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات وكلمة الأتقى مرتين) ويضيف : (ونستطيع أن نستنبط

---

(٢٠) الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر : " بحث فى الفقه الإسلامى " كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " المجلد الثالث .

للتقوى – مع هذه الدلالة العامة التى تجمع كل فضيلة ، وتنفى كل رذيلة – معانى جزئية تتصل بكل فضيلة معينة، كما نجدها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها :

(أ) فالكرم متصل بها في قوله تعالى : " فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى "[21] . وفى قوله تعالى : " وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى"[22] .

(ب) والشجاعة متصلة بها فى قولة تعالى : " يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يولونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ")[23] .

وهكذا يمضى د . الحوفى مبينا اتصال " التقوى " بالصدق والعدل والعفة والوفاء والرحمة والعفو والصبر والأمانة وقوة العزيمة والتسامح وأداء الدين والوفاء به وإصلاح ذات البين والكسب الحلال ، مستدلا ومستشهدا بالآيات القرآنية الكريمة . وهكذا نتأكد أهمية فضيلة التقوى وأنها المحور الذى تدور حولة الأخلاق الإسلامية الكريمة .

٤- المعاملات :

وهى الأحكام التى تنظم علاقات الناس ببعضهم وتقيم الروابط بينهم على العدل والرحمة والمحبة والتعاون ورفع أسباب الضر والعدوان .

واجتلاب الخير والمنفعة للناس جميعا ، ويدخل فى ذلك نوعان :

– **المعاملات المدنية** : مثل معاملات البيع والشراء ، والرهن والإجارة والشركة . . . .

– **الأحوال الشخصية** : مثل الزواج والطلاق والنفقة والعدة . . . .

---

(٢١) سورة الليل آية ٥ – ٧ .
(٢٢) سورة الليل آية ١٧-٢٠ .
(٢٣) سورة التوبة آية ١٢٣ .

٥- العقوبات :

لم يقم الإسلام على العقوبات ، بل قام على تهذيب النفس وتطهير القلب ولم تأت العقوبات إلا فى المقام الأخير لتردع هؤلاء الذين لم تردعهم الموعظة الحسنة، وتشمل الحدود حد الزنا والقتل ، وقطع الطريق ، والسرقة والقذف . . . وبجانب هذه الحدود القليلة القاطعة التى جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هناك باب واسع لنظام العقوبات فى الإسلام هو " التعزير "[٢٤] .

٦- العلاقات :

حدد الإسلام وأوضح العلاقة التى تربط الإنسان بربه وبالحياة والأحياء . . . وهناك أحكام نظمت علاقات المسلمين بعضهم مع بعض ، مثل علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة الزوج بزوجته وعلاقة الولد بوالده وعلاقة المسلم بالجار وعلاقة المسلم بذوى القربى وبالأصدقاء وبإخوانه المسلمين . وهناك أحكام نظمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبينت حقوق ولى الأمر على الرعية وحقوق الرعية على ولى الأمر . وهناك أحكام نظمت علاقات المسلمين بغير المسلمين وهى الأحكام التى تناولت احترام الأديان الأخرى وحرية أهلها فى عقائدهم وعصمة أرواحهم وأعراضهم وأموالهم إلا بالحق . . . .

وهناك أحكام شرعت للحرب والقتال وما يترتب على ذلك من الغنائم ومعاملة الأسرى[٢٥] .

---

(٢٤) د . محمد محمد عبد القادر الخطيب : " دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية " .
(٢٥) نقلا عن المصدر السابق .

(ب) القيم الأخلاقية الإسلامية من عوامل وحدة (الثقافة العربية):

القيم الأخلاقية فى الثقافة العربية الإسلامية مصدرها الإسلام فقد جاء الإسلام وقيم العرب الجاهلية تسود الجزيرة العربية فأقر الإسلام القيم الخيرة مثل الكرم والشهامة والنجدة وأخلاق الفروسية العربية ، أما قيم الجاهلية التى سادت قبل الإسلام مثل البغى والظلم والتفاخر بهما مثل قول الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا	ولكنا سنبدأ ظالمينا
وأحيانا على بكر أخينا	إذا مالم نجد إلا أخانا

فقد حرمها الإسلام .

وحلف الفضول الذى أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه تدل على ذلك ، وقصة حلف الفضول كما روتها كتب السيرة تتلخص فى أن بعض القبائل من قريش وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، وزهرة بن كلاب ، وأسد بن عبد العزى ، وتيم بن مرة ، تداعت إلى حلف ، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وسمت ذلك حلف الفضول .

وسبب عقد حلف الفضول ، أن العاص بن وائل اشترى بضاعة من " زبيدى" وماطله فى ثمنها وامتنع عن الدفع ، فاستعدى عليه بعض الناس ، فلم ينصروه لشرف العاص ومكانه فيهم . فوقف الرجل على جبل أبى قبيس مطلع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، وأنشد شعرًا يعرض فيه أمره ومظلمته ، ويدعو الناس لنصرته فهب الزبير بن عبد المطلب وقال : مالهذا مترك ؟ . وقد سمت قريش هذا الحلف حلف الفضول لأنهم قالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر . وقد شهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف فى شبابه . فعن طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت "[٢٦] .

وقد أتى الإسلام بالقيم الإسلامية الجديدة التى تناسب الفطرة الإنسانية مثل العدل والإحسان والرحمة بالفقراء والمساكين والمحبة والألفة والعطف على الصغير وبر الوالدين والدعوة إلى التوبة من الذنوب بدون وسائط بين العبد وربه ، ونهى عن البغض والظلم والتجبر والإفساد فى الأرض ، يقول تعالى : " إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى" . كما نهى الإسلام عن الغدر والكذب ، والنفاق والسرقة والزنا وشرب الخمر وحرمها. وقد بين الإسلام كيفية معاملة غير المسلمين : " لهم ما لنا وعليهم ماعلينا " ومعاملة الأسرى فى الحرب ، وغيرها من القيم وقد كرم الإسلام المرأة وحفظ لها كرامتها وحريتها ، فألغى وحرم كثير من العادات التى كانت موجودة فى الجاهلية مثل وأد البنات وكثيرمن عادات وأنواع الزواج التى كانت تحط من قدر المرأة وإنسانيتها والتى سنوردها فيما يلى :

١- نكاح الاستبضاع :

قد أشارت السيدة عائشة رضى الله عنها عن هذا النوع من النكاح الذى كان سائدًا قبل الإسلام بقولها : " كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمسها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولايمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب[٢٧] . ونكاح الاستبضاع أجازة مشرع " إسبرطة " الشهير " ليكورغوس" فأباح للأزواج أن يرسلوا زوجاتهم لعظماء الرجال لإنجاب طفل يتميز بالنبوغ والتفوق ، وحث " ليكورغوس" الشيوخ من الأزواج للبحث لزوجته الشابة على فتى جميل

---

(٢٦) ابن هشام ١٣٨/١ انظر الجزء ١٩ من الأغانى (٦٥٩٧-٦٦١٦) حيث ذكر روايات متعددة ومختلفة عن الحلف والمشتركين فيه وآثاره وذكر أن سن النبى صلى الله عليه وسلم آنذاك كانت ٢٥ سنة . انظر : د .جابر قميحة . كلية الألسن جامعة عين شمس . المدخل إلى القيم الإسلامية كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " الجزء الثالث .

(٢٧) رواه البخارى فى باب من قال (لانكاح إلابولى) .

كريم الخلق لتستمتع به ، وعد هذا العمل من أعمال الفضيلة الجليلة ومن الأعمال الوطنية العظيمة إذ تنسل للبلاد نسلاً قويًا[٢٨] . وقد أعار سقراط نفسه زوجته جزانتيب Xantipp إلى " أوليسياب " Oliciabe .

٢- نكاح عدة أزواج (أقل من عشرة) بامرأة واحدة :

قالت السيدة عائشة أم المؤمنين فى حديثها عن النكاح فى الجاهلية الذى سبق ذكره : " كان يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصيبونها ، فإذا حملت ووضعت ترسل إليهم فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع، فإذا اجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، و قد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل . ويظهر من هذا أن عدد الرجال الذين يباح لهم الزواج بامرأة ومن هذا النظام ما كان يصح أن يزيدعن تسعة ، وأن معاشراتهم للزوجه لم تكن بصوره دائمه ولم تكن لها صفات الحياه العائلية وإذا زاد عدد الرجال عن تسعة اعتبرت المرأة بغيًا وطبق عليها نظام البغاء الذى أشارت إليه السيدة عائشة رضى الله عنها فى قسم من حديثها .

٣- نكاح البغاء وقد اشارت السيدة عائشة إليه بقولها :

" ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير[٢٩] فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على بيوتهن رايات تكون علمًا فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا ودعوا لها القافة[٣٠] ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به[٣١] ودعى ابنه لا يمتنع عنه " وختمت عائشة حديثها بقولها رضى الله عنها :

---

(٢٨) د .على عبد الواحد وافى : " بحوث فى الإسلام والاجتماع " .
(٢٩) أكثر من عشرة .
(٣٠) القافة : هم الخبراء فى فن القيافة وهو فن كان منتشرًا عند العرب يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذى انحدر الولد من مائه عن طريق الشكل الخارجى لتكوين أعضائه وحجمها ولون بشرته . . . والقافة أيضًا قصاصو الأثر .
(٣١) ادعاه ولداً .

" فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم "[٣٢] . على أن العرب في الجاهلية كان يحتقرون البغايا ومن وأقوالهم " تموت الحرة ولا تأكل بثدييها " وكان البغاء مقصوراً على الإماء .

٤- الزواج بالبنات والأخوات :

كان يباح عند بعض عشائر العرب في الجاهلية وخاصة عند القبائل التي كانت على دين المجوس إلى جوار فارس ومنهم : لقيط بن زرارة الذي تزوج بنته وسماها بالاسم الفارسي " دختنوس " . وقد حرم الإسلام زواج البنت أو الأخت . قال تعالى :" حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم "[٣٣] .

٥ - نكاح السفاح :

كان بعض عشائر العرب يبيح لخطيب البنت أن يختلط بها ويعاشرها فإذا قبل كل منهما الآخر تم الزواج وإلا فسخت الخطبة . وقد حرم الإسلام ذلك .

٦ - نكاح السبي :

كان بعض قبائل العرب يبيح الاستيلاء على المرأة بالقوة فإذا انتصر على من يقاومه عاشرها معاشرة الأزواج .

وفي ذلك يقول حاتم الطائي :

فما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناها بأسيافنا قصرا

٧ - نكاح الشغار :

هذا النوع من النكاح كان مباحاً لدى كثير من قبائل العرب . فيتزوج الرجل من ابنة رجل على أن يزوجه ابنته بدون دفع مهر وسمي الشغار ومعناه خلا من دفع المهر . وقد حرم الرسول هذا النوع من الزواج ، فعن نافع عن ابن عمر : "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشغار ، والشغار أن يزوج الرجل بنته على أن يزوجه الحر ابنته ليس بينهما صداق "[٣٤] .

---

(٣٢) رواه البخاري في باب من قال (لانكاح إلا بولي) .

(٣٣) سورة النساء آية ٢٣ .

(٣٤) أخرجه البخاري في باب (نكاح الشغار) .

٨ - **التعدد بدون تقيد بعـــدد :**

وكان هذا مباحًا بل كانت القاعدة عند جميع القبائل العربية قبل الإسلام . وقد أباح الإسلام التعدد فى حدود خاصة وبقيود معينة .

٩- الجمع بين الأختين :

وقد حرمه الإسلام تحريمًا باتـًا قال تعالى : " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم . . . . . وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف "(٣٥) . والجمـــع بيـــن الأختين يؤدى إلى العداوة فى الأسرة الواحدة .

١٠- زواج المقت :

وهو الزواج بزوجة الأب . وكانت تبيحه بعض القبائل العربية فى الجاهليـــة وقد حرمه الإسلام . . قال تعالى " ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قـــد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا "(٣٦)

١١- زواج المتعـــة :

وهوزواج مؤقت ينص العقد على أن ينتهى هذا الزواج فى تاريخ محدد تنتهى بحلوله رابطة الزوجية من تلقاء نفسها ، وقد أحلها الإسلام فى بـــادئ الأمـــر ثـــم حرمها بعد ذلك تحريما باتا .

١٢ - وراثة الأخ لزوجة أخيه والقريب لزوجة قريبه :

أخـــذ بهذا النظام كثيرمن عشائر العرب فى الجاهلية فكان إذا مات الرجل وله عصبة ، ربما كان أخاه أو ابن عمه - ألقى هذا القريب ثوبه على زوجة المتوفـــى وقال : أنا أحق بها . ثم إن شاء استبقاها لنفسه ، وإن شاء زوجها لغـــيره وأخـــذ صداقها رضيت بذلك أو كرهت ، وإن شاء عضلها عن الزواج لتفتدى بما ورثـــت عن زوجها(٣٧) . وشـــريعة اليهود تأخذ كذلك بهـــذا النظام . وقد حرم الإسلام هذا

---

(٣٥) سورة النساء آية ٢٣ . (٣٦) سورة النساء آية ٢٢ .

(٣٧) تفسير البيضاوى لقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها) .

النظام تحريما باتا ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن "[٣٨] .

١٣ – عضل المرأة عن الزواج وتزويجها بدون رضاها أو بدون أخذ رأيها :

كان بعض الأباء أو أولياء الأمور قبل الإسلام يتحكمون فى بناتهن ، فيعضلوهن عضلا تاما عن الزواج أحيانا ، ويزوجوهن أحيانا بدون أخذ رأيهن . وقد حرم الإسلام ذلك ، قال تعالى : " فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون "[٣٩] .

(٣٨) سورة النساء آية ١٩ .

(٣٩) سورة البقرة آية ٢٣٢ .

(جـ) القانون المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية وأثره فى وحـــدة (الثقافة العربية) :

القانون فى الثقافة العربية الإسلامية مصـــدره أحكـــام الشــريعة الإســـلامية والقوانين التى سادت المجتمعات الإسلامية على مدى التاريخ ، كانت كلها مستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية . فالقانون الذى كان يطبق فى بغداد كان هـــو نفســه الذى يطبق فى الهند وفـــارس ومصر وبلاد المغرب العربى وغيرها مـــن البـــلاد الإسلامية ، وكان كل إقليم له قـــاض يجتهـــد فى اســتخراج الأحكام من القـــرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . حتى قام الإمام مالك بوضع " الموطأ " وقام بقية الأئمة الأربعة فى وضع مذاهـــبهم الفقهية التى كانت مرجعًا للقضاة فى أحكــــامهم فى شتى الأمصار الإسلامية .

هذه الوحدة القانونية التى ربطت الشعوب الإســـلامية علـــى مـــدار التـــاريخ وانعكست على جميع الأفراد ومساواتهم فى الحقوق والواجبات منذ فجر الإسلام ، كان لها أثر كبير على وحـــدة الثقـــافة العربية الإسلامية وتميزها عـــن الثقافـــات الأخرى ، وكانت النظم القضائية تكفل العدالة المطلقة لكل النـــاس ، وكـــانت لهـــا مبادئ لم يكن الجنس البشرى يحلم بها قبل الإسلام مثل المســـاواة المطلقـــة بيـــن المتخاصمين فى مجلس القضاء والعلانية فى القضاء والشروط التى يجب أن يختار القاضى على أســـاسها . وقد حفل تاريخ القضاء الإسلامى بصور من العدل ينـــدر أن توجد فى أى ثقافة أو حضارة أخرى حتى الآن . وقد ظل القـــانون الإســـلامى سائدا ومسيطرا فى شتى المجتمعات الإسلامية حتى أواخر القرن المـــاضى حتـــى جـــاء الاستعمار إلى البلاد الإسلامية حيث انسلخت بعض الأقطـــار مـــن تطبيـــق القانون الإسلامى واتبعت القوانين التى وضعها المستعمر والمستمدة من الثقافـــات الأخرى مثل القـــانون الفرنسى الذى كان مصدر تشريعى هام فى مصر وغيرهـــا من البلاد الإسلامية ، مما كان له أثره الكبيرعلى وحدة الثقافة العربية الإسلامية .

(ء) العادات الإسلامية وآثارها فى وحـدة الثقافة العربية :

فالعادات فى الثقافة العربية الإسلامية مرتبطه بمفاهيم الإسلام وتعاليمه فالدم، ولحم الخنزير ، المسكرات وكذلك الطعام الذى اكتسب من حرام ، وما أهل لغـــير الله (وهو الطعام الذى لم يذكر اسم الله عليه عند ذبحه) ، والمنخنقة (أى التـــى تخنق فتموت) والموقوذة (أى التى ضربت بعصا فقتلت) ، والمتردية (أى التـــى تسقط من مكان عالٍ فتموت) ، والنطيحة (أى التى نطحها حيوان آخر فأماتهـــا) وما أكل الســـبع إلا ما ذكيتم (أى ما جرحه الحيوان المفـــترس إلا إذا أدركتمـــوه وفيه حياة فذبحتموه فهو يحل لكم) وما ذبح على النصب (أى ما ذبح وقصد به ما يعبد من دون الله) كل ذلك وغيره من الطعام الذى حرمه الإســـلام وقـــد بينـــت الشريعة الإسلامية طريقة ذبح الحيوان كما بينت آداب الطعام مثل غسل الأيدى قبل أكل الطعام وبعده ، والبسملة عند بدء الأكل وحمد الله وشكره عند الانتهـــاء مـــن الأكل والشـــرب والأكل باليد اليمنى وعدم الأكل فى آنية مـــن الذهـــب والفضـــة والنهى عن امتلاء المعدة فى الأكل والشرب أما من ناحية الملبس : الأصـــل هـــو الإباحة لجميع الملابس مادامت تستر العورات وتلـــتزم بعـــدم التـــبرج . والـــزى الإسلامى يمتاز بالاعتدال وعـــدم التبرج والنظافة وســـتر العـــورات . والإســـلام لايمنع الطيبات من الرزق والتزين فى الملبس قال تعالى : " قل من حـــرم زينـــة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق "[(٤٠)] .

وقـــد حـــرم الإسلام لبس الحـــرير والذهب للرجال وأباحها للنســـاء ومـــن ناحية العادات السلوكية : فالإسلام أمر بإفشاء السلام وإطعام الطعـــام ، والصـــلاة بالليل والناس نيـــام ، كما أمر بالاستئذان عند دخول البيوت والتحية والمصافحـــة عند الالتقـــاء وعند الانصراف كما أمر الإسلام بالمعروف ونهـــى عـــن المنكـــر وتوقير الكبير ، والعطف على الصغير وآداب الحديث . يقول الرسول صلى اللـــه عليه وسلم "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس مـــن أجل أن يحزنه "[(٤١)] .

---

(٤٠) سورة الأعراف آية ٣٢ .

(٤١) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٤٢ .

والعادات فى الاحتفالات ومواعيدها ومناسبتها فى الثقافة العربية مثل الاحتفال بالعيدين والاحتفالات فى شهر رمضان والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج والاحتفال بالمولد النبوى الشريف والاحتفال برأس السنة الهجرية كلها عادات إسلامية يحتفل بها المسلمون فى شتى أقطار الأرض وغير ذلك من العادات الإسلامية التى كانت من أسباب " وحدة الثقافة العربية الإسلامية " .

(هـ) الإسلام والمعرفة :

جاء الإسلام ليخاطب فى الإنسان كل وسائل المعرفة والحس ، من عقل وجسد وإحساس وغرائز وقد خص الله سبحانه وتعالى إحدى هذه الوسائل وهى العقل بأكبر قدر من العناية والاهتمام ، وقد تكرر قوله تعالى " أفلا تعقلون " فى آيات عديدة من القرآن والإسلام يحث المسلمين على اكتساب كل أنواع المعارف فالحكمة ضالة المؤمن هو أحق بها أنى وجدها .

(و) أثر الإسلام فى عادات الافراد ومقدراتهم الإجتماعية المكتسبة .

كان للإسلام آثاره العميقة على المجتمعات الإسلامية فى شتى النواحى السياسية والاقتصادية ونظام الأسرة ونظام التعليم ونظام التقاضى وغيرها. وبناء النظم والقواعد الاجتماعية المختلفة فى المجتمعات الإسلامية قام على مفاهيم الإسلام ومعطياته ، مما أكسب المجتمعات الإسلامية أنماطًا ومقاييساً اجتماعية إسلامية للحكم على تعريفات الأفراد وسلوكياتهم وعاداتهم ومقدراتهم المكتسبة .

(ز) اللغة العربية :

كما ذكرنا فإن اللغة ليست عنصرًا من العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة ولكنها وعاء للثقافة .

إلا أن "الثقافة العربية الإسلامية" استثناء فى هذا ، فاللغة العربية تعتبر عنصرًا من العناصر المكونه للنسيج الكلى " للثقافة العربية الإسلامية " لماذا ؟

كما أوضحنا أن جميع العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة العربية الإسلامية تحمل مفاهيم الإسلام ومعطياته ولما كانت اللغة العربية هى اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ، فإنها بذلك تعتبر من العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة العربية الإسلامية .

وقد حافظ المسلمون على اللغة العربية وعلومها طوال التاريخ الإسلامى ، وكانت هى لغة التخاطب والكتابة والثقافة فى بلدان العالم الإسلامى وفى القرنين الأخيرين انسلخت بعض الأقطار الإسلامية من لغتها العربية واتخذت لغات مغايرة مثل التركية والفارسية والإنجليزية والفرنسية وغيرها . هذا ومع انسلاخ هذه الأقطار الإسلامية عن اللغة العربية فإنها لم تتخل عن ثقافتها الإسلامية وإن كانت تستعمل لغة أخرىٰ غير العربية .

بعد استعراضنا لأثر الإسلام على العناصر المكونة لنسيج " الثقافة العربية الإسلامية " واكتساب هذه العناصر للمفاهيم الإسلامية مما أدى لوحدة " الثقافة العربيبة الإسلامية نستلخص ما يلى :

١-أن الإسلام كان له الأثر العظيم على وحدة " الثقافة العربية الإسلامية "

٢- أن " الثقافة العربية الإسلامية " ليست بدعًا فى ذلك فجميع " الثقافات " الأخرى القديمة والحديثة الموجودة والمنقرضة كان لعنصر الأعتقاد الأثر الكبير فى وحدتها .

٣- يجب أن نزيل اللبس عن عنصر الأعتقاد فى " الثقافة " الغربية المعاصرة . "فالثقافة " الغربية المعاصرة تكونت وتوحدت مع نشأة الفكر الليبرالى الحديث ونموه ، منذ القرن السابع عشر الميلادى ، وذلك بعد فترة تمزق ثقافى صاحب التمزق الدينى والاجتماعى الذى امتد من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر الميلادى وساد أنحاء أوربا . وقد تغير عنصر الاعتقاد فى " الثقافة " الغربية منذ القرن السابع عشر الميلادى وحلت " المادية الجديدة " محل " الأفكار الكهنوتية المسيحية " وسوف نناقش ذلكم فى المجال السياسى .

كيف تكونت وأنتشرت (الثقافة العربية) ؟

جاء الإسلام وكانت للعرب فى شبه الجزيرة العربية ثقافتهم الجاهلية بعناصرها فى الاعتقاد والعادات والأخلاق والقوانين والفنون وغيرها . . . . وكانت هذه العناصر لها مفاهيم جاهلية فتغيرت مفاهيم هذه العناصر تبعًا لما جاء به الإسلام ، وتكونت ثقافة جديدة على مر الأيام تحمل مفاهيم والإسلام ومعطياته .

مكث الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين سنة يدعو للإسلام وتنزل القرآن خلالها ، وتم نزول قوله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " .

وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة للإسلام وقام بتأدية الرسالة كما أنزلها الله عليه فانتشر الإسلام بين الناس فى الجزيرة العربية أولا وبعدها انتشر فى بقية الأمصار ، واقتدى المسلمون بالرسول صلى الله عليه وسلم وبسنته فى حياته وبعد موته. ولاشك أن نشأة " الثقافة العربية الإسلامية على أنقاض " ثقافة " العرب فى الجاهلية بعد تغير مفاهيم العناصر المكونة لنسيجها الكلى ، موضوع طويل يرجع لعوامل كثيرة جاء بها الإسلام ولكنى سوف أشير فقط إلى بعض هذه العوامل :

١ - الإسلام دين الفطرة والإعتدال :

يقول الله تعالى : " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون "(٤٢) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " كل مولود يولد على الفطرة - أى على الإسلام - وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "(٤٣) .

والدين الإسلامى جاء متمشيًا مع الفطرة فى العقيدة والعبادات والأخلاق والأحكام والمعاملات وغيرها . . . . . .

---

(٤٢) سورة الروم آية ٣٠ .
(٤٣) متفق عليه .

فالعقيدة ثابتة ، واضحة ، نافعة للإنسان فى حياته الدنيوية والأخروية حتى بحساب الربح والخسارة المادى والمعنوى فالإيمان الحق كما جاءت به العقيدة الإسلامية نفعه عميم ، وقد أكده ، علماء النفس المعاصرون فى مجال محاربة الخلل والاضطراب الذى تصاب به النفس الإنسانية التى بعدت عن الدين كما أن الإيمان فى العقيدة الإسلامية جاء متمشيًا مع حاجات الإنسان وفطرته .

كما أن الدين الإسلامى دين الوسطية والاعتدال يقول الله تعالى " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " صدق الله العظيم .

أمة وسطية فى الدين والاعتقاد ، أمة متدينة معتدلة ، واقعية تتميز بالتسامح الدينى ، وتعدد الأديان وتعايشها ، أمة لاعنصرية فى الجنس أو اللون أو اللغة ، لاطبقية فى الغنى والفقر، أمة لها اتزان حضارى وثقافى ، تتفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى ولاتتصارع معها ، فقد تفاعلت مع الثقافات والحضارات اليونانية والبيزنطية والفارسية والهندية والصينية ، وأخذت منها ماهو نافع ومفيد وتركت مالايتفق مع معتقداتها ومفاهميها الإسلامية .

وانعكاس وسطية الإسلام على الثقافة العربية الإسلامية واضح وجلى ، مما أكسب الثقافة العربية الإسلامية هذه المرونة فى حوارها مع الثقافات الأخرى نظرًا للثقة الكبيرة فى مصادرها الإسلامية الصالحة لمسايرة التطور والارتقاء فى كل زمان ومكان . وغير ذلك من المميزات التى يتميز بها الدين الإسلامى بجانب فطرته ووسطيته والتى لايمكن أن نحصيها .

٢- القرآن الكريم يعلم المسلمين :

تحوى آيات القرآن الكريم العديد من التوجيهات الربانية والنصائح العلوية والإرشادات التعليمية والتصحيحية . يقول تعالى : " ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين"[٤٤] .

(٤٤) سورة الجمعة آية ٩-١١ .

ويقول المولى عز وجل "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ، والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما"[٤٥] .

فيض من التعاليم الربانية والإرشادات التعليمية يصف بها الرحمن الرحيم عباد الرحمن ولننظر إلى الصورة التعليمية التى أتى بها القرآن الكريم للشعر والشعراء . ومعروف أن الشعر كان ولازال ديوان حياة العرب قبل الإسلام وبعده وهو من موضاعات الثقافة الهامة .

يقول المولى عز وجل "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالايفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملو الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون"[٤٦] .

وغير ذلك من الموضوعات التى جاءت بها آيات القرآن الكريم والتى تشمل جميع جوانب الحياة .

٣- الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة للمسلمين :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة للمسلمين فى أقواله وأفعاله وسنته ، فتربى الصحابة الأجلاء على سنته صلى الله عليه وسلم ، وقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلميين بعد نزول الرسالة إليه من ربه مدة ثلاثة وعشرين

---

(٤٥) سورة الفرقان آيات ٦٣ -٧٤ .

(٤٦) سورة الشعراء آيات ٢٢٤-٢٢٧ .

سنة يبلغ منهج الله إلى المسلمين وينشر دين الله فى الأرض ويعلم من دخل الإسلام من الناس الإسلام بعقائده وعباداته ومعاملاته . . . . .

ويطبق شرع الله بعد أن منَّ الله عليه بانتصار الإسلام والهجرة إلى المدينة فكان يحكم بين الناس بما أنزل الله وكان الوحى ينزل تباعا فيبلغه صلى الله عليه وسلم لأصحابه وينفذ أوامر الله ونواهيه وما جاء به القرآن من أحكام .

فتربى أصحابه رضوان الله عليهم تربية إيمانية عظيمة وكان معلمهم سيد الخلق أجمعين . فنراه يعلم عبد الله بن عباس وكان طفلا جلس مع الصحابه للطعام وقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يفعله أثناء تناول الطعام فقال له : "ياغلام سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك " ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه حب الوطن فيقول عن مكه وشوقه إليها : " إنى أعلم أنك أحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إلى ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت " ، وعندما كان بلال يشتد به الحنين إلى مكة فينشد بلال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذْخَرٌ وجليلُ
وهل أردنَ يوما مياه مَجَنّة وهل يبدُون لى شامةٌ وطفيلُ

وعندما رأى أحد أصحابه يشتد به الحنين إلى مكة فينصحه فيقول صلى الله عليه وسلم : " دع القلوب تقر " .

عن عائشة رضى الله عنها : " إن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى ذات ليلة فى المسجد ، فصلى بصلاته الناس ، ثم صلى القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من اللية الثالثة أو الرابعة ، فلم يخرج إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح قال : قد رأيت الذى صنعتم ولم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم ، وذلك فى رمضان"(٤٧) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : "إن الرسول صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به ، خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ، وما سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبحة الضحى قط وإنى لأسبحها"(٤٨) .

---

(٤٧) البخارى جزء أول ص ٦٣ .
(٤٨) المصدر السابق .

وعن معاوية بن الحكم قال : " بينا أنا أصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله ، فرمانى القوم بأبصارهم فقلت : واثكل أماه ما شأنكم تنظرون إلى ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتوننى لكنى سكت فلما صلى رسول الله ، فبأبى وأمى ما رأيت معلما قبله ولابعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرنى ولاضربنى ولاشتمنى ، قال : " إن هذه الصلاة لايصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن "[٤٩] .

وعن أبى زيد عمر بن أخطب الأنصارى رضى الله عنه قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطب حتى حضر العصر ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس ، فأخبرنا ما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا"[٥٠] .

هؤلاء الصحابة الأبرار الذين تربوا على الإيمان والعمل بما جاء به الإسلام كان منهم على بن أبى طالب رضى الله عنه الذى قال : " كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لايحسنه، ويفرح إذا نسب إليه من ليس من أهله ، وكفى بالجهل خمولا أنه تبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه "[٥١] .

وقوله كذلك فى فضل العلم كرم الله وجهه " كل شى يعز إذا نزر (قل) ما خلا العلم فإنه يعز إذا غزر (كثر) "[٥٢] .

ومثال لسيدنا عمر بن الخطاب وغيرته على اللغه العربية وعلومها مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه على قوم يسيئون الرمى فقرعهم (عنفهم) ، فقالوا إنا قوم متعلمين فأعرض مغضبا وقال : " والله لخطؤكم فى لسانكم أشد على من خطئكم فى رميكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " رحم الله أمرءً أصلح من لسانه "[٥٣] .

---

(٤٩) صحيح مسلم جزء أول ص ٣٨١-٣٨٢ . (باب تحريم الكلام فى الصلاة ونسخ ما كان من إباحته) .

(٥٠) رواه مسلم .

(٥١) معجم الأدباء لياقوت .

(٥٢) المصدر السابق .

(٥٣) المصدر السابق .

هذه الفئة التى تربت على العلم والإيمان والعمل بما جاء بـــه الإســـلام مــن الصحابه الأجلاء هم الذين فتح بهم الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده البلاد ونشــر بهم الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بأمر اللـــه تعــالى . وبعد اتساع الدولة الإسلامية ، استقر كثير منهم فى الأمصار ، بعضهم فــى مكــة والمدينة وبعضهم فى مصر والبعض الآخر فى الشام والعراق وفـــارس وغيرهــا فحملوا لواء الدعوة الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية فى هذه الأصقاع وتبعهـــم التابعون فى حمل الأمانة فكانوا الغر الميامين فى نشر الدين الإسلامى ، والثقافـــة العربية الأصيلة ، فى كافة أقطار الإسلام ، كانوا يتوسمون خطى الرسول صلـــى الله عليه وسلم ، ويقتفون أثره فى كل شىء ، كان صلى الله عليه وســـلم قدوتهــم وقائدهم ، قال تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أســـوة حسنة لمن كان يرجـــو الله واليوم الآخر" .

وكان القـــرآن الكريم هاديهم ومرشدهم ودستورهم ، فنشروا الدين الإســـلامى فى شتى بلاد الإسلام وثبتـــوه فـــى الأرض بمفاهيمـــه الثقافيـــة والاجتماعيـــة ، والإقتصادية والسياسية ، فنشأت هذه الوحـــدة السياســـية والاجتماعيـــة والثقافيـــة والاقتصادية ، التى سادت العالم الإسلامى حتى بعد تفكك الدولة الإســـلامية إلـــى دويلات متعددة فى القرون الأخيرة ، ظلت شعوبها على إيمانها بدينهـــا الإســـلامى ومفاهيمه ومعطياته ، مما أعطى الثقـــافة العربية الأصيلة هذه الوحدة الثرية التـــى فى ظلها تتعدد وتتنوع الاجتهادات والأفكار .

كما أن التربية الإيمانية التى تربى عليها المسلمون أعطتهم هذه الطاقة والقوة الجبارة التى مكنتهم من هزيمة أقوى إمبراطورتين فى ذلك العصر و هما الفـــرس والروم ونشر الدين الإسلامى و الثقافة العربية و قد حارت عقول المفكريـــن فـــى الغرب والشرق كيف استطاع نفر قليل فى العدد والعدة من المســـلمين أن يهزمـــوا عدوهم الذى يفوقهم عددًا وعدة ؟

وكيف استطاعوا نشـــر الإســـلام والثقافة العربية فى هذه الرقعة الواسعة من الأرض على مدى عقود قليلة بإمكانيات هذا الزمان المتواضعة ؟ .

إن التربية الإيمانية التى تربى عليها المسلمون وبروز عنصر الجهاد مع الأخذ بالأسباب كانت سـر هـذا التفوق والقـوة .

إن التدريب الإيمـانى العملى فى قيام الليل تجعل القوة النفسية للمسلم المؤمن لا تعادلها قوة و لذلك كان الصحابة رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار .

وهكذا يتضح أن " الثقافة العربية الإسلامية " تكونت على أنقـاض " ثقافـة " العرب ، وثقافات الدول التى دخلت فى الإسـلام بعد تغيـير مفـاهيم العنـاصر المكونة لنسيجها الكلى لتحمل مفاهيم الإسلام و معطياته مما أكسب " الثقافة العربية الإسلامية " وحدتها .

ويشير أبو تمام إلى هذه الوحدة فى قوله :

إن يكد[٥٤] مطرف[٥٥] الإخاء فـإننا ... نزوح ونغـدو فى إخـاء تالـد[٥٦]

أو نفـترق نسـبا يؤلف بيننـا ... أدب أقمنـاه مقـام الوالـد

أو يخـتلـف مـاء الوصال فماؤنا ... عـذب تحدر مـن غـمام واحـد

---

(٥٤) يكد : يقل أو ينقطع .

(٥٥) مطرف : مستحدث .

(٥٦) تالد : قديم .

وحدة (الثقافة العربية) فى العصر الحاضـــــر :

بينا فيما ســبق أن وحدة "الثقافة العربية الإسلامية " ترجع إلى وحدة المفاهيم الإسلامية التى تسود كل عنصر من العناصر المكونــــة لنســيجها الكلــى وهــى المعــرفة والأعتقاد والأخلاق والعادات والقانون والفنون والمقدرات المكتسبة للفرد بواسطته عضوًا فى المجتمع الإسلامى .

هذه الوحدة التى تميزت بها "الثقافة العربية الإسلامية" ظلت سائدة و مسيطرة طوال التاريخ الإسلامى وحتى أواخر القرن الماضى عندما تدخل الغزو الفكـــرى الإستعمارى وفرض مفاهيماً جديدة هى مفاهيم " الثقافة الغربية العلمانيـــة " علــى بعض عناصر ثقافتنا العربية مثل الفنون ، والقانون والعادات وغيرها . . . .

و مع ذلك لم يفلح الاستعمار فى زعزعة وحدة " الثقافة الإســـلامية " وذلــك راجع إلى قـــوة العقيدة الإسلامية لدى المسلمين فى جميع بقاع الأرض .

إلا أن بعض هذه العناصر التى غزتها " الثقافة الغربية العلمانيـــة " لازالــت مصابة بهذه الشوائب الغربية العلمانية و تحتاج لتنقيتها حتى تستقيم وحدة " الثقافــة العربية الإسلامية " .

تطور الثقافة العربية

التطور الثقافى عملية طبيعية تشبه عملية النمو فى الإنسان والحيوان والنبات . فالنبات يكون بذرة ثم عود أخضر صغير ثم ينمو هذا العود ليكبر ، وكذلك الطفل الصغير ينمو ليكبر ، والطفل والنبات الصغير عندما ينمو يحمل خصائصه المميزة أثناء عملية النمو . والثقافة كذلك تنمو نموًا طبيعيًا ذاتيًا وهى فى عملية النمو تحمل خصائصها المميزة لها بمعنى آخر أن الثقافة فى نموها تحمل مفاهيم العناصر المكونة لنسيجها الكلى .

و قد تطورت الثقافة العربية بمرور الزمن تطورًا طبيعيًا ، وهى فى تطورها ظلت تحمل مفاهيم عناصرها المكونة لنسيجها الكلى ، فتطورت المقامة الأدبية منذ أن وضع بديع الزمان الهمذانى مقاماته وتبعه الحريرى بمقاماته ، وكثير من الكتاب بعد ذلك ، كتبوا المقامات فى العصور المختلفة وأضافوا إليها وبعضهم كتبها طويلة تقترب من الرواية فى عصرنا الحديث ، و بعضهم كتبها قصيرة مثل عبد الله بن عبد الله بن سلامة الإدكاوى (١٨٤ هـ) (١٧٧٠ م) والشيخ حسن العطار عندما دخل الفرنسيون القاهرة وهروبه إلى صعيد مصر ثم عودته إلى القاهرة واستقراره بها فكتب مقامة قصيرة عباراتها مكثفة لتعبرعن موقف معين ، وهو اللقاء مع مجموعة من الفتيات " الفرنسيس " اللاتى كن يتعلمن العربية ويهوين الفكر والثقافة[(٥٧)] . وكذلك أحاديث عيسى بن هشام للمويلحى .

فتطور المقامة كان تطورًا طبيعيًا ثم إنه بعد أن جاء "دى موباسان" بفكرة التعبير عن فترة أو موقف أو لحظة مقتنبسة من مجرى الحياة العام ليعبر عنها فى قصة قصيرة ، كان ذلك لا يغير من مفهوم المقامات التى تطورت إلى قصة قصيرة حديثة .

وإذا أخذنا "علم المعاجم " فى الثقافة العربية نجد أنه تطور تطورًا طبيعيًا عبر العصور المختلفة على يد نخبة من العلماء المسلمين منهم "الثعالبى" ، و"الباقلانى" الذى كان يرى أن معرفة المعانى التقليدية للكلمات ليس كافيًا لإبداع العلاقات الصحيحة بين هذه الكلمات ، وعلينا أن نعرف أيضًا الاستخدام الفعلى لهذه المعانى، وإسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة ١٠٩٩م وقاموسه " صحاح الجوهرى".

---

(٥٧) الجذور الإسلامية للرأسمالية " بيترجران " ترجمة محروس سليمان مراجعة د . رءوف عباس .

والفيروز أبادى وقاموسه المسمى " القاموس " وقد صاغه على نسق " صحاح الجوهرى " ولكن ضمنه الكثير من العلاقات الجذرية بين الكلمات التى لم ترد بقاموس الجوهرى ، وجاء الزبيدى وقاموسه " تاج العروس " فى القرن الثامن عشر الميلادى وسجل العلاقات بين جذور الكلمات التى أهملها الفيروز أبادى ، وقاموسه " تاج العروس " لا يزال يستخدمه طلبة العلم والباحثون حتى الآن وكذلك كان محمد بن الطيب الفاسى" ١١١٠هـ- ١١٧٠هـ" " ١٦٩٨م-١٧٥٦م" والذى عاش معظم حياته فى المدينة المنورة ، ووضع " القاموس المحيط " الذى يتكون من ثلاثة أجزاء ، وكان الفاسى يرى أنه عند تحديد معانى الكلمات ، فيجب الاعتناء بالمعنى الهام من بين هذه المعانى وتجنب المعانى الغريبة والبعيدة . وقد درس الزبيدى الذى وضع قاموس " تاج العروس " على أستاذه محمد بن الطيب الفاسى وكان الزبيدى يرى اهمية الترابط الوثيق بين معانى الكلمات وأصولها . وكان قاموسه " تاج العروس " يحتوى على كمية كبيرة من المعلومات عن أسماء المواقع الجغرافية وأسماء الأشخاص .

وإذا تأملنا كيف تطور صحاح الجوهرى حتى أصبح موسوعة شبيهة بالموسوعات الأجنبية التى نشاهدها الأن وهى نفس طريقة شرح المتون والهوامش التى اتبعها السلف والتى أدت إلى نشأة الموسوعات العصرية. فالكثير من العلماء قاموا بإضافات سموها شروحا وبعضهم مثل الفيروز أبادى وضع القاموس على نسق " صحاح الجوهرى " وأضاف الكثير من العلاقات الجذرية بين الكلمات التى لم ترد فى " صحاح الجوهرى " ، ثم جاء الزبيدى وأضاف إلى " القاموس " العلاقات الجذرية بين الكلمات التى لم تذكر فى " القاموس " ، كما قام بتسجيل المصادر بين أقواس من المراجع الجغرافية أو الطبية أو غيرها ، ونتيجة لذلك تزايدت كمية المعلومات عن أسماء المواقع الجغرافية وأسماء الأشخاص بالإضافة إلى الكميات الواردة أصلاً فى " القاموس " حتى جاء قاموس الزبيدى " تاج العروس " خمسة أمثال " القاموس " (مما جعل " تاج العروس " يقارن بقاموس أكسفورد الإنجليزى فى وظيفته)[٥٨] .

---

(٥٨) المصدر السابق .

وهكذا نجد أن بقية مجالات الثقافة تطورت بمرور الزمن مثل الشعر والقصة وعلوم اللغة العربية والفنون الإسلامية وغير ذلك من المجالات المختلفة .

وكان تطور الثقافة العربية عبر مراحله يواكب أى تطور تقنى يحدث فى نواحى الحياة المختلفة بمعنى أن أى تطور تقنى كان له أثره فى تطور الثقافة العربية فالتقدم التقنى الذى كانت تعيشه الإمبراطورية الإسلامية العثمانية فى أوج عظمتها والذى كان لا يقل عن مثيله فى أوروبا فى ذلك الوقت ، كان له أثره على تقدم الثقافة العربية حينذاك .

وعندما تقدمت التقنية فى عملية البناء كان لذلك أثره الكبير فى تقدم فن العمارة الإسلامية ، ففى الأندلس فى عصر إزدهارها الإسلامى ، تقدمت تقنية البناء نتيجة استخدام مواد جديدة لعملية البناء لم تكن تستخدم من قبل . فقد استخدمت ما يطلق عليه " خلطة الأسمنت " وهى خلطة تتكون من الجير والرمل والطفلة أو الكولين[٥٩] واستخدمت هذه الخلطة فى بناء التحفة المعمارية " المسجد الجامع بقرطبة " وكذلك فى قصر الحمراء الشهير وغيرها من أعمال العمارة الإسلامية الرائعة ، وقد إنتشرت هذه التقنية فى بلاد العالم الإسلامى . والثقافة العربية ظلت تطور تطورًا طبيعيًا ذاتيًا حاملة مفاهيم عناصرها المكونة لنسيجها الكلى مثلها فى ذلك مثل كل الثقافات ، حتى أواخر القرن الماضى عندما جاء الاستعمار واحتل بلاد العالم الإسلامى وفرض ثقافته على البلاد التى احتلها ، فتغير كثير من مفاهيم الثقافة العربية نتيجة هذا الغزو الثقافى ولكن المجتمعات الإسلامية ظلت طوال فترة الاحتلال وبعد رحيله حتى الآن ترفض هذه المفاهيم الثقافية التى فرضت عليها وتحاول كلما سنحت لها الفرصة أن تغير هذه المفاهيم رغم المقاومة والقهر .

ومنذ ذلك الحين وحتى الآن أصبح تطور الثقافة العربية تطورًا ذاتياً أصيلاً شبه منعدم وأصبح جهد التطور كله منصبًا على تغريب الثقافة العربية ظنًا أو وهمًا أن هذا هو سبيل تطوير الثقافة العربية ومن العجيب أن محاولات بعض المثقفين العرب تطوير بعض مجالات الثقافة تطويرًا طبيعيًا أصليًا فى العصر الحديث يلقى مقاومة من العلمانيين العرب .

(٥٩) " مانويل جوميث تورينو " كتاب الفن الإسلامى فى أسبانيا . ترجمة د . لطفى عبد السميع د . السيد محمد سالم .

الفصل الثانى

فى تعريف الحضارة الإسلامية ووحدتها

تمهيد لفظ حضارة من الألفاظ المعروفة عند العرب منذ القدم ، وهى تعنى الإقامة فى الحضر وهى المدن والقرى والريف ، وهى غير البداوة التى تعنى الترحال والتنقل وهذا يعنى أن الحضارة كانت الإقامة ومساكن مبنية من الطين والحجر والأرض المنزرعة حول الأنهار والآبار مع ما يترتب على هذه الإقامة من التعاون والتآزر وتبادل الأفكار والمعلومات و الرقى المادى والمعنوى فى الأخلاق و الطباع والعقائد ووسائل الحياة المختلفة . وذلك بخلاف الإقامة المتنقلة فى البوادى وما تحويه من غلظة وخشونة وما يستتبعه من فظاظة فى الخلق وجفوة فى الطبع وما تتميز به من إغارة وسلب ونهب واعتداء على منابت ومواقع الغيث . ويشير إلى هذا بعض الألفاظ التى وردت فى أهل البوادى والحضر مثل قولهم .

أهل الوبر والمدر والحدر والحجر .

الوبر : هو الصوف الذى يصنع منه البدوى خيمته التى يقيم فيها ويشير إلى أهل البوادى .

المدر : هو قطع الطين المتماسك الذى تبنى به مساكن الحضر ويشير إلى أهل الحضر . وقد سمى العرب مصر " المدرة السوداء " كناية عن أنها تتكون من القرى والمدن وذلك فى الحديث الذى أورده ابن عبد الحكم .. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

" الله الله فى أهل الذمة أهل المدرة السوداء السحم الجعاد فإن لهم نسبا وصهرا "[1] .

---

(١) ابن الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٥ تحقيق عبد المنعم عامر نقلا عن كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " د. محمد عبد القادر الخطيب .

الحدر : هو الأرض المنحدرة التى لا يبنى عليها ويشير إلى أهل البادية .

الحجر : يشير إلى البيوت التى تبنى من الحجارة ويشير إلى أهل الحضر .

وكل ذلك يشير إلى لفظ الحضارة وما يمثله من معانى التقدم والتحضر . وإن كان فى التاريخ الإسلامى بعض الكتابات والأفكار التى تفضل البادية عن الحضر مثل قول القطامى الشاعر :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا

وفى هذا يفخر ببداوة قومه ، فإن هذا لا ينفى المعنى السابق للفظ الحضارة الذى أوردناه .

كما يشير إلى هذا المعنى السابق قول ابن خلدون فى مقدمته (والحضارة إنما هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع فى استجادته والتأنق فيه ....)[٢] ويقول ابن خلدون أيضًا (الأولى فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدنى بالطبع أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم)[٣] .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى قام علماء الأنثروبولوجيا فى الغرب . بوضع نظرية التقدم الثقافى ، وفيها قسموا النموالإنسانى إلى ثلاث مراحل : مرحلة العبودية ، ومرحلة البربرية ، ومرحلة الحضارة فى ذلك الوقت كان يعتقد أنها خاصة بحضارة المصريين والآشوريين واليونان والرومان وفى خلال المائة سنة الأخيرة زاد هذا العدد إلى ست حضارات بعد اكتشاف الحضارات السومرية فى أوائل هذا القرن والحضارة المنيوية Monoan وهىحضارة خاصة بجزيرة كريت وهى سابقة للحضارات اليونانية (٣٠٠٠ -١٠٠٠سنه قبل الميلاد) وكذلك تم اكتشاف حضارة الشانج Shang بوادى هوانج هو بشمال الصين (١٦٠٠سنه قبل الميلاد) وقد تم اكتشافها خلال التنقيب فى هذا الوادى سنة ١٩٢٠م وفى عام

---

(٢) المصدر السابق . (٣) مقدمة ابن خلدون .

١٩٢٤م أعلن العالم الأثرى البريطانى جون مرشال عن اكتشاف حضارة الأندد INDUS civilization (٢٣٠٠ – ١٧٠٠ قبل الميلاد) وكذلك اكتشفت حضارة ميزو ومنطقة الأندين Andeen فى جنوب أمريكا (كلاهما فى ١٢٠٠ قبل الميلاد) . وقد عدد الفيلسوف الألمانى أزوالد شبنجلر spengler (٨) حضارات قديمة في التاريخ وقد عدها عالم التاريخ البريطانى أرنولد توينبى (٢٦) حضارة قديمة [٤] .

وقد وضعت بعض النظريات عن الحضارات ، ففى عام ١٩٢٠عرف عالم الآثار البريطانى جوردن شيلد الحضارة تبعًا للعناصر الذى اعتقد أنها أساسية لتحويل الثقافة لحضارة مثل اختراع الكتابة ، علم المعادن ، وحدات الموازين والقياس الموذجية ، الرياضيات ، فن العمارة البارز ، تجارة المسافات البعيدة ، العربات ذات العجلات ، الحرفيين المتخصصين ، تكنولوجيا الرى، فائض الإنتاج ، تكنولوجيا المحراث [٥] . وقد قام بعض العلماء فى الغرب بوضع قائمة من السمات الاجتماعية المرتبطة ببعضها كأساس لتعريف الحضارة وتشمل هذه القائمة :

١- نظام الطبقات ومقدار ما تحوزه كل طبقة من ملكيات أو تحكم فى موارد الإنتاج الرئيسية .

٢- تكامل الهيئات السياسية والدينية فى إدارة الدول .

٣- تقسيم العمل : مع العمل كل الوقت للصناع المهرة – الجنود – البيروقراطيين المصاحبين لعملية الإنتاج .

ونشأت تعريفات كثيره لمصطلح " الحضارة " سوف نتكلم عنها فى تعريف الحضارة .

---

(٤) Grolier Academic Encyclopedia - Civilization .

(٥) المصدر السابق .

أولاً : تعريف الحضارة

الحضارة فى اللغة العربية : من الفعل " حضر " بمعنى أتى ويقال حضر فلان – حضارة – أقام فى الحضر وتحضر أى تخلق بأخلاق الحضر . والحضر والحضارة والحاضرة : هى المدن والقرى والريف وسميت بذلك لان أهلها حضروا الأمصار ومساكن الآبار التى يكون لهم بها قرار ، وذلك بخلاف " البداوة " وهى أيضا الإقامة المتنقلة فى البوادى .

أما الحضارة اصطلاحا فهناك تفسيرات عديدة لها . ففى الموسوعة الأكاديمية الأمريكية أن " مصطلح حضارة " يدل على حالة مجتمع إنسانى يتصف ببلوغ درجة عالية من الثقافة والتكنولوجيا وتبعا لذلك بنمو اجتماعى وسياسى معقد[٦] . ويرى " ول ديورانت " (بأنها نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى .....)[٧] وهناك تعريفات عديدة تربط الحضارة والعلم وبعضها يربط الحضارة بالطاقة والبعض الآخر يربط الحضارة بالاقتصاد وبعضها يربط الحضارة بالنواحى الروحية وليس بالأشياء المادية مثل المفكر الهندى " راس – فيهارى – داس " أستاذ الفلسفة بجامعة سوجار بالهند الذى قال : " الحضارة فى جوهرها تقوم على الكائن البشرى لا على الأشياء المادية ، والناس هم متحضرون أو غير متحضرين وفقًا لبعض مزاياهم الروحية "[٨] ويقسم الدكتور محمد محمد عبد القادر الخطيب فى كتابه (دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية) الاتجاهات المختلفة فى تعريف مصطلح الحضارة إلى ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : يركز فى تعريفه لمصطلح الحضارة على الجانب المادى للإنسان والحياة .

الاتجاه الثانى : يركز على الجانب الروحى أو المعنوى للإنسان. والحضارة فى نظر هؤلاء هى كل ما يثرى جانب الروح فى الإنسان ، ويرفع الإنسان إلى

---

(٦) Grolier Academic Encyclopedia -Civilization .

(٧) المصدر السابق ول ديورانت قصة الحضارة .

(٨) د . محمد عبد القادر الخطيب : " دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية " .

المكانة اللائقة به من حيث كونه إنسانًا له قلب وضمير وخلق ، والحضارة ما هى إلا التصورات والقيم والمبادىء التى تعصم الإنسان من الخطأ .

الاتجاه الثالث : هو الاتجاه الذى يجمع بين الجانب المادى والمعنوى للإنسان والحياة ، فمفهوم الحضارة لدى هؤلاء عام ويشتمل على : العقائد والتقاليد الخلقية والإنتاج الفكرى والطابع السياس والاقتصادى والاجتماعى والفنى وكذلك صور الإنتاج المادى من المخترعات والعمائر والآلات .... . وقدعبر الدكتورحسين مؤنس عن هذا الاتجاه فقال : " الحضارة هى ثمرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أو غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أو معنوية "[٩] .

---

(٩) المصدر السابق .

ثانياً : تعريف الحضارة الإسلامية

آمنت شعوب كثيره بالإسلام وكانت هذه الشعوب متباينة الثقافات والحضارات قبل دخولها الإسلام ، فكانت هناك شعوب لها ثقافة وحضارة فارسية مثل الشعوب الفارسية والعراقية وشعوب تحمل الثقافة والحضارة اليونانية والرومانية والقبطية مثل شعوب الشام وتركيا ومصر والأندلس وقبرص وجزر البحر الأبيض المتوسط .... وشعوب تحمل الثقافة العربية قبل الإسلام مثل شعوب الجزيرة العربية وشعوب تحمل الثقافة والحضارة البربرية مثل شعوب شمال أفريقيا وغيرها .....

وبدخول هذه الشعوب فى الدين الإسلامى انصهرت ثقافتها المختلفة فى بوتقة الإسلام ونشأت الثقافة العربية الإسلامية . وبمرور الزمن كانت هناك وحدة ثقافية إسلامية تسود العالم الإسلامى المترامى الأطراف وهذا بخلاف الوحدة السياسية واللغوية والجغرافية التى سادت عدة قرون . وفى ظل هذه الوحده الثقافية الإسلامية جاء إنتاج الأفراد والشعوب الإسلامية فى مجالات الحضارة المتعددة ، إنتاجاً متميزًا تسوده روح الإسلام ومفاهيمه ومعطياته سواء كان هذا الإنتاج الحضارى إنتاجاً ماديًا أو روحيًا . وفى القرن الرابع الهجرى كانت " الحضارة الإسلامية " تعلو شامخة على الدنيا كلها بإنتاجها الحضارى المتميز الذى لايدانيه أى إنتاج حضارى آخر معاصر له أوسابق عليه فى مجالات العلوم المختلفة والمعارف المختلفة والصناعات المختلفة والتكنولوجيا والفنون والآداب والآلات والعمارة وشتى مناحى الحياة المادية والروحية . والحضارة الإسلامية ، حضارة شاملة للنواحى المادية والروحية لأن الإسلام جاء يعنى بالجوانب المادية والروحية للإنسان والكون والحياة ويمكن تعريف " الحضارة الإسلامية " : (بأنها كل إنتاج روحى أومادى ينسب إلى الشعوب التى دخلت فى الإسلام وتشربت الحياة الإسلامية) [١٠] .

---

(١٠) المصدر السابق

ثالثا : وحـــدة الحضارة الإسلامية

في ظل وحدة " الثقافة العربية الإسلامية " التي ذكرناها سابقًا جاء إنتاج الأفراد والشعوب الإسلامية سواء كان هذا الإنتاج مادي أو روحي متميزًا بـــالوحدة التـــي تشعر بها تسري في مجالات الحضارة الإسلامية المختلفة فإذا نظرنا إلـــى إنتـــاج المسلمين سواء في الطب أو الصيدلة أو الهندسة أو الفلك أو التاريخ أو الجغرافيـــة أو الكيميـــاء أو الفنون أو العمارة أو غيرها من المجالات ، نحس خيطـــا رفيعًـــا رابطًا بينها ، يحس به الإنســـان لأول وهلة . هذا الخيط الرفيع هو الذي يشـــعرنا بأن هذه الميادين تنتمي إلى حضارة واحدة . فإذا أمعنا النظر ، وجدنا أن هذا الخيط يرجع في حقيقته إلى الإســـلام . فوحدة الحضارة الإسلامية تعنـــي تشـــابهها فـــي الروح والخصائص المميزة لها أيـــًا كان ميدانها ، فالروح الإسلامية تســـري فـــي الإبداع الفني والزخرفي ، في المنسوجات والعمارة والنحـــت وإقامـــة المســـاجد . والدقـــة والضبط والصدق التي تميز بها المسلمون والتي اكتســـبوها فـــي تدويـــن القـــرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، والتي تتطلب الحـــرص فـــي الدقـــة والضبط والصدق ، كانت تســـري في إبداعات المسلمين في فنون التـــاريخ مثـــل سيرة ابن إسحاق التي كتبت في القرن الثاني الهجري والتي تعتـــبر أول ســـيرة أو ترجمة حياة مطولة كاملة تكتب في تاريخ علم التاريخ في الدنيـــا ، فلـــم يكتـــب الفرس أو الهنود أو الإغريق أو الرومان سيرة مطولة كاملة لرجل من رجـــالهم ، لا، ولا فعل هذا المؤرخون المسيحيون مع حياة السيد المسيح [11] .

وغير ذلك من مجالات الحضارة التي كـــانت تســـري فيهـــا روح الإســـلام ومعطياته ومفاهيمه .

ومن الخصائص المميزة للحضارة الإسلامية ، الروح الدينية القويـــة والتـــي انعكست آثارها على مجالات الحضارة الإسلامية المتعددة ، ومن هذه الخصـــائص أيضًا أنها تقوم على عمارة الدنيا . وللمسلمين فضل كبير في تطويـــر المجـــالات المختلفة التي تتعلق بعمارة الأرض ، وتطوير الزراعة والصناعة والتقنية ، وإتقان

---

(١١) د . حسين مؤنس : " دراسات في الحضارة الإسلامية " ، المجلد الأول .

العمل والحض على العمل وعدم التبطل ، وللمسلمين فضل كبير على تطوير وسائل الرى وإصلاح الأراضى الزراعية وإنشاء السدود . ففى عصر الخليفة العباس أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) شقت كثير من الترع والجداول حتى غطت أجزاء كبيرة من العراق وأمكن رى الأراضى الممتدة بين الصحراء الغربية وجبال كردستان وتحويلها إلى جنات خضراء عامرة بالزرع والنماء . وفى مرو شرق فارس كان هناك جهاز متخصص للرى يسمى ديوان الماء يعمل به عشرة آلاف عامل يرأسهم صاحب ديوان الماء .

وأقام المسلمون القناطر والسدود لحجز الماء وتوفيره للرى مثل السدود التى أقيمت فى مصر وفى بلاد ما وراء النهر وفى اليمن والأندلس ، وأقاموا عليها المقاييس لمعرفة منسوب الماء فى النهر . وكانت السدود تبنى من الحجر مثل سدود فارس وخوزستان ، أو تبنى من الخشب مثل سد بخارى . وقد بنى عضد الدولة البويهى (٣٦٧ -٣٧٢هـ) (٩٧٨ -٩٨٣م) " سكرا " عظيما على نهر الكر بين شيراز واصطخر ، وكان السكر عبارة عن حائط عظيم أساسه من الرصاص بناه فى عرض النهر فتبحر الماء خلفه وإرتفع فجعل عليه من الجانبين عشر دواليب وتحف كل دولاب رحى وأجرى ماءه فى قنوات تسقى ثلثمائة قرية[١٢] وكان على نهر النيل فى مصر سدان الأول هو سد أمير المؤمنين وكان يقام قبل زيادة النهر بعين شمس فإذا جاء الفيضان وارتفع الماء انساب فى الترع والقنوات ورويت الأراضى والضياع . أما السد الآخر فكان عظيم البناء ويقع بسردوس أسفل عين شمس ويبين بفتحة النقصان فى النيل ، وكان مقياس النيل عموداً طويلاً عليه الأذرع والأصابع ، يوضع فى بركة يحاط بها الماء ، وأهم المقاييس فى مصر كان مقياس الروضة .

وقد اعتنى المسلمون بالزراعة عناية كبيرة وإستخدموا أنواعاً مختلفة من السماد . ولكل نوع من النبات السماد الصالح له واستخدموا التلقيح وتطعيم بعض الأشجار مثل الكروم فى فلسطين والتين فى المغرب العربى ، كما قام المسلمون بزراعة كل أنواع الحبوب فى أنحاء العالم الإسلامى وانتقلت وسائل الزراعة من

---

(١٢) د . محمد عبد القادر الخطيب: " دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية " .

إقليم إلى آخر فزرعوا القمح والشعير والذرة والأرز والدخن كما زرعوا الحمص والعدس واللوبية والبسلة والسمسم والقرطم وقصب السكر ، كما زرعوا القطن والأزهار والرياحين مثل الورد والبنفسج والياسمين والنرجس والآس والنسرين والنينوفر والتمرحناء والرياحين وزهر الليمون والبرتقال ، ومن الفواكه زرعوا البلح الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والبرقوق والتفاح والقراصية والكمثرى والسفرجل والموز والجوز والبطيخ والزيتون والأترج والليمون . وكان كل نوع من هذه الأنواع يزرع فى أماكن عديدة فى العالم الإسلامى .

كما اعتنى المسلمون بتربية الحيوان مثل تربية الإبل والبقر والجاموس والخيول والبغال والحمر ، وتربية الطيور كالبط والأوز والدجاج والحمام وقاموا بتربية دود القز واستخراج الحرير واستخدامه فى الصناعة وكذلك قاموا بصيد الأسماك وغير ذلك من استخراج اللؤلؤ والمرجان من بعض الشواطئ .

وفى مجال الصناعة واستخراج المعادن فقد قاموا باستخراج الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والفحم والزئبق واللؤلؤ والمرجان والعقيق والزبرجد والعاج والشب وملح النشادر وغيرها . وكان من أهم الصناعات التى اشتهرت على مر التاريخ والتى بلغت من الجودة درجة عظيمة وكثير منها كان يصدر إلى الدولة الرومانية مثل الورق والزجاج وغيره . وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو ، وكان من بلاد فارس والذى زار القاهرة ، أن التجار المصريين كانوا يستعملون الورق فى لف البضائع وذلك فى الوقت الذى لم تكن أوروبا تعرف فيه صناعة الورق .

وكانت أهم الصناعات التى قامت فى بلاد العالم الإسلامى ، صناعة الحديد وصناعة الورق ، والسكر من قصب السكر ، وصناعة العطور ، وصناعة النحاس الأصفر ، وصناعة الذهب والفضة ، وصناعة الزجاج والخزف ، وصناعة المنسوجات من القطن والصوف والكتان والحرير ، وكان من بين هذه المنسوجات الدبيقى وكان يصنع من الكتان فى مصر والبدنة وهو قماش خاص بعلية القوم والخلفاء ، والقصب وهو رقيق ملون ، والبوقلمون وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار .

وكذلك صناعة السجاد وقد اكتسبت هذه الصناعة شهرة عظيمة فى مختلف بلاد العالم وكذلك صناعة الصابون والعطور وغيرهـــا مـــن الصناعـــات المتعـــددة والمتنوعة فى مختلف بـــلاد العالم الإسلامى كما أن مـــن الخصـــائص المميزة للحضارة الإسلامية والتى كانت سببًا فى وحدة هذه الحضارة ، أنها حضارة تقـــوم على التسامح . يقـــول الله تعالى : " خذ العفو و أمر بـــالعرف و أعـــرض عـــن الجـــاهلين "[١٣] .

التســـامح الدينى مع غير المسلمين والاعتراف لهم بحريتهـــم فـــى معتقداتهـــم الدينية ، والتسامح فى المعاملات بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمة وذلك نابع من موقف الدين الإسلامى من الديانات السماوية السابقة له .

كما أن من خصائص الحضارة الإسلامية ، الحرية ، حرية الاعتقـــاد وحريـــة العمل والتنقل وجميع أنواع الحـــريات وحقوق الإنسان المعروفـــة الآن ، وعـــدم التفرقة بين البشر بسبب الجنس أو اللون أو العرق وكذلك لا فرق بيـــن المســـلمين بسبب أى نوع من أنواع التفرقة العنصرية الموجودة الآن ، ولافضل لعربى علـــى أعجمى إلا بالتقوى ، كما أن من خصائص الحضارة الإسلامية التكافل و الـــتراحم بين الغنى والفقير ، وبين القوى والضعيف ، وبين الحـــاكم والمحكوم وغير ذلـــك من الخصائص التى امتازت بها الحضارة الإســـلامية عن غيرهـــا من الحضارات والتى كونت مع السمة الأخرى " الروح الإسلامية " مـــا هـــو معـــروف بوحـــدة الحضارة الإسلامية .

---

(١٣) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

موت أو انقطاع الثقافات والحضارات

هناك ثقافات وحضارات ماتت واندثرت ولم يبق إلا الآثار الدالة عليها ، وهناك ثقافات وحضارات انقطعت فترة من الزمن طالت لعدة قرون ثم قامت من جديد وهناك حضارات وثقافات لم تمت ولم تنقطع وظلت مستمرة لعشرات القرون وحتى الآن .

فالحضارة والثقافة العيلامية والآشورية والبابلية والفارسية والمصرية القديمة وغيرها من الحضارات التى عدها أرنولد توينبى ستة وعشرين حضارة ماتت واندثرت ولم يبق إلا الآثار الدالة عليها .

وهناك حضارات وثقافات انقطعت عدة قرون ثم قامت من جديد مثل الحضارة والثقافة (الإغريقية) اليونانية .

أما الحضارة والثقافة الصينية والهندية والحضارة والثقافة العربية الإسلامية فإنها لم تمت ولم تنقطع وظلت مستمرة منذ مجيئها وحتى الآن .

والحضارة والثقافة الإغريقية التى بدأت فى اليونان واستمرت لعدة قرون فى الإمبراطورية الإغريقية وبعدها فى الإمبراطورية الرومانية ظلت سائدة ومسيطرة حتى بعد مجيء المسيحية .

وعندما آمن الإمبراطور الرومانى أغسطين بالمسيحية وقام بنشر الديانة المسيحية فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية وترجم الإنجيل إلى اللاتينية وأعلن الأب إيرونيموس أن الفكر الإغريقى لعنة على البشرية .

وأغلقت آخر مدرسة للفلسفة فى أثينا سنة ٥٢٩ م وأحرقت فى روما مكتبة البلاتين سنة ٦٠٠ م ومكتبة الإسكندرية بمصر وتوارت أفكار هوميروس وفرجيل كان ذلك إيذانًا بانقطاع الثقافة الإغريقية وإحلال الثقافة المسيحية محلها فى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية ، وسادت الثقافة والحضارة المسيحية .

ظلت الثقافة والحضارة الإغريقية منقطعة حتى أن أوربا فى العصر الوسيط لم تكن تعرف عنها الكثير إلا بعد أن قام العلماء المسلمون فى العصر الأموى والعصر العباسى بترجمة المؤلفات اليونانية وتم نقلها عن المسلمين إلى أوروبا .

وعندما تم القضاء على نفوذ الكنيسة وسلطاتها وكهونتها وحلــت المعتقــدات المادية العلمانيــة محــل المعتقدات المسيحية فى أوربا منذ القرن الســابع عشــر الميلادى ، تم بعث الثقافة والحضارة الإغريقية من جديد . وظلت الثقافة العلمانيــة المــادية والحضارة الغربية الماديه هى الســائدة والمسيطرة منذ القــرن الســابع عشر وحتى الآن .

فالثقافة والحضارة الإغريقية التى انقطعت لعدة قرون فى أوربا ، تم بعثها من جديد منذ القرن السابع عشر الميلادى ، بعد أن حلت المعتقدات المادية الجديدة محل المسيحية فى الثقافة الغربية الحديثة والحضارة الغربية الحديثة .

وعادت أوربا وأمريكا تعتنق المذهب المادى اللادينى ، والذى يمثل عنصــر الاعتقــاد فى ثقافتها وحضارتها المعاصرة ، وتتخذ من الماديــة الجديــدة ومــن الأفكار الإغــريقية القــديمة أهم مكونات ثقافتها وحضارتهــا الماديــة العلمانيــة الحــديثــة .

خاتمة الباب الأول

١ - مصطلح " الثقافة " من المصطلحات الحديثة ، التى لم تعـــرف تعريفــا صحيحًا إلا فى ســنة ١٨٧١م بواسطة العالم البريطانى " إدوارد تيلـــور" . وقــد عرف تيلور الثقـــافة " (بأنها ذلك المركب الكلى المعقد الذى يشـــمل المعرفـــة ، والاعتقاد والفن والقانون ، والتعاليم الأخلاقية والعادات وأى عـــادات أو مقـــدرات مكتسبة بواسطة الإنسان كعضو فى المجتمع) .

وبعد ذلك تناول العلماء ذلك المصطلح بالتهذيب والتغيير ولكن جميع التهذيبات التى أدخلت على هذا المصطلخ بعد ذلك لم تخرج عن هذا المفهوم الـــذى وضعـــه تيلور .

فالثقافة تتكون من عدة عناصر تختلف مفاهيمها من ثقافة لأخرى ، فالثقافـــة الصينية تختلف عن الثقافة الغربية الحديثة ، والثقافة الصينية تختلف عـــن الثقافـــة العربية ... . ويعتبر عنصر الاعتقـــاد هو العنصر المؤثر فى كـــل ثقافـــة مـــن الثقافات ، والاختلاف بين الثقافات يرجع فى الحقيقـــة إلـــى عنصـــر الاعتقـــاد . فالثـــقافة الصينية عنصر الاعتقاد فيها هو البوذيـــة ، والثقافـــة العربيـــة عنصـــر الاعتقاد فيها هو الإسلام ، والثقافة الغربية الحديثة ، عنصر الاعتقـــاد فيهـــا هـــو "المادية الجديدة " التى نشأت فى أوربا منذ القرن السابع عشر الميلادى وتطـــورت واســـتقام أمرها بعد الثورة الفرنســـية ، وذلك بعد القضـــاء على اللاهوتية الكنسية والقضاء على سلطات الكنيسة الإقتصادية والسياسية وفصل الدين عن الدولة وجعل الدين بمفاهيمه ومعطياته شأن من شئون الفرد ، لايطبق على الشـــعب والمجتمـــع ككل ، ولا يطبق على الدولة ومؤسساتها ونظمها وقوانينها .

لماذا كان عنصر الاعتقاد هو العامل المؤثر فى كل ثقافة من الثقافات ؟

إذا أمعنا النظر فى الظروف التاريخية التى صاحبت نشأة الثقافات المختلفـــة ، نجـــد الحقيقة التى تؤكد ذلك ، فكل الديانات السماوية التى نزلت على سيدنا موسى وســـيدنا عيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، صاحبها قيام ثقافات جديـــــدة على أنقاض ثقافات الشعوب التى دخلتها ، فالثقافة العربية قامت على أنقاض ثقافة الفرس والعرب والقبط والبربر.

وعندما آمن الإمبراطور أوغسطين بالمسيحية وقام بنشرها في أرجاء الإمبراطورية الرومانية ، قامت الثقافة المسيحية على أنقاض الثقافة الإغريقية (اليونانية) التى كانت سائدة فى الإمبراطورية الرومانية . وعندما قامت الحروب الدينية التى شملت أوربا طوال ثلاثة قرون من الزمان والتى تبعتها ثورة الشك والإلحاد والتى عمت كل أوربا بقيادة الفلاسفة الفرنسيين الملحدين أمثال فولتير ، وديدرو ، ولامترى وجريم ودالمبرت ، ودى هولباخ وقبلهم وبعدهم كثير من الفلاسفة الملاحدة الذين كونوا تيارا كاسحًا من الشك والإلحاد عم أوربا كلها وأصبحت أخبارهم من المسائل التى ينتظرها عامة الناس بشغف كبير طوال القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلادى . لذلك كانت ثورة الشك والإلحاد هى البوتقة التى على نارها تم إحراق الأفكار اللاهوتية المسيحية ونشأة الفكر الغربى الحديث[1] الذى اتخذ من " المادية الجديدة " ديانة جديدة " وظهرت " الأخلاق الطبيعية " التى حلت محل الأخلاق المسيحية وكان لذلك أثرة الأكبر فى قيام ثقافة علمانية غربية حديثة عنصر الاعتقاد فيها هو "المادية الجديدة " على انقاض الثقافة المسيحية التى كانت سائدة قبل ذلك : وعندما آمن أحد أباطرة المغول بالدين الإسلامى وقام بنشره فى أرجاء إمبراطوريته ، قامت الثقافة العربية على أنقاض ثقافة الشعوب المغولية التى دخلت فى الإسلام فى أرجاء واسعة من قارة آسيا .

وعندما جاء أخناتون بديانة جديدة كان لها أثرها الثقافى على المعابد والآثار التى تركها ولكن لم تستمر هذه الديانة الجديدة بعد وفاته وعادت الديانة القديمة فتم القضاء على الآثار الثقافية التى تركها .

وعندما دخلت البوذية إلى اليابان وذلك بعد انتقالها من الصين فى القرن السادس الميلادى وآمن بها الشعب اليابانى تغيرت الثقافة اليابانية منذ ذلك التاريخ .

وهناك شواهد تاريخية أخرى عديدة تؤكد أن عنصر الاعتقاد هو العنصر الفعال فى أى ثقافة من الثقافات .

---

(١) ول ديورانت : " قصة الحضارة "

وترجع أهمية عنصر الاعتقاد إلى أنه يؤثر على بقية العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة .

فالدين الإســـلامى له تأثير كبير على بقية العناصر المكونة لنسيج الثقافـــة العربية :

فالأخلاق الإسلامية هى ماجاءت به الشريعة الإسلامية وهى عنصر الأخلاق فى ثقافتنا العربية .

وكذلك العادات الإسلامية فى المأكل والمشرب والملبس وغيرها .

والقوانين فى ثقافتنا ماهى إلا القوانين التى جاءت بها أحكـــام الشـــريعـــة الإســـلامية .

والفنون الإسلامية يجب ألا تخرج عن مفاهيم الإسلام ومعطياته .

وهكذا بقية العناصر المكونة لنسيج الثقافة العربية ، فهـــى متـــأثرة بمفـــاهيم الإسلام ومعطياته .

٢ – الثقافة بهذا المفهوم الذى وضعه تيلور ، تختلف عن وصفنـــا لشـــخص يتميز بالبراعـــة فى عدة فنون أو عدة معارف بأنه مثقف . فأحيانا نصف شـــخص ما متخصص فى مجال الأدب العربى ، أو شخص بارع فى فن الموسيقى والشعر والأدب ، أو شخص ملم بجوانب متعددة من المعارف ، بأنـــه مثقـــف ، والثقافـــة تختلف عن هذا المفهوم .

فالثقافة تشمل الشخص المتعلم والشخص الأمى ، تشمل الشخص المتخصـــص فى مجال من المجالات كما تشمل الشخص الغير متخصـــص ، تشـــمل الشـــخص البـــارع والمتمـــيز فى فنون ومجالات عديدة كالموسيقى والرســـم والمعلومـــات العامة ، وتشمل الشخص العادى الذى ليس له هذه المواهب وهذا التميز .

والطبيب الصينى والفلاح الصينى لهما نفس الثقافة الصينية ، أمـــا الطبيـــب الصينى والطبيب المصرى مثلا فلهما ثقافتان مختلفتان مع اشـــتراكها فـــى نفـــس التخصص والمعلومات الطبية .

والثقافة بهذا المفهوم تشمل الفنون الراقية كما تشمل العادات البسيطة السائدة ، أما التخصص فى مجال من مجالات الثقافة أو الإبداع والتميز فى أحد مجالات الثقافة ، فذلك شأن آخر مثل التخصص والإبداع فى مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها :

٣ – هناك اختلافات ثقافية بين أهل الثقافة الواحدة . فهناك اختلافات ثقافية بين إنجلترا وفرنسا مثلا مع أنهما ينتميان إلى ثقافة واحدة هى الثقافة العلمانية الغربية الحديثة ، وهناك اختلافات ثقافية بين أمريكا وفرنسا مع أنهما ينتمان إلى ثقافة واحدة هى الثقافة الأم . وهناك اختلافات ثقافية بين مصر والمغرب مثلا مع أنهما ينتميان إلى الثقافة العربية ، كما أن هناك اختلافات ثقافية بين أندونيسيا ومصر مع أنهما ينتميان إلى ثقافة واحدة هى الثقافة العربية .

كما أن البيئة والموقع الجغرافى لهما أثرهما فى الاختلاف الثقافى فى الثقافة الواحدة ، مثل الاختلاف الثقافى بين أهل الشمال وأهل الجنوب فى أمريكا ، والاختلاف الثقافى بين أهل الوجه البحرى وأهل الوجه القبلى فى مصر ، وغير ذلك من العوامل الكثيرة التى تسبب الاختلاف الثقافى بين السكان فى الثقافة الواحدة .

ومن الملاحظ أن اللغة ، لاتدخل فى تعريف مصطلح " الثقافة " فإنجلترا تتحدث الإنجليزية وفرنسا الفرنسية مع أنهما ينتمان إلى ثقافة واحدة ، والمملكة الأردنية الهاشمية تتكلم العربية وتركيا التركية ولكنهما ينتميان إلى ثقافة واحدة . وإطلاق مصطلح " الثقافة العربية " على ثقافة الشعوب التى تتكلم اللغة العربية فقط هو إطلاق مجازى ، والحقيقة هى أن " الثقافة العربية " و" الثقافة العربية الإسلامية " و" الثقافة الإسلامية " ماهى إلا مسميات لمفهوم واحد .

كما أن هناك اختلافات ثقافية ترجع إلى الأقليات التى تعيش فى كنف الثقافة الأم ، مثل الأقليات العرقية أو الأقليات الدينية أو الأقليات الجنسية . ومن الملاحظ أن ثقافة هذه الأقليات تخضع دائما لسيادة الثقافة الأم .

٤ – ترجع وحدة الثقافة العربية إلى الدين الإسلامى ، فكل عنصر من العناصر المكونة لنسيج الثقافة العربية يحمل مفاهيم الإسلام ومعطياته ، فالمعرفة

والاعتقاد والفنون والقانون والأخلاق والعادات وأى مقـــدرات مكتســبة بواســطة الإنسان بوصفة عضوًا فى المجتمع الإسلامى ، كل عنصر مـــن هــذه العنــاصر المكونة للنسيج الكلى المركب للثقافة العربية ، يحمـــل مفــاهيم الديـــن الإســـلامى ومعطياته :

فالدين الإسلامى هو الأساس الذى قامت عليه وحدة الثقافـــة العربيـــة والقيــم الأخلاقية فى الثقافة العربية مصدرها الدين الإسلامى ، وكان ذلـــك عـــاملاً مـــن عوامل وحدة الثقافة العربية .

والقوانين التى هى عنصر من عناصر الثقافة العربية ماهى إلا قوانين أحكـــام الشريعة الإسلامية التى طبقت على الأفراد والمجتمعات والدول طـــوال التـــاريخ الإسلامى .

والعادات التى هى عنصر من عناصر الثقافة العربية هى العادات الإســـلامية التى اكتسبتها الأفراد والمجتمعات الإسلامية من معطيات الإسلام ومفاهيمه ولذلـــك كان ذلك عاملاً من عوامل وحدة الثقافة العربية .

وكذلك المجتمعات الإسلامية وماكتسبته من قواعد ونظم إسلامية وأثر ذلـــك على الأفـــراد ومعارفهم ومقدراتهم المكتسبة بوصفهـــم أعضـــاءً فـــى المجتمـــع الإسلامى ، كان من العوامل الهامة فى وحدة الثقافة العربية .

والفنون الإسلامية وما اصطبغت به من صبغة إسلامية والتـــى مثلـــت أحـــد عوامل وحدة الثقافة العربية .

٥ – يعتبر الدين الإسلامى وما جاء به من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات وحدود وعلاقات هو سبب وحدة الثقافة العربية .

وفى الحقيقة فإن السبب الذى جعل الثقافة العربية تصمـــد فـــى وجـــه هـــذه الموجات العاتية من الغزو الفكرى والتغريب فى العصر الحديث ، يرجع فى أساسه إلى الدين الإسلامى وإيمان الشعوب والمجتمعات الإسلامية به وتمسكها بمفاهيمـــه ومعطياته .

والدين الإسلامى هو دين الفطرة ، يثرى الروح ولايتصادم مع الحقائق العلمية ، فليس هناك حقيقة علمية مؤكدة ، تتصادم مع آيات القرآن الكريم أو تعارضها أو تنقضها – ولما كانت قوة أية ثقافة من الثقافات ترجع إلى قوة عنصر الاعتقاد فيها كما يدل على ذلك قيام الثقافات وانهيارها على مر التاريخ الإنسانى ، فإن قوة الثقافة العربية ، ترجع إلى ديننا الإسلامى الحنيف .

والإسلام هو خاتم الرسالات السماوية ولذلك جاء شاملاً لأمور الدنيا والدين ، شاملاً لحياة الإنسان المادية والروحية . فالإسلام جاء جامعًا لخلاصة الأديان كلها ، ولم يترك صغيرة ولاكبيرة فى بناء الفرد وبناء الأمة إلا عالجها مرة تفصيلاً وأخرى إجمالاً ، تاركًا للأمة أن تمضى فى التفصيل لما تقتضية مصالحها مع عدم التعارض مع الأصول التى وضعها . والإسلام ليس دين عبادة وفقط ولكنه يشمل العقائد والعبادات والشرائع التى تنظم علاقة الإنسان بخالقه جل فى علاه وعلاقته بالكون والحياة وعلاقته بأخيه الإنسان وقد اشتمل الإسلام على :

عقائد : وتتمثل فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الأخر والقضاء خيره وشره .

وعبادات : وهى ماشرعه الله سبحانه وتعالى لتنظيم علاقته بخلقه وتشمل الصلاة والزكاة والصوم والحج ..... . إلخ.

ومعاملات : وهى الأحكام التى تنظم علاقة الناس بعضهم ببعض والروابط التى تجمع بينهم وهى روابط تقوم على العدل والرحمة والمحبة والتعاون ، ودفع الضرر وجلب المنفعة وتشمل هذه الأحكام المعاملات المدنية والأحوال الشخصية .

الأخلاق : والإسلام يدعو إلى كل خلق طيب وينهى عن كل خلق مذموم وهى أساس البناء الأخلاقى فى المجتمعات الإسلامية وأساس البناء الأخلاقى للفرد المسلم .

والعقوبات : وهى الأحكام التى شرعها الإسلام لزجر الناس وارتداعهم عن الفساد والبغى مثل الحدود ، وهى أحكام عددها قليل كحد القتل والزنا والسرقة وقطع الطريق والقذف وغيرها ......

ووراء هذه الحدود باب واسع لنظام العقوبة هو " التعزير " .

والعلاقات : وهى علاقات حددها الإسلام لتوضيح علاقة الإنسان بربه وبالحياة وبالأحياء ......

وتشمل الأحكام التى نظمت علاقة المسلمين بعضهم ببعض مثل علاقة الزوج بزوجته وعلاقة المسلم بجاره وعلاقته بذوى القربى وعلاقته بالأصدقاء ....

وتشمل الأحكام التى نظمت علاقة المسلمين بغير المسلمين وهى أحكام تناولت احترام الأديان الأخرى وحرية أهلها فى عقائدهم وعصمة حياتهم وأرواحهم وأعراضهم وأموالهم وتشمل الأحكام التى نظمت علاقة الحاكم بالمحكوم وحقوق كل منهما على الأخر .

وتشمل الأحكام التى شرعت للحرب والقتال مثل معاملة الأسرى....

٦- الثقافة العربية تنمو وتتطور تطورًا طبيعيًا حاملة خصائصها المميزة لها فهى فى عملية النمو والتطور تحمل مفاهيم العناصر المكونة لنسيجها الكلى . وقد تطورت الثقافة العربية عبر مراحل التاريخ الإسلامى فالمقامات الأدبية التى ابتدعها بديع الزمان الهمذانى فى القرن الرابع الهجرى وتبعه الحريرى فى هذا المجال والتى سنلقى الضوء عليها فى فصل القصة القصيرة والطويلة فى مجال الأدب العربى .

والمعاجم العربية تطورت عبر التاريخ الإسلامى على يد العلماء أمثال "الثعالبى " و " الباقلانى " و" إسماعيل بن حماد الجوهرى " المتوفى ١٠٩٩ فى قاموسه "صحاح الجوهرى" والفيروز أبادى فى قاموسه "القاموس" . و الزبيدى فى قاموسه " تاج العروس " الذى وضعه فى القرن الثامن الميلادى والذى لازال يستخدم حتى الآن والذى يقارن بقاموس أكسفورد الإنجليزى الحديث فى وظيفته [٢] .

وغير ذلك مثل علوم اللغة العربية وقواعدها وعروض الشعر وعلوم الدين الإسلامى والفقه الإسلامى وغير ذلك من المجالات التى تطورت عبر التاريخ الإسلامى .

---

(٢) بيتر جران : " الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر " .

ومنذ دخول المستعمر واحتلاله البلاد الإسلامية فى القرن الماضى ، كان لغزوه الفكرى أثر كبير على الثقافة العربية وتطورها ، فقد وقف نموها الطبيعى وأصابتها الشوائب والتغيير فى بعض مجالاتها مثل الفنون والعادات والقوانين مما هدد وحدة الثقافة العربية .

فالتعدد فى مجال الفنون الآن فى البلاد الإسلامية ما هو إلا تعدد لايدور فى ظل وحدة تجمعه ولكن تعدد يمثل ثقافتين مختلفتين هما الثقافة العربية والثقافة العلمانية الغربية .

والعادات والقوانين وغيرها فالتعدد فى هذه المجالات وغيرها لايمثل تعددًا يدور فى ظل وحده تجمعه ، ولكنه تعدد يمثل ثقافتين وحضارتين مختلفتين . وسنلقى الضوء عليه فى الفصول التالية .

٧- يمكن تعريف الحضارة الإسلامية بأنها (كل إنتاج مادى أو روحى ينسب إلى الشعوب التى دخلت الإسلام وتشربت الحياة الإسلامية) [٣] .

وفى الموسوعة الأمريكية (أن مصطلح الحضارة يدل على حالة مجتمع إنسانى يتصف ببلوغ درجة عالية من الثقافة والتكنولوجيا وتبعًا لذلك بنمو اجتماعى وسياسى معقد) [٤] .

ويرى ول ديورانت (أن الحضارة نظام اجتماعى يعين الإنسان فى إنتاجه الثقافى) .

وهناك تعريفات كثيرة لمصطلح " الحضارة " ترجع فى أغلبها إلى الاختلافات الثقافية للعلماء الذين يضعون مثل هذه التعريفات ، فاختلافات الثقافات هى السبب فى تعدد تعريفات مصطلح الحضارة .

فالبعض يرى أن الحضارة إنتاج مادى والبعض الآخر يراها إنتاجاً روحياً مثل المفكر الهندى (راس - فيهارى - داس) الذى يقول (إن الحضارة فى جوهرها

---

(٣) د . حسين مؤنس : " دراسات فى الحضارة الإسلامية " .

(٤) Grolier Academic Encyclopedia . " Civilization " .

تقوم على الكائن البشرى لاعلى الأشياء المادية والناس هم متحضـــرون أو غــير متحضرين وفقًا لبعض مزاياهم الروحية)[٥] .

وهناك اتجاه يعتبر الحضارة شاملة للجوانب المادية والروحية وهــو الاتجــاه الذى يؤكد عليه كثير من المفكرين المسلمين يقول د.حسين مؤنس (أن الحضـــارة هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنســان لتحسين ظروف حياته ، ســواء كـــان هــذا الجهد مقصودا أم غير مقصود وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية)[٦] .

وهناك ارتباط بين الثقافة والحضارة . فالحضارة ما هى ثمرة جهـــد خـــلاق لشعوب لها ثقافة معينة سواء كانت هذه الثمرة مادية أو روحية .

فالحضارة ماهى إلا نتاج للثقافة ، ووحدة أى حضارة من الحضارات ترجـــع إلى وحدة الثقافة التى تنتمى إليها هذه الحضارة .

٨ - ترجع وحدة الحضارة الإسلامية إلى الإسلام ومعطياته ومفاهيمه .

وإذا أمعنـــا النظر فى مجالات الحضارة الإسلاميـــة مثل الطب أو الصـــيدلة أو الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الكيمياء أو الجغـــرافيـــــــا أو التـــاريخ أو الاجتماع أو العمارة أو الزخرفـــة أو غيرها من المجالات المختلفة ، نجـــد خيطـــا رفيعًا يربط بينها ، هذا الخيط الرفيع الذى يحسه الإنسان ويستشعره يرجـــع فـــى حقيقته إلى الإســـلام .

فوحـــدة الحضارة الإســـــلامية تعنى تشابهًا فى الروح وفـــى الخصـــائص المميزة لها . فالروح الإسلامية تتجلى فى فن العمارة والزخرفة وفى المنســوجات وفى بناء المساجد والعمائر وغيرها من مجالات الحضارة .

ومن الخصائص المميزة للحضارة الإسلامية ، قوة العقيدة وعمـــارة الأرض والاهتمام بالجوانب المادية الروحية ، وحرية الإنسان ، وعدم التفرقة بين البشـــر بسبب الجنس أو اللون أو الدين ، والرحمة والتكافل بين أفراد المجتمع الإســـلامى وغيرها من الخصائص المميزة لحضارتنا الإسلامية كنظـــام الأســـرة وتماســـكها والنظم الإجتماعية الإسلامية والقواعد الاجتماعية الإسلامية وغيرها من الخصائص التى ترجع إلى مفاهيم الإسلام ومعطياته .

---

(٥) د. محمد محمد عبد القادر الخطيب : " دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية " .
(٦) المصدر السابق .

البــاب الثـــانى

التعدد والتنوع فى إطار الوحدة فى " الثقافة العربية " و " الحضارة الاسلامية "

الفصل الأول : فى مجال الفقه الإسـلامى

الفصل الـثــانى : فى الأدب العربى

الفصل الثــالـث : الفنون الإسـلامية

الفصل الرابـــع : عن المجتمع الإسـلامى

الفصل الخـــامس : فى مجال الاقتصاد الإسـلامى

الفصل الســادس : عن المجال السـياسى

الفصل الســابـع : العلوم فى الحضارة الإسـلامية

تمهيد ترجع الوحدة التى تسود أى ثقافة من الثقافات إلى وحـــدة مفــاهيم عناصرها ، فــإذا كان هناك تعدد فى مفــاهيم كــل عنصــر مــن العناصر
المكونة للنسيج الكلى لأى ثقافة من الثقافات ، فمعنى ذلك انه سيكون هناك ثقافــات متعددة متنافرة لا تجمعها وحدة .

فالتعدد والتنوع فى الثقافة العربية ليس معناه تعدد وتنوع فـــى مفــاهيم كــل عنصر من عناصرها بل هو تعدد وتنوع فى ظل وحدة مفاهيم هـــذه العنــاصر ، وهى الوحـــدة التى تسود الثقافة العربية الإسلامية طوال تاريخها وحتـــى أواخـــر القرن الماضى ، عندما حدث الغزو الثقافى . من هنا نرى خطورة الغزو الثقـــافى الذى أحدثته الثقافة الغربية المعاصرة لثقافتنا العربية . فالعادات الغربيـــة غـــزت العادات العربية ، والقـــوانين الغربية حلت محل القوانيـــن العربيـــة الإســـلامية ، والفنون الغربية بمفهومها الغربى غزت بيوتنا وأصبحنا نقلدهـــا . وغيرها من بقية العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة ولم يبق إلا الدين .

ومن هنا كان الذود عن ثقافتنا العربية ليس بتنقية عناصرها من تأثير الثقافات الاخرى فقط ، ولكن بالعمل على تطوير الثقافة العربية أيضا، حتى تنافس الثقافـــات الأخرى . والتطوير فى الثقافة العربية يكون بتطوير مفهومنا لعناصرها، وخاصـــة الفنون ، بدون الابتعاد عن أصالة هذه العناصر وارتباطها بالدين الإسلامى .

وتتسم الثقافة العربية بمرونة فائقة ، وتسمح بوجود تعدد وتنوع ثقـــافى مثـــل الثقافات الأخرى بل إن الثقافة العربية تسمح بوجود تنافس ثقـــافى حـــر وشـــريف ومتكافئ بينها وبين الثقافات الأخرى ، دون فرض أو حظر أو قســـر . والغـــزو الثقافى الاستعمارى المفروض قسرًا وقهرًا على الثقافة العربيـــة ، يختلـــف عـــن التنافس الثقافى الحر المتكافئ . فالغزو الثقافى الغربى للثقافة العربية هـــو تغيـــير مفاهييم عناصر الثقافة العربية ، وإحلال مفاهيم عناصر الثقافة الغربيـــة العلمانيـــة محلها . ففى مجـــال العادات (وهى عنصر هام من عنـــاصر الثقافـــة) بإدخـــال العـــادات الغربية محل العادات العربية والإسلامية فـــى المـــأكل ، والمشـــرب ، والملبس ، والسلوك وغيرها ..... وفى مجال القانون بإحلال القوانيـــن الغربيـــة

العلمانية محـل القـوانين الإسـلامية ، كما حدث منذ مطلع القرن العشـرين ، وكما هو موجود فى كثير من المجتمعات العربية والإسلامية الآن . وفـى مجـال الفنون حلت الفنون الغربية بمفاهيمها محل الفنون العربيـة ، وللأسـف فـالفنون العربية لم تتطور وتتقدم حتى تحتفظ بخصائصها . وهكذا فى بقية العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة العربية . ولكن كان للعنصر الأم ، والغالب ، والمؤثر علـى بقية العناصر وهو الدين الإسلامى ، الفضل فى بقاء الثقافة العربية ، دون انهيـار أو تلاشى أو انقراض .

لعل فى هذه العجالة قد نبهت إلى خطورة الغزو الثقافى الذى أصـاب ثقافتنـا العربية منذ أواخر القرن الماضى وحتى الآن ، وأهمية تنقية الثقافة العربيـة مـن الشوائب التى أدخلت على الثقافة العربية .

والثقافة العربية تتنافس وتتعايش مع الثقافات الأخرى ولا تتصـارع معهـا . ومقولة الصراع الحضارى أو الصراع الثقافى ، التى تتردد فى كثير من الكتابـات الأوروبيـة والأمريكيـة فى الوقت الراهن مـاهى إلا امتـداد للغـزو الثقـافى والاستعمارى ، الذى عمد إلى غزو عناصر الثقافة العربية كما أسلفنا .

والثقـافة العربية لا تغزو الثقافات الأخرى بالقسر ، أو القهر ، أو الصراع ، فالإسلام كما يحرص على حرية العقيدة لأتباعه ، يحرص كذلك على حماية حرية العقيدة للآخـرين .

" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت جوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا "[١] . وميثاق المدينة الذى وضعه الرسول صلى الله عليـه وسلم عندما هاجر هو وأصحابه إليها دليل أكيد على أن الثقافة العربيـة تعـترف بالثقافـات الأخرى وتتعايش معها ، وتتنافس معها بدون قسر أوقهـر أو صـراع وفى نفس الوقت دون غزو من الثقافات الأخرى . فميثاق المدينة جعل لليهود حق الأمان على ثقافتهم ومعتقداتهم وقيمهم بجانب أمانهم الاقتصـادى ، والسياسـى ، والاجتماعى .

---

(١) سورة الحج آية ٤٠ .

والوثيقة التى وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر للمدينة واستقر بها ، شملت نواح عديدة ، منها ما يتعلق بالمسلمين من المهاجرين والأنصار ، ومنها ما يتعلق بقريش ، ومنها ما يتعلق بالمشركين بالمدينة والذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، ومنها ما يتعلق باليهود بالمدينة . وما يخصنا فى هذا المجال هو موقف الوثيقة من يهود المدينة . فوثيقة المدينة قد نظمت العلاقة بين المسلمين عامة وبين اليهود الذين يعيشون ضمن تجمعات المسلمين . وكذلك نظمت الوثيقة العلاقة بين المسلمين عامة واليهود المتميزين فى دورهم وتجمعاتهم بعيدًا عن المسلمين .

فالبنسبة لليهود الذين يعيشون ضمن تجمعات المسلمين ، فقد ذكرت الوثيقة ما يلى :

(.... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[٢] إلا نفسه وأهل بيته .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم . وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله وعليه وسلم ، وإنه لا ينحجز على ثار جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا)[٣] .

---

(٢) يوتغ : يهلك .
(٣) تهذيب سيرة ابن هشام لهارون صـ ١٢٥ " المنهج الحركى للسيرة النبوية " منير محمد الغضبان .

وأما بالنسبة لليهود المتميزين فى دورهم وتجمعاتهم بعيدًا عن المسلمين فقد ذكرت الوثيقة ما يلى :

(وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضارولا أثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها . وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو إشجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى عليه وسلم ، وإن الله على أنقى ما فى هذه الصحيفة وأبره وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو أثم ، وإنه من خرج أمن ، ومن قعد أمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٤].

ويتضح من هذه الوثيقة أن الأقليات الغير مسلمة فى المجتمع الإسلامى لها الحق فى الاحتفاظ بعقيدتها وثقافتها فى ظل سيطرة الدين الإسلامى والثقافة العربية الإسلامية .

أى أنه فى ظل سيطرة الثقافة العربية ووحدتها فإن ثقافات الأقليات لها حق الوجود والتعايش فى المجتمع الإسلامى تحت مظلة الثقافة العربية .

وأن الحفاظ على وحدة الثقافات العربية وسلامتها من غزو الثقافات الأخرى هى مسئولية المسلمين .

---

(٤) المصدر السابق .

والأمثلة على ذلك كثيرة وقصة الخليفة الأموى عبد الملك بن مـروان فـى شـأن الطرز التى كانت تكتب وتنقش على الثياب والقراطيس[٥] والستر معروفة ، وقد ذكرت فى العديد من المصادر[٦] . فقد أصدر الخليفة الأموى عبد الملـك بـن مروان أوامره إلى عامله فى مصر عبد العزيز بن مروان وإلى كافة عماله فى بلاد العالم الإسلامى ، أن يأمروا الصناع هناك أن يبطلوا الطرز الفارسية والروميـة ، وأن تكون الكتابة والنقوش على الثياب والستر والقراطيس : " شهد الله أنه لا إلـه إلا هو" ويعاقبوا كل من خـالف ذلك بالضرب الموجع والحبس الطويل ، والسبب فى ذلك أنه رأى أحد القراطيس المصرية والتى كانت تصدر إلـى الإمبراطوريـة الرومانية مكتوب عليها عبارات مخالفة للإسلام ومخالفة للثقافة العربية وتفـاصيل هذه القصة فى الفصل الخاص بالفـنون .

ومثال آخـر من فرنسا بلد الحريات لما يجب أن تفعله الدول والشعوب فـى المحافظة على ثقافتها من غزو الثقافات الأخرى ، فقد ذكرت وسائل الإعلام منـذ حوالى عامين أن فتاتين فرنسيتين مسلمتين لبستا الزى الإسلامى لغطـاء الـرأس (الحجاب) فى المدرسة ، فقامت إدارة المدرسة الفرنسية بمنع الفتاتين من ارتـداء هذا الزى ، فقام والدا الفتاتين برفع قضية أمام المحاكم الفرنسية بأن هذا تدخل فى الحرية الشخصية ، وقامت ضجة إعلامية فى فرنسا حول هذا الموضوع وأن هـذا يعتبر غزو ثقافى للثقافة الفرنسية وليس حرية شخصية ، وتكرر هذا الفعل أيضًـا فى المدارس الأمريكية والإنجليزية ومنعت الفتيات من ارتـداء الـزى الإسـلامى لغطاء الرأس . وحتى لو حكمت المحكمة لصالح الفتاتين فـإن وسـائل الإعـلام تكفلت بمنع إنتشـاره . ولو تصورنا مثلاً أن التلميذات الفرنسيات الغير مسـلمات فى المدارس قاموا بتقليد الفتاتين المسلمتين فى إرتداء هذا الـزى لغطـاء الـرأس (الحجـاب) وقامت إحدى دور الأزياء الفرنسية باتخاذه زى هذا العـام (موضـة العام) فبالتأكيد سوف ينتشر هـذا الزى الذى يمثل الثقافة العربية الإسـلامية بيـن الفرنسيات ، وسوف يكون هناك غـزو ثقافى " للثقافـة الفرنسـية العلمانيـة " ، وهـذا سر اهتمام الشعب ووسائل الإعلام والحكومة الفرنسية بمنع هذا الزى مـن الانتشار بين الفرنسيين .

---

(٥) القراطيس : الورق .   (٦) الإمام ابراهيم البلهقى : " المحاسن والمساوئ" .

الفصل الأول

فى مجال الفقه الإسلامى

جاءت الشريعة الإسلامية لتحكم أمور الدنيا والدين . فأمور الدنيا والدين كلها يحكمها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة . أما إستخراج واستنباط الأحكام من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، فيحتاج إلى قدرة على الاستنباط والاستخراج السليم وهذا هو الفقه . والفقه يحتاج للعلم الصحيح بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة حتى يستطيع الفقيه استخراح الأحكام منهما .

والحكم الذى يستخرجه الفقيه ، يسمى الرأى ، ومن الممكن أن يكون الرأى خاطئًا ، ولكن الفقه وهو طريقة استخراج الرأى لابد أن تكون سليمة ، وأسس السلامة هى إخلاص النية لله ورسوله ، وصحة الإيمان ، وسلامة النفس والعلم الكامل بالقرآن والسنة ، والذكاء الذى يمكن الإنسان من استخلاص الدقائق ، ثم البعد عن الهوى(٧) .

ويعرف الإمام الأكبر المرحوم جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر الفقه فيقول : " الفقه : فى اللغه مطلق الفهم ؛ أو فهم غرض المتكلم من كلامه ؛ وفى الاصطلاح : هو : العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية .....

وهو علم مستنبط بالرأى والاجتهاد ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل"(٨) ويضيف تحت عنوان "أقسام المجموعة الفقهية الإسلامية " : إن الفقه الإسلامى منذ تدوينه يتكون من ثلاثة أنواع مترابطة ، ويعتبر كل منها ثمرة للآخر :

النوع الأول : أصول الفقه :

ويعنى به العلم الذى ضبط به واضعوه من الفقهاء ، القواعد التى يعتصم بها المجتهد عن الخطأ فى الاستنباط ، كتقديم النصوص على القياس ، وتقديم القرآن

---

(٧) د . حسين مؤنس : "تاريخ موجز للفكر العربى" .

(٨) جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر : كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، المجلد الثالث ، بحث فى الفقه الإسلامى .

الكريم على السنة ، وتعريف دلالات ألفاظ نصوص هذين المصدرين ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وقواعد القياس الصحيح ، والمصالح ومقاصد الأحكام وغير هذا مما احتواه هذا العلم من قواعد وأصول .

النوع الثانى : الفروع الفقهية :

وهى الأحكام التى واجهت الأمور الجزئية التى وقعت وتقع فى حياة الناس ، وهى ثمرة علم أصول الفقه ، وإن تأخر تدوينه عنها ، لأن كل مجتهد كانت له خطته ومنهاجه الذى سار عليه فى الاجتهاد وإن لم يدونه فى كتاب أو يؤصله فى علم شأنه شأن باقىالعلوم التى نشأت تالية لفروعها ضبطًا لها ، فالمنطق وهو التفكير موجود قبل علم المنطق ، والنحو وقواعده كانت اللغة العربية الفصحى موجوده قبله ، وكذلك العروض فالشعر كان موجودًا قبل وضع قواعد عروض الشعر .

النوع الثالث : القواعد الفقهيه :

وتلك القواعد الفقهية قد خرجها فقهاء المذاهب من فروعهم المذهبية وعقدوا من الأشباه والنظائر منها بعلة جامعة بين الفروع المختلفة وجعلوها قاعدة حاكمة يمكن تطبيقها على كل ما تتحقق فيه من فروع .

وقبل الائمة الأربعة المشهورين – الإمام مالك ، وأبو حنيفة ، والشافعى ، وابن حنبل كان هناك فقهاء عديدون فى الأقطار الإسلامية المختلفة ، وكان منهم الفقهاء السبعة فى المدينة (وقد عدهم البعض اكثر من ذلك) ومنهم سعيد بن المسيب الملقب بإمام التابعين المتوفى سنه ٩٣هـ ، وعروة بن الزبير ، وآخرهم قاسم بن محمد المتوفى سنه ١٠٦هـ ، وكان من فقهاء المدينة السبعة امرأة هى عمرة بنت عبد الرحمن ، وغيرهم فى أقطار الإسلام المختلفة .

وكان القضاه والمفتون فى ذلك الوقت من التاريخ الإسلامى فقهاء مجتهدين ، يرجعون فى الفتوى إلى القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، فإن لم يجدو اجتهدوا كل واحد بما يراه الصحيح حسب رأيه واجتهاده ، مع تفاوت فى الأفهام، وتفاوت فىالمقدرة على الاستنباط ، وتفاوت فى الأخذ بالرأى أو عدم الأخذ به ،

كما شـــاعـــت وانتشـــرت فى ذلك العصر أفكار المعتزلة ، وغــــلاة الخـــوارج ، والمرجئة ، والشيعة .

وكان القاضى يجلس فى مجلس القضاة ، فتعرض عليه المشاكل والقضايـــا ، فيجد ألف رأى للمشكلة الواحدة وقد لا يجد أصلاً يعتمد عليه فى حكمه ، وقد يحتاج الأمرمنه وقتًا طويلاً للاستدلال على الأصل فى القرآن الكريم والسنة الصحيحـــة ، خاصة وأن هذا العصر فى أواخر القرن الأول الهجرى كـــان حـــافلاً بـــالأحداث والوقـــائع الجديدة فىالصناعة ، والتجارة ، ومختلف المعاملات بين النـــاس ممـــا استتبع وجود مشكلات جديدة تحتاج لرأى الدين وحكم الشريعة .

فى ذلك الوقت جاء أئمة الفقه ، بمذاهبهم الفقهية ، وشهد الناس لهم بالإمامة ، ودونت مذاهبهم وكان منهم فى مكة سفيان بن عيينة ، وفى المدينة وفى البصـــرة الحسن البصرى وفى الكوفه أبو حنيفة وسفيان الثورى ، وفى الشام الأوزاعـــى ، وفى مصر الشافعى والليث بن ســـعد ، وفى نيسابور إسحاق بن راهويـــه ، وفـــى بغداد أبو ثور وأحمد بن حنبل وداود الظاهرى ، وابن جرير . وقد قدر للمذاهـــب الأربعـــة المالكى ، والحنفى ، والشافعى ، والحنبلى البقاء والانتشار من بين هـــذه المذاهب المتعـــددة ، أما بقية المذاهب فلم يقدر لها أن تنتشر وتستمر فى الذيـــوع بعد موت أصحابها وذلك يرجع لعدة أسباب من بينها ، أن هذه المذاهب الأربعـــة اعتمدت على مدرستى أهـــل الحديث وأهل الرأى كما أن هذه المذاهـــب الأربعـــة كانت مذاهب جماعية بمعنى أن صاحب المذهـــب كان له تلاميذ أضافوا اجتهاداتهم إلى اجتهاده سواء فى حياته أو بعد موته .

الإمام أبو حنيفة : – هو النعمان بن ثابت وكنيته أبو حنيفة . ولد فى الكوفة سنة ٨٠ هـــ وتوفى فى بغداد سنة ١٥٠هـــ ، وكانت خطته استنباط الأحكام مـــن الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والإجماع والقياس ، والاستحسان ، والعـــرف [٩] . وقد برع هو وأصحابه فى القياس وتوسعوا فيه والاستحسان ، وكانوا يفـــترضون مسائل ويجتهدون فى إيجاد الأجوبة لهذة المسائل فأثروا الفقه بالأحكام التى كـــانت سندًا لأتباع مذهبهم .

---

(٩) المصدر السابق .

ومن أقوال الإمام أبو حنيفة " إنى آخذ بكتاب الله اذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآثار الصحاح عنه التى فشت فـــى أيدى الثقات ، فإذا لم أجد فى كتاب الله ولا فى سنة رســول اللــه أخــذت بقــول أصحابه من شئت ، وأدع من شئت ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فـــإذا انتهى الأمر إلى ابراهيم والشعبى والحسن ، وابن سيرين ، وسعيد بن المسيب فعلى أن أجتهد كما اجتهدوا"[١٠] .

وأشهر تلاميذ أبى حنيفـــة الذين يرجع إليهم الفضل فى تدوين مذهبه ونشـــره أبو يوسف ، ومحمد وزفــر والحسن بن زياد وأكبرهم اثرًا محمـــد بـــن الحســن الشــيبانى .

الإمام مالك بن أنس : -ولد بالمدينة المنورة سنة ٩٣هـــ وتوفـــى عـــام ١٧٩هــ وقدعاصر الإمام مالك الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وتوفى فـــى عهدالخليفة العباس هارون الرشيد ، فشاهد سقوط الدولة الأمويـــة وقيـــام الدولـــة العباسية بما فيها من فتن وصراعات ، وحروب ، وكان يجلس للدرس والإفتاء فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وكان يفدعلى المسجد الناس مـــن شـــتى أقطـــار الأرض ، فيعرف مشاكلهم وأخبارهم ، ويجيبهم على ما يغيـــب عنهـــم . وكـــانت منزلته فى الفقه عظيمة . وقد قال الإمام الشـــافعى عنه " إذا ذكر العلمـــاء فمـــالك النجـــم ، وما أحـــد أمـــن على من مالك "[١١] وضع كتبًا كثيرة وكان أشـــــهرها كتاب " الموطأ " ومعناه البسيط السهل .

وقد اســـتغرق فى جمعه وتأليفه مدة طويلة ، وانتهى من تأليفـــه فى عصـــر الخليفة هارون الرشيد ، ولما أراد الخليفة الرشيد أن يعلق " الموطأ " على الكعبـــة ويجمع الناس عليه أبى الإمام مالك وقال يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ علـــى الكعبة فـــإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وســلم اختلفـــوا فـــى الفـــروع ، وافترقوا فى البـــلدان ، وكل عند نفسه مصيب ، وإن اختلاف العلماء رحمة مـــن الله تعالى على هذه الأمـــة " .

---

(١٠) المصدر السابق .

(١١) تذكرة الحفاظ للذهبى ج١ ص ١٩٤- المصدر السابق .

وكانت خطته فى استنباط الأحكام تعتمد على الكتاب والسنة ، لكنه كان يقـدم أهل المدينة على خبر الواحد إذا كان مخالفًا له ، وبعد السنة ، يرجع للقيـاس ، وبنى كثيرًا من مذهبه على المصالح المرسلة [١٢] .

الإمام الشافعى :- هو محمد بن إدريس الشافعى القرشى ولد سنة ١٠٥هـ فى غزة ومات فى مصر سنة ٢٠٤هـ . وقد أخذ الفقه فى مكة على يـد شـيخ الحرم المكى ومفتيه مسلم بن خالد . وحفظ (الموطأ) ثم رحل إلى المدينة وقـرأه على الإمام مالك وأخذ العلم عنه ، ثم سافر إلى العراق ثلاث مرات ونشر مذهبـه القديم ثم سافر إلى مصر وكون مذهبه الجديد . وكان للإمام الشافعى خطة ممـيزة فى التشريع والفقه مثله مثل غيره من الفقهاء الأربعة.، لكن كان أهم أعمالـه هـو وضعه رسالة فى أصول الفقـه .

رواه تلميذه المصرى الربيع بن سليمان المرادى وبها يعتبر أول مـن جمـع قواعد أصول الفقـه .

الإمام أحمد بن حنبل :- هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ولد بمدينة مروسنة ١٦٤هـ وتوفي بغداد سنة ٢٤١ هـ .

وقال عنه الإمام الشافعي "خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ، ولاأفقه من ابن حنبل " .

وله مذهبه المميز في الفقه مثل غيره من الفقهاء وإن كان مذهبه يعتمد على المأثور وروايته ، وقليلاً ما يعتمد على القياس ، وهذا ما أبعد الناس عنه ولجـأوا للمذاهب الأخرى ففيها متسعٌ لما يعرض لهم فى حياتهم .

ما سبق هو نبذة مختصرة عن المذاهب الفقهية لأهل السنة والجماعـة وهـم يمثلون أغلبية المسلمين في العالم . (حوالي تسعين في المائة من المسـلمين فـى العالم) غير أن المذاهب الفقهية الإسلامية تشمل كذلك بعض الطوائف الإسـلامية الموجـودة في بعض البـلاد الإسـلامية مثل الشـيعة والخوارج . وطائفة الشيعة

(١٢) المصدر السابق .

لها أتباع عديدون في بعض البلاد الإسلامية . أما طائفة الخوارج فقد انقرضت ولم يبق منهم سوى طائفة الأباضية . فالمذاهب الفقهية الإسلامية الآن ترجع إلى ثلاث طوائف رئيسية هم :

طائفة أهل السنة – طائفة الشيعة – طائفة الخوارج .

وطائفة أهل السنة تتفق مذاهبها فيما يتعلق بالسياسة فى أن الخليفـــة أو الحاكم يمكن أن يكون من غير نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا خلافًا لمذاهـــب الشيعة الذين يرون أن الخليفـــة أو الإمـــام يجب أن يكون مـــن نســـل فاطمـــة الزهـــراء بنت رسول صلى الله عليه وسلم . كما أن أهل السنة يتفقون كذلك فـــى أن الخلافة لايصح تعددها ، و هذا خلافًا للخوارج الذين يجيزون تعدد الخلافة .

ومن الأمور التى يتفق فيها أهل السنة كذلك رواية الأحاديث عـــن الرســـول صلى الله عليه وسلم فهم لا يقيمون وزنًا لرواة الأحـــاديث إذا ما كانوا من أهـــل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من غيرهم .(١٣) فالحديث يكون صحيحًـــا عندهم إذا رواه العدل الضابط عن مثله إلى نهاية السند من غير شـــذوذ ولا علـــة قادحة سواء كان الرواة من أهـــل بيت رسول الله أو من غيرهم . وهذا بخـــلاف الشيعة فإنهم يرجحـــون دائمًا الأحاديث التى يكون رواتها من آل البيت ، ولذلـــك جـــاء ذلك الاختلاف فى كتب الأحاديث فأهل السنة كتبهـــم فـــى الأحـــاديث : صحيح البخـــارى وصحيح مســـلم وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجـــه وأبـــى داود السجستانى ومسند ابن حنبل ومسند أبى داود الطاليسى وغيرها .....

على أن للشيعة كتبًا فى الحديث يعتمدون عليها غير هذه الكتب . ومعظم رواة الأحاديث فى كتبهم من آل البيت رضى الله عنهم وخاصة الأحاديث التى يرويهـــا الإمام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه على زين العابدين عـــن أبيـــه الحسين عن على ابن أبى طالب عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١٣) د . على عد الواحد وافى : " بحوث فى الإسلام والاجتماع " .

هذه بعض الاختلافات بين مذاهب أهل السنة والشيعة والخوارج . وطائفة الشيعة تتفق جميع مذاهبها فى أمور سياسية وأمور تتعلق بالعبادات والمعاملات . فتتفق مذاهبها فى أن الخلافة الصحيحة هى ماتكون فى نسل فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وأن الخلافة لا تتعدد وتتفق كذلك فى ترجيح الأحاديث التى يكون رواتها من آل البيت رضوان الله عليهم .

وتختلف فيما عدا ذلك تبعا لاختلافهم فى فهم آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وفى موضوع النسخ فىالكتاب والسنة وترجيح بعض الأحاديث وغيرها [١٤] .

وكانت للشيعة مذاهب عديدة انقرض الكثيرمنها مثل مذهب السبئية التى كانت تؤله على بن أبى طالب ، والمذهب الذى كان يذهب إلى أن على بن أبى طالب هو الرسول وأن جبريل قد أخطأ وذهب بالرسالة إلى محمد لشبهه به . وغيرها من المذاهب الشيعية المنحرفة التى انقرضت ولم يبق فى الوقت الحاضر من مذاهب الشيعة إلا نحو خمسة مذاهب هى : الجعفرية ، الزيدية ، البهرة ، والإسماعيلية أتباع أغاخان والدروز .

أما الإسماعيلية أتباع أغاخان والدروز فهاتان الطائفتان قد خرجتا عن الإسلام ولا يصح أن نعدهما من طوائف المسلمين .

فالدروز يؤلهون الحاكم بأمر الله الذى كان خليفة فاطميًا فى مصر وهم لا يعتقدون برسالة الرسول بل يعتبرونه مصلحًا [١٥] .

والشيعة الإسماعيلية أتباع أغاخان كذلك قد خرجوا خروجًا كبيرًا عن الإسلام فوصفوا رئيسهم بالعصمة وساروا فى عقائدهم وشرائعهم على طرق غير إسلامية . ولم يبق من مذاهب الشيعة التى لم تخرج عن الإسلام إلا ثلاثة مذاهب : الجعفرية والزيدية والإسماعيلية البهرة [١٦] .

---

(١٤) المصدر السابق .
(١٥) المصدر السابق .
(١٦) المصدر السابق .

والشيعة الجعفرية تسمى الاثنى عشرية وتسمى كذلك الوقفية . والشيعة الجعفرية يذهبون إلى أن الخلافة الصحيحة هى خلافة اثنى عشر وهم : على ابن أبى طالب فالحسن فالحسين ثم على زين العابدين ، محمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد التقى أوالجواد ، وعلى الهادى ، ومحمد العسكرى ، ومحمد المهدى . ويذهبون إلى أن محمد المهدى قد اختفى فى مغاره فى "سر من رأى" ويظل مختفيًا فى هذه المغارة يحكم العالم إلى قبيل قيام الساعة فيخرج من مغارته ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلمًا . وكل خلافة غير خلافة هؤلاء الاثنى عشر تعد باطلة فى نظرهم . ولذلك يسمون الاثنى عشرية ، ويسمون الجعفرية لأن معظم مسائل مذهبهم مشتق من آراء جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر . ويسمون الوقفية كذلك لأنهم يقفون بالإمامة عند الإمام الثانى عشر ولا إمام بعده عندهم . وكذلك يطلق عليهم أيضًا الشيعة الإمامية .

ويرى الدكتور على عبد الواحد وافى " أن الخلاف بينهم وبين أهل السنة لا يزيد كثيرا عن الخلاف الموجود بين مذهب من مذاهب أهل السنة ومذهب آخر من مذاهب الطائفه نفسها ، اللهم إلا فى بعض مسائل يسيرة كمسألة جوازهم زواج المتعة ، فهذا خلاف جذرى وجوهرى بيننا وبينهم ، وكذلك تحريم زواج المسلم من النصرانية أواليهودية .

وقد أخذنا فى تشريعنا المصرى ببعض آرائهم فى جواز الوصية للوارث فى حدود الثلث وفى بعض أحكام الطلاق " ويضيف د . على عبد الواحد وافى : "وحبذا لو أخذنا كذلك بمذهبهم – كما ذكرت فى مؤلفاتى – فى وجوب الإشهاد على الطلاق عملاً بقوله تعالى : "وأشهدوا ذوى عدل منكم " . وحبذا لو أخذنا بمذهبهم فى أن طلاق البدعة لايقع وهو الطلاق الذى يوقعه الرجل فى حالة الحيض أو فى حالة مس المرأة فى أثنائه" . ويقول الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر : " تعتمد طائفة الشيعة الجعفرية فى الفقه على الكتاب والسنة كأصلين عامين شأنهم فى ذلك كأهل السنة ولكنهم اختلفوا مع هؤلاء فى الأصول والفروع وأهم منشأ للاختلاف ما يلى : –

أولاً : أن ماكان عند أهل السنة والجماعة من أصول وفروع مخالفة لتعاليم الشيعة وعقائدها يرفض رفضًا باتًا ويحل محله أصول وفروع تتمشى مع العقائد الشيعية كعصمة الأئمة الاثنى عشر وما يترتب على ذلك من استبعاد خطأهم في الحكم والأحكام .

الثانى : أنهم بعد أن التزموا ألا يأخذوا حديثًا أو رأيًا إلا عن إمام من أئمة الشيعة وعالم شيعى وراوٍ شيعى اضطروا أن يبنوا أحكامهم على الكتاب بالتفسير الشيعى فقط ، وأن يرفضوا ما روى عن غيرهم ، وهذا يستتبع حتمًا ضيقًا فى التشريع من جهة ، والمخالفة لأهل السنة والجماعة فى بعض المسائل من جهة أخرى .

الثالث : أن الشيعة أنكروا الإجماع العام كأصل من أصول التشريع بعد أن يسلمهم إلى الأخذ بأقوال غيرهم ، وأنكروا القياس لأنه رأى والدين لا يؤخذ بالرأى ، وإنما يؤخذ عن الله ورسوله ، وعن الأئمة المعصومين . وقد استلزم قولهم بعصمة الأئمة أن يأخذوا أقوالهم كنصوص من قبل الشارع لا تحتمل خلافًا " . وأورد الشيخ جاد الحق على جاد الحق بعض الاختلافات بين أهل السنة والجماعة وأهل الشيعة الجعفرية فى النكاح مثلما سبق عند الدكتور على عبد الواحد وافى ، وكذلك فى نظام المواريث مثل إنكار العول الذى قال به عمر بن الخطاب وينحون منحى ابن عباس ، وكذلك تقديم بعض الورثة على بعض فالزوجة والأبوان يقدمون على البنتين فى أخذ الأنصاب من التركة فلو أن المتوفى ترك زوجة وأبوين وبنتين كان للزوجة الثمن (ثلاثة من أربع وعشرين) ولكل واحد من الأبوين السدس (أربعة) ويكون الباقى ١٣ هو نصيب البنتين فى حال أن أهل السنة يقولون بالعول فى المسألة وهم أيضا يقدمون القرابة على العصبة . فإذا مات الرجل عن بنت وابن ابن كانت التركة كلها للبنت لأنها أقرب ، وأهل السنة يعطون البنت النصف فرضًا ، وابن الابن النصف الباقى تعصيبًا ، وهم يورثون ابن العم الشقيق ويتركون العم لأب ويقولون إن الأنبياء تورث ، ولا يورثون النساء من العقار ولا من الأرض بل من المال المنقول فقط .

ويزيدون فى صيغ الأذان بعد عبارة (حى على الفلاح) عبارة (حى على خير العمل) ويقولون بالمسح على الرجلين فى الوضوء دون غسلهما .

ويضيف الشيخ جاد الحق على جاد الحق :

"ولقد كان اختلاف أهل السنة والشيعة مبنيًا فى الغالب على :

أ - اختلافهم فى فهم القرآن الكريم . وللشيعة تأولات فى بعض الآيات اختصوا بها .

ب - وعلى أحاديث يرويها الشيعة من أئمتهم لا يعترف بها أهل السنة .

هذا عن فقه الشيعة الجعفرية (الاثنى عشرية) أما الشيعة الزيدية فهم فى جملتهم أقرب لجماعة أهل السنة .

والمذهب الثالث من مذاهب الشيعة هو مذهب الإسماعيلية البهرة ، ومذهبهم لايختلف كثيرًا عن المذاهب الإسلامية الأخرى . أما الطائفة الأباضية وهى الطائفة الوحيدة الباقية من الخوارج ولها بعض الأتباع فلا يؤخذ عليها مخالفة الكتاب أو السنة ، أما المسلمين فى شتى بقاع الأرض فيتوزعون على هذه المذاهب .

١ - والمسلمون الذين يسيرون على مذهب الإمام مالك فى الوقت الحاضر منهم سكان المغرب وموريتانيا ، ومعظم أهالى مالى والجزائر وتونس وليبيا والصعيد بمصر وأهل الإسكندرية والبحيرة بمصر ، وشمال السودان ، ومسلمى السنغال ، وساحل العاج وسيراليون ، ونيجيريا . . . أى أن أتباع هذا المذهب ينتشرون الآن فى شمال أفريقيا ووسطها وغربها كما يعمل به بعض جماعات قليلة العدد فى الحجاز .

٢ - أما المسلمون الذين يسيرون على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان فى الوقت الحاضر : ثلث سكان العراق (والثلثان الأخيران شيعة عرب وشافعية أكراد) ، ويسير على مذهب الإمام أبى حنيفة كذلك جميع الأتراك فى العالم فكل تركى مسلم حنفى المذهب ، فيسيرعليه الأتراك فى تركيا وفى تركستان

وأهل أفغانستان وبخارى وكذلك معظم مسلمى باكستان ما عـدا فئـة قليلـة تسير على المذهب الجعفرى وكذلك فئة قليلة أخرى وهى البهرة تسـير علـى المذهب الإسماعيلى ، ويسير عليه كذلك معظم مسلمى الهنـد ، مـاعدا فئـة قليلة فى الجنوب فى مدارس فهى شافعية المذهب ، ويسير عليه كذلك بعـض الأفراد فى مصر وفى تونس .

٣ - والمسلمون الذين يسيرون على مذهب الإمام محمد ابن إدريس الشافعى فـى الوقت الحاضر فموجودون فى القاهرة وفى الوجه البحرى من مصر مـاعدا أهـل الإسكندريه والبحـيرة ، وفى شرق أفريقيا فى الصومـال وإريتريـا وكينيا ، ويسير عليه نحو نصف سكان زنجبار (والنصف الآخر يسـير علـى المذهب الأباضى) ويسير على المذهب الشافعى كذلك بعض جماعات بسوريا ولبنان ونحو نصف سكان اليمن (والنصف الآخر شيعى زيدى) وكذلك يسـير عليه أهل اليمن الجنوبى (الذين كونوا دولة واحدة مع اليمـن الشـمالى الآن) وكذلك يسير عليه معظم سكان الخليج ما عدا مسـقط وعمـان فـإن أهلهـا أباضيون ماعدا أهل قطر فـإن أهلها حنابلة وهابيون . . . ويعتنـق هـذا المذهب جميع الأكراد فى العالم . ويسير على المذهب الشافعى كذلـك أهـل إندونيسيا من المسلمين وأهل الملايو والفلبين وماليزيا وقسم من جنوب الهند .

٤ - أما مذهب الإمام أحمد ابن حنبل فليس منتشرًا الآن إلا فى معظـم السـعودية (هناك فريق من أهل الإحساء ومن أهل المدينة يسيرون على مذهب الشـيعة الجعفرية) ويسـير على مذهب الإمام ابن حنبل أهل قطر . والسائرون علـى مذهب الإمام أحمد بن حنبل فى السعودية وقطر يعتمدون على فقه ابن تيميـة ومن بعده فقـه الإمام محمد بن عبد الوهاب .

٥ - أما المذهب الشيعى الجعفرى "الشيعة الاثنى عشرية " فهو منتشر فى أكثر من ثلث العراق ، ومعظم سكان إيران ، وجماعات فى سوريا ولبنان وفريق مـن أهل الإحساء وأهل المدينة المنورة فى السعودية وبعض الجماعات فى الـدول الإسلامية التى استقلت وانفصلت عن الاتحاد السوفيتى ومعتنقوا هذا المذهـب يبلغون نحو الخمسين مليونا .

٦ – المذهب الشيعى الزيدى : وهذا المذهب الذى يرجع إلى زيد بن علـــى زيـــن العابدين وهـــو أخو محمد الباقـــر ويعتنق هذا المذهب قســـم كبير من أهـــل اليمن الشمالى .

٧ – والمسلمون الذين يعتنقون المذهب الثالث من مذاهب الشيعة و هــــو مذهــب الإسماعيلية البهـــره فيوجدون فى بنجلاديش . وهؤلاء مسلمون لم ينحرفـــوا عن الإســـلام كما انحرف الإسماعيليون أتباع أغاخان . ولا يختلف مذهبهـــم عن المذاهب الإسلامية الأخرى . (١٧) .

٨ – والمسلمون الذين يعتنقون المذهب الأباضى فهم فى مسقط وعمان وقسم كبير من أهل زنجبار . ويسير عليه بعض سكان الجزائر وتونس ولبيبا . والخلاف يسير جدًا فى الجزائر وتونس بين الإباضية والمالكية ولكنة شديد جدًا فى لبيبا حتى ليرمى كل فريق منهم بالكفر .

ومن هذا يتضح أن نحو تسعين فى المائة من المسلمين يسيرون على مذاهــب أهل السنة وعشرة فى المائة على أكثر تقدير يسيرون على المذاهب الأخرى .

---

(١٧) المصدر السابق .

تعدد مدارس الفكر فى مجال الفقه والتشريع

تعددت مدارس الفكر الإسلامى فى مجال الفقه والتشريع ، وقد قسمها فضيلة الشيخ محمد الغزالى إلى أربعة مدارس :

(١) مدرسة الرأى : وهى مدرسة تعتمد على معرفة الحكم الصحيح من مجموعة نصوص ، لا من نص واحد . وفقهاؤها يبحثون الملابسات والظروف التى تحيط بالنص وخاصة إذا كان النص "حديثًا " ، ويفسرون الحديث على ضوء هذه الملابسات وفى إطار الآيات القرآنية المحكمة .

(٢) مدرسة الأثر : وهى المدرسة التى تتمسك بظاهر النص مع عدم تنكرها للرأى . ويعتبر فضيلة الشيخ محمد الغزالى أن مدرسة الرأى هى التى قادت الثقافة الإسلامية عبر التاريخ . ويضرب فضيلته مثلاً يجسد الفرق بين المدرستين فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة " فالنص صريح فى الأمر بصلاة العصر فى بنى قريظة . اختلف المسلمون فبعضهم صلى فى الطريق ، والبعض الآخر صلى بعد المغرب فى بنى قريظة. فالذين صلوا فى الطريق لم يعصوا أمر النبى، وإنما اجتهدوا فيما رأوه صوابًا وهم يمثلون أهل الرأى . أما الحرفيون ، النصيون فقد رأوا أن يصلوا العصر بعد فوات وقته وهؤلاء يمثلون أهل الأثروتعتبر مدرسة الفكر : هى المدرسة التى سادت وانتشرت على امتداد التاريخ الإسلامى ، وكان أبى حنيفة ، والشافعى ، ومالك من أئمة هذه المدرسة .

٣- مدرسة الموازنة والترجيح بين الرأى والأثر : وهذه المدرسة قد أفادت من المدرستين السابقتين وإن كان ميلها للأثر أوضح وكان رائد هذه المدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ -.٧٢٨ هـ) وتلاميذه أمثال ابن القيم .

٤- مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة : وهذه المدرسة ظهرت فى العصر الحديث، وهذه المدرسة تأخذ بالرأى ، والأثر كما تأخذ بالترجيح بينهما مثل مدرسة ابن تيمية إلا أنها تختلف عنها . كما يقول الدكتور محمد عمارة " بترويجها للعقل وتقديم دليله واعتبارها العقل اصلاً للنقل ، وهى تقدم الكتاب على السنة وتجعل

إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الأحاد . وهى ترفض مبدأ النسخ ، وتنكر انكارًا حاسمًا أن يكون فى القرآن الكريم نص انتهى أمده ، وترى المذهبية فكرًا إسلاميًا قد ينتفع به ، ولكنه غير ملزم ، ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبى ، وتخدم علم الأئمة ، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية ولا تلقى بالأ إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة والحديثة " ويعتبر الشيخ محمد الغزالى واحداً من أعلام هذه المدرسة الفكرية ، ومن روادها وأئمتها محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ) (١٨٤٩-١٩٠٥م) وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ، ١٣٥٤هـ) (١٨٦٥-١٩٣٥م) والشيخ محمد الخضرى (١٢٨٩-١٣٤٥ هـ) (١٨٧٢-١٩٢٧هـ) ومحمدعبد الله دراز (١٣٧٧هـ) (١٩٥٨م) ومحمد البهى ومحمد المدنى ، والشيخ محمد أبو زهرة وغيرهم من مجددى العصر الحديث .

٥- **مدرسة الاختيار الشخصى ، والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة** : وهدف هذه المدرسة الخروج بالفكر الإسلامى من جمود "مؤلفى المتون المذهبية" وقد ظهرت هذة المدرسة فى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر الهجرى ، ومن أئمتها الصنعانى (١١٦٩-١٢٢٥هـ) (١٧٥٠-١٨١٠م) مؤلف كتاب "سبل السلام" والشوكانى (١١٧٣-١٢٥٠هـ) (١٧٦٠-١٨٤٠م) مؤلف كتاب "نيل الأوتار" ومن صار على دربهم أمثال صديق خان (١٢٤٨-١٣٠٧هـ) (١٨٣٢-١٨٨٩م) فى مؤلفاتة ، والألبانى فى رسائله ، والشيخ سيد سابق فى كتابه " فقه السنة " ويرى الشيخ محمد الغزالى ، ان الأئمة السابقين وخاصة أصحاب المذاهب الأربعة كانوا روادًا فى تأسيس الفقه الإسلامى ، والرائد قد يشغلة الاكتشاف عن الموازنة والتقدير ، ولعل من جاء بعدهم كان قادرًا على التنظيم والنمو الطبيعى ومواجهة المشاكل المستجدة ، كما يرى أنة من الواجب علىالفقهاء المعاصرين احتضان كل التراث الإسلامى واستدعاء كل ماهو صالح فى هذا التراث لمواجهة التحديات المعاصرة .

الفصل الثـــانى

الأدب العــربى

من صفــات الإبــداع الأدبـــى

يعتبر الأدب من الفنون الهامة في " الثقافة " . والأدب يحمل مفاهيم "الثقافـــة" التى ينتمي إليها فالأدب الأمريكى أو الإنجليزى أو الفرنسى المعـــاصر لا بـــد أن يحمل مفاهيم " الثقـــافة العلمانية الغربية " المعاصرة وكذلك الأدب العربى يحمـــل مفـــاهيم " الثقافة العربية " فالأدب العربى لابد أن يحمل مفاهيم الثقافـــة العربيـــة ومفاهيم عناصرها التى ذكرناها سابقا .

والإنتاج الأدبى سواء كان قصة أو مسرحية أو شعرًا أو مقالة أدبية أوغيرهـــا يرتبط بالأديب الذى أنتجه وثقـــافتة فالأديب العربى إنتاجـــه الأدبى يحمـــل مفاهيم " الثقافة العربية " .

التمسك بمفـــاهيم " الثقـــافة " لايعنى التخلى عن الإبداع والفنيـــة الأدبيـــة ، فوظيفة الادب الحقيقية هى هذة الصورة الفنية التى يأتى بها الأديب والتـــى تحلـــق بالحس الإنسانى عاليًا وتبعث فى النفس البهجة والروعة والجمال والتـــى يطلقـــون عليها الآن "التجارب الشعورية الموحية"[١]. والتى يصيغها الأديب فى لغة عربيـــة لها خصائصها يطلقون عليها " التجارب التعبيرية "[٢] . والأديب بصفته ووظيفتـــه هذه المذكورة أعلاه كانت معروفة منذ القدم فليست من الاختراع الحديـــث . فقـــد أشار إليها أرسطو وأشار إليها الجاحظ (قبل عصر الترجمات عن اليونانية) وفـــى ذلك يقول الدكتور بدوى طبانة : "وذلك إلتقاء عجيب بين الفيلسوف الإغريقى القديم والمفكر العربى النابغة فى فهم حقائق الأشياء وتميز بعضها عن بعض" [٣]. وأشار

(١) سيد قطب : " النقد الأدبى أصوله ومناهجه ".
(٢) المصدر السابق .
(٣) د. بدوى طبانة : " نظرات فى أصول الأدب والنقد " .

إليها الأصمعى والآمدى وقـــدامة بن جعفر فى كتابة " نقد الشعر " فـــى القـــرن الربع الهجرى[٤]. بل إن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أشار إلى ذلـــك وكان محبًا للشعر . يقول ابن عباس : " قال لى ليلة مسيره إلى الجابيـــة فـــى أول غـــزوة غزاهـــا : هل تروى لشاعر الشعراء ؟ قلت : من هو ؟ قال الذى يقول :

ولو أن حمدا يخلد الناس اخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت : ذلـــك زهـــير .. قال فذاك شاعر الشعراء ... قلت : وبما كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحـــدًا إلا بما فيه . أى أنه سهل العبارة ، لا تعقيد فى تراكيبه ، ولا حوشـــى فى الفـــاظه ، ثم هو فى معانيه بعيـــدا عن الخلو ، بعيدًا عن الإفراط فى الثنـــاء ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه "[٥].

ووصف العمل الأدبي فى أى ثقافة من الثقافات بأنه متوسط أو جيد أو ممتاز أو رائع يرجع إلى ما يحتويـــه هذا العمل الأدبى مـــن " قيـــم شـــعورية " و" قيـــم تعبيرية" " فالقيم الشعورية "هي تجارب شعورية موحية يأتى بها الأديب فتثير فـــي نفس القـــارئ الانفعال بها، وقد تكون هذة " القيم الشعورية " تجـــارب شـــعورية حقيقية عايشها الأديب أو تكون من اختراع خياله "والقيم التعبيرية " تجارب لغويـــة يقوم بها الأديب لينحت عبارتة الأدبية التى يصب فيها " تجربتة الشـــعورية وكـــل أديب له تجاربه التعبيرية التي تميزه عن الآخرين .

فجودة العمل الأدبى ترجع إلى ما يحـــتوى عليه هـــذا العمل الأدبـــى مـــن " القيم الشعورية " و " القيم التعبيرية " وهذه الجودة من عدمها لا تعنى التخلى عـــن مفاهيم الثقافة التى ينتمى إليها هذا العمل الأدبى .

وكمثال للقيم الشعورية الرائعة التى أوردها الأستاذ سيد قطب فى كتابه " النقد الأدبى أصوله ومناهجه " قصيدة الشاعرالهندى العظيم طاغور . يقول الشاعر فـــى مجموعة سماها البستانى[٦] :

---

(٤) أبو الفتوح فرج قدامة بن جعفر : "نقد الشعر" تحقيق د.محسن عبد المنعم خفاجى .
(٥) د. حسن طبل : "مدخل إلى النقد الأدبى" .
(٦) سيد قطب : " النقد الأدبى أصوله ومناهجه " .

اليوم لم يختم بعد والسوق التى على شاطئ النهر لا تزال
لقد خفت أن يكون يومى قد تبدد وآخر دراهمى قد ضاع
ولكن لا يا أخى ، إنى مازلت أملك شيئًا لأن حظى لم يسلبنى كل شىء
الآن إنتهى البيع والشراء
لقد جمعت حصيلة من الطرفين
والآن حان وقت عودتى ولكن أيها الحارس أطلب ضريبتك؟
لا تخف يا أخى ، لأنى مازلت أملك شيئـًا ، لأن حظى لم يسلبنى كل شىء
إن سكون الريح ينذر بالعاصفة وإن السحب المتجهمة فى الغرب لا تبشر بخـير
والماء ساكن ينتظر الريح
أما أنا فأهرول لأعبر النهر قبل أن يدركنى الليل
ولكن ياصاحب المعبر ، أفتريد أن تطلب أجرك ؟
أجل ، يا أخى ، إنى مازلت أملك شيئـًا ، لأن حظى لم يسلبنى كل شىء
وفى ظلال الشجرة على جانب الطريق تربع الشحاذ
وا أسفاه ! إنه يحدق فى وجهى وفى عينيه رجاء وحياء !
إننى ، فى ظنه ، غنى بما ربحت فى يوم
أجل ، يا أخى ، إنى مازلت أملك شيئـًا ، لأن حظى لم يسلبنى كل شىء
لقد اشـتد ظلام الليل وأقفر الطريق وتألق الحباحب بين أوراق الشجر
من عساك تكون يا من تتبعنى فى خطوات متلصصة صامتة ؟
آه ، وقد عرفت ، أنك تريد أن تسرق منى كل أرباحى
لن أخيب ظنك !
لأنى مازلت أملك شيئـًا ، لأن حظى لم يسلبنى كل شىء ...
وصلت المنزل عند منتصف الليل بيدين فارغتين

وأنت لدى الباب تنظرين فى يقظة وصمت وفى عينيك الرغبة

وكعصفورة وجلة طرت إلى صدرى ، يدفعك حب تواق

آه يا إلهى . إن شيئا كثيـرًا ما يزال باقيـًا معى لأن حظى لم يخدعنى ويسـلبنى كل شىء .

يقول الأستاذ سيد قطب : "ولكن إذ كانت غاية العمل الأدبى هى مجرد التعبير عن تجربة شعورية تعبيرًا موحيًا مثيرًا للانفعال فى نفوس الآخريـن فهـل تـراه يستحق من الإنسانية أن تشغل به نفسها فترات من هذه الحياة المعـدودة الأيـام ؟ والجواب : إن نعم ! فليس بالقليل أن يضيف الفرد الفـانى المحدود الأفـاق إلـى حياته صورًا من الكون والحياة ، كما تبدو فى نفس إنسان ملهم ممتاز هو الأديب :
وكل تجربة شعورية يصورها أديب تصبح ملكـًا لكل قارئ مستعد للانفعال بها ، فإذا انفعل بها فقد أصبحت ملكه ، وأضاف بها إلى رصيده من المشـاعر صـورة جديدة ممتازة . ولحسن حظ الإنسانية التى لا تملك من العـالم المادى المحسـوس إلا حيزًا ضئيلاً محـدودًا ، إن فى استطاعتها أن تملك من العـوالم الشعورية أمادًا وأنماطًا لا عداد لها . وكلما ولد أديب عظيم ولد معه كون عظيم ، لأنـه سـيترك للإنسانية فى أدبه نموذجًا من الكون لم يسبق أن رآه إنسـان " .

والتجارب الشعورية التى يأتى بها الأديب ، ليست فى الشعر وحده ولكنها فى القصة القصيرة والقصة الطويلة والتمثيلية ، والإتيان بمثل للتجارب الشعورية مـن الشعر يرجع إلى أن التجارب الشعورية فى القصة تفقد معناها بالتلخيص " ويضيف الأسـتاذ سـيد قطب بعد أن أورد التجربة الشعورية للشاعر عمـر الخيـام فـى رباعياته والتجربة الشعورية للشاعر توماس هاردى :

"ولعلنا بهذا نكون قد وصلنا إلى القيمة الشعورية الكـبرى للعمـل الأدبـى .
فالأديب الكبير رائد من رواد البشرية يسبق خطاها ، ولكنه ينير لها الطريق ، فلا تنقطع بينه وبينها الطريق ! وهو رسول من رسل الحياة إلى الآخرين الذيـن لـم يمنحوا " حق الاتصال " ! كما منحه ذلك الرسول ، فهو يطلع من خفايـا الحيـاة على ما لا يطلع عليه الآخرون ، وهو يحسها فى صميمها مجردة من الملابسـات

الوقتية ، والحدود الزمنية ، يحسها كما انبثقت أول مرة من نبعها الأصيل ، وكما تدفقت غير منقطعة فى مجراها الواسع الطويل ، ووظيفته أن يفتح المنافذ بيننا وبين هذا النبع بقدر ما نطيق ، وقيمة الأديب الكبرى إنما تقاس بمقدار اتصاله بالنبع من وراء الحواجز والسدود .

وبعض الأدباء يبدو دائم الصلة بالنبع الكبير ، أولئك هم الكبار ، وبعضهم يتصل بهذا النبع فيرشف منه قطرات سريعة ثم يحال بينه وبين النبع فيقف من وراء السدود ، حتى تتاح له قطرات أخرى . أولئك هم الممتازون على تفاوت فى هذا الامتياز .

ومن هنا يبدو شاعر مثل طاغور فى القمة العليا لأنه على اتصال دائم بالنبع الكبير وكل جزئية من جزئيات حياته متصلة به وراء الستار ، والمنافذ بينه وبين الأم الكبيرة منفتحة على الدوام . وهو قادر على أن ينقلنا دائمًا عن طريق الخاطرة الجزئية الوقتية إلى الإحساس الكلى بصلتنا الكبرى بالحياة ، وهذه ميزة لا تتوافر إلا لعدد قليل جدا من الشعراء " . ويقول : والمهم أن يتجاوز بنا الشاعر جزئيات الحياة ولحظاتها المحدودة إلى المحيط الشامل الكبير ، لا عن طريق الفكر الذى يبلور القاعدة من الجزئيات كما يحاول بعض شعرائنا اليوم أن يصنع ، ولكن عن طريق الشعور الذى يقودنا فى مسارب خفية إلى الكل الشامل من وراء الجزئيات .

فإذا لم يستطع الشاعر إلا أن يمنحنا سبحات قليلة فى الكون أو لحظات قوية عميقة مليئة فى نفسه وشعوره ، فلن يحرمه ذلك أن يكون شاعرا ممتازا ، ولكنه ليس شاعرًا كبيرًا بهذا القياس " . وعندنا من شعراء العربية المتنبى والمعرى وابن الرومى من هذا الطراز [٧].

أما عن التجربة التعبيرية وهى الألفاظ والعبارات التى يعبر بها الأديب عن تجربته الشعورية فى العمل الأدبى، فإن لها مواصفات خاصة مادامت تستخدم فى العمل الأدبى . هذه المواصفات هى الإيقاع الموسيقى للكلمات والعبارات ، والصور والظلال التى يشعها اللفظ وتشعها العبارات وغيرها ، وفى الحقيقة فإن

---

(٧) المصدر السابق .

التجربة التعبيرية لا تنفصل عن التجربة الشعورية . والأديب ينحت ألفاظه وعباراته ويعبر عن تجربته الشعورية تعبيرًا يجليها ويؤثر بها على القارئ . واقتناص هذه الألفاظ والعبارات التى يأتى بها الأديب تحتاج لجهد خلاق . ويعبر الشاعر خليل حاوى عن هذا الجهد الخلاق الذى يبذله الشاعر وهو ينحت عباراته وتعبيراته الشعرية فى قصيدته " الناى والريح فى صومعة كيمبردج " .

مقطع الريح :

ولعل تخصب مرة أخرى ، وتعصف فى مدى شفتى العبارة
دربى إلى البدوية السمراء ، واحات العجين البكر والفجوات
أودية الهجير
وزوابع الرمل المرير
تعصى .... وليس يروضها غير الذى يتقلد الجمل الصبور
وبقلبه طفل يكور جنة ...... غير الذى يقتات من ثمر عجيب
نصف من الجنات يسقط فى السلال
يأتى بلا تعب حلال
نصف من العرق الصبيب
الشوق ينبت فى شقوق أظافرى . الشوق فى شفتى يمرج بالذهب
فى وجهها عبق العزيزة حين تصمت عن سؤال
نهضت تلم غرور نهديها وتنفض عن جدائلها حكايات الرمال
تحدو ، تدور كما أشير بأصبعى
ولربما اصطادت بروقا فى دهاليز تمر و ما أعى
وبدون أن أملى الحروف وأدعى

تحدو ، تدور ، تزوغ زوبعة طروب

وأرى الرياح تسيح ، تنبع من يديها ... منبع الريح المعطرة الجنوب

ومنابع الريح الطرية والغضوب

للريح موسمها الغضوب ....

وحدى مع البدوية السمراء، كنت مع العبارة

فى الرمل كنت أخوض عتمته وناره

شرب المرارات الثقال بلا مرارة (٨)

من هذا يتضح أن سمات الأدب الجيد كما ذكرت آنفـًا هو ما يحتوى عليه من تجارب شعورية موحية تؤثر فى القارئ فتجعله ينفعـل بهـا . وهـذه التجـارب الشعورية مصاغـة فى تعبيرات أدبية خاصة بكل أديب يأتى بها ملازمة للتجربـة الشعورية ، كما أن ارتباط الأدب العربى بمفاهيم " الثقـافة العـربية الإسـلامية " لا يعنى التخلى عن الجودة والإبداع والاستفادة من الأدب فى الثقافات الأخرى ومن الإبداع الأدبى العالمى . وارتباط الأدب العربى بمفاهيم " الثقافة العربية " يوجـب التخلى عن بعض المفاهيم الثقافية العلمانية الغربية التى غزت الأدب العربى فـى مجالاته المختلفة مماسوف نشير إليه فى حينه .

---

(٨) د. حسن طبل : " مدخل إلى النقد الأدبى" ، ديوان خليل الحاوى ، دار العودة بيروت .

١- النقـــد الأدبى

النقد الأدبى بالمعنى الاصطلاحى قديم فى الأدب العربى ، وأول ما وصل إلينا من نصوص عن لفظة " نقد " بالمعنى الاصطلاحى هو النص الذى يرويـــه أحـــد علماء القرن الثالث الهجرى حيث يقول : "رآنى البحترى ومعى دفتر شعر فقال: ما هـــذا ؟ فقلت : شعر الشنفرى . فقال : وإلى أين تمضى ؟ . فقلــت : إلـــى أبـــى العباس (ثعلب) أقرؤه عليه . فقال : لقد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عنـــد ابـــن ثوابة فما رأيته ناقدًا للشعر ولامميزًا للألفاظ ، رأيته يستجيد شيئًا وينشـــده ومـــاهو بأفضل الشعر فقلت : أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى ولكنه أعـــرف النـــاس بإعرابه وغريبه ".

أما عن المؤلفـــات النقـــدية المنهجـــية فيعتبر كتاب الأصمعى (ت:٢١٠هـــ) " فحولة الشعراء " أول كتاب فى هـــذا المجال وإن كان كتابًـــا صغـــيرًا لا يتعـــد العشرين صفحة . أما أول مؤلف منهجى فى النقـــد الأدبى فهو كتــــاب " طبقـــات الشعراء " ومؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سلام الجمحـــــى (١٣٩هـــ-٢٣٢هـــ) [٩] كما أن هناك كتبًـــا كثيرة ةفى النقد الأدبى مـــــن أوائلهـــا الجاحظ فيما كتبه فى النقد فى كتابيه " البيان والتبيين" و" الحيوان " وابن قتيبة فـــى "الشعر والشعراء" والمبرد فى كتابه فى " قـــواعد الشعر " وثعلب فى كتـــاب لـــه بعنوان " قواعد الشعر" أيضا ، والذى حققه محمد عبد المنعم خفاجى ونشـــر ســـنة ١٩٤٨م وابن المعتز فى كتابه " البديع " وقدامة بن جعفر فى كتابه " نقـــد الشعر ".

أما مناهج النقد الأدبى أو اتجاهات النقد الأدبى فكثيرة منها : المنهـــج الفنـــى والمنهج النفسى والمنهج الإنســـانى أوالاجتماعى والمنهـــج التـــاريخى والمنهـــج التكاملى وهو منهج يقول على الجمع بين المذاهب ويصفـــه د. بدوى طبانه بأنـــه يقوم على التلفيق بين خصائص المناهج جميعا .

والمنهج الفنى قديم وذو عراقة وأصالة كما أشرنا سابقا لأنه يقوم على قيـــاس الأدب بمقاييسه الذاتية أومقاييسه الطبيعية التى تعتمد على تصـــور المفهوم الأصلى

---

(٩) المصدر الســـابق .

لفن الأدب ، والأسس التى ينهض عليها بنـــاؤه وتأليفـــه ، والتجـــارب الشـــعورية والتعبيرية الحقيقية للأديب أما المصطلح فهو حديث .

ويقول د. طبانة عن المناهج الأخرى " أنها تنتشر فى الأعمال الأدبية ظواهر غير أصيلة أو غير جوهرية لأنها ليست داخلة فى عملية التأليف أو عملية البنـــاء التى لا يعتبر التعبير فنا أدبيا إلابها "(١٠).

والمنهج النفسى : ويعتمد على محاولة تفسير العمـــل الأدبـــى علـــى ضـــوء المؤثرات النفسية التى كان الأديب واقعًـــا تحت تأثيرها وقت التأليف .

والمنهج الاجتماعى : وأصحاب هـــذا المنهـــج يقومـــون باستشـــفاف القيـــم الاجتماعية من العمل الأدبى ويرون مدى قيمتها وصدقها ومدى صدق الأديب فـــى التحدث عن مشكلات الجماهير وإيجاد الحلول لها .

والمنهج التاريخى : ويقوم بوصل العمل الأدبى بالعصر الذى قيل فيه .

---

(١٠) د. بدوى طبانة : " نظرات فى أصول الأدب ونقده " .

٢ ـ الشعر العربى

الشعر هو ديوان العرب ، كانت تعقد له المجالس ، ويتناقله الرواه فى شتى الأقطار . والشعر العربىعلى مر التاريخ ، يعتبرمن أهم الفنون وكان وسيلة من وسائل الترفيه والثقافة والإعلام والدفاع عن الوطن والرد على الأعداء . وكان القادة والأمراء فى الحروب يصطحبون الشعراء معهم إلى ميدان المعركة لحث الجنود على الحرب ورفع الروح المعنوية والرد على الأعداء . ويقال إن أحد الأمراء فى الأندلس اصطحب معه فى إحدى المعارك مائة شاعر . وكانت مجالس الخلفاء والأمراء لا تخلو من الشعراء . وكان الشعر فنًا سماعيًا فى أغلب الأحيان قبل عصر التدوين فكان الشاعر يلقى القصيدة شفاهة من الذاكرة على السامعين . وحتى بعد عصر التدوين فقد ظل الشعر يحظى بقابلية عظيمة عند القائه بين سامعيه حتى فى عصرنا الراهن . فترديد الشعر شفاهة اكثر وقعا فى النفس من قراءته وهناك بعض الشعراء الذين كانوا يتميزون بموهبة الغناء والتلحين فكانوا يرددون أغانيهم شعرا من تأليفهم بمصاحبة الألات الموسيقية بعد تلحينها مثل زرياب فى عصر الخليفة هارون الرشيد وغيره من الشعراء والموسيقيين .

لكل هذه الأسباب السابقة اهتم العرب بموسيقى الشعر اهتماما يفوق الوصف . واهتمام العرب بموسيقى الشعر العربى من أوزان وقافية وتصريع واختيار العبارات والألفاظ الشعرية الموسيقية ، كان اهتماما لا يمكن أن يتخلى عنه العربى فى تذوقه للشعر ، وأحيانًا كان هذا الاهتمام الزائد بموسيقى الشعر العربى يغطى على مايجب أن تحتوى عليه القصيدة الجيدة من معانى وهو ما يطلقون عليه الآن تجارب شعورية وقد حفل الشعر العربىعلى مر العصور بقصائد عديدة ممتازة حافلة بتجارب شعورية . جيدة ، صيغت بعبارات شعرية رائعة . يقول ابن الرومى فى قصيدة " ريح الصبا " :

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه

موسوسا وتنادى الطير إعلانا

ورق تغنى على خضر مهدلة

تسمو بها وتشــم الأرض أحيانا

تخال طائرها نشوان من طرب

والغصن من هــزه عطفيه نشوانا

ويقول فى " الأســـفار " :

أذاقتنى الأسفــار مــاكره الغـــنى إلى وأغــرانى برفــض المطـالب

فأصبحــت فى الإثراء أزهــد زاهــد وإن كنت فى الإثــراء أرغب راغب

حريصا جبــانا أشــتهى ثـم أنتهــى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقــب

ومن راح ذا حرص وجبن فــإنـــه فقــير أتــاه الفقــر من كل جانــب

تنــــازعنى رغــب ورهب كلاهما قوى وأعــيانى اطــلاع المغــايب

فقدمت رجــلا رغــبة فى رغيبــة وأخرت رجــلا رهــبة للمعــاطب

أخاف على نفسى وأرجــو مفــازها وأســتار غــيب الله دون العــواقب

ألامن يــرينى غايتى قبــل مذهــبى ومن أين والغــايات بعد المذاهــب ؟

ومنها قــول الشـــاعر الأعمى بشار بن برد معبرًا عن شدة شعوره بعماه :

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشـــقة

والأذن تعشق قبل العين أحيـــانا

قــالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم

الأذن كالعــين توفى القــلب ما كانا

وغير ذلك من القصائد العديدة التى تحفل بتجارب شعورية وتعبيرية ممتازة .

والشعر العربى يتميز بخصيصتين يختص بهما :

الأولى : تعتبر صفة للشعر بوصفه فنا أدبيًا مثلــه فــى ذلــك مثــل القصــة والمسرحيـــة وغيرها وتلك هى ما يحتوى عليه الشـــعر مــن تجــارب شــعورية وتجارب تعبيرية وهى صفة مشتركة يشترك فيها الشعر مع فنون الأدب الأخرى .

الثانية : خاصة بالشعر وحدة تميزه عن سائر فنون الأدب الأخرى وهى موسيقى الشعر (وليس موسقى اللفظ والتجارب التعبيرية الموجودة فى الأدب عموما) وتتمثل فى أوزان الشعر والقافية والتصريع بالإضافة إلى أن موسيقى الألفاظ والتعبيرات فى الشعر تتميز عن مثيلتها فى القصة والرواية بالوضوح والشفافية والموسيقية الزائدة وتجنب غريب اللفظ وسوقيته وابتذاله ونتيجة لما سبق فإن ما يطلق عليه الآن الشعر المرسل أو غيره الذى يفقد هذه المميزات التى ذكرناها لا يعتبر شعرًا .

كما ان تطوير الشعر العربى يكون بهذه الأوصاف التى ذكرناها فإلغاء بحور الشعر هو سلب أهم خصيصة تميز الشعر عن فنون الأدب الأخرى . فإلغاء موسيقى الشعر لا تغنى عنها موسيقى العبارة واللفظ التى يشترك فيها الشعر مع فنون الأدب الأخرى .

والشعر فى عصر ما قبل الإسلام كان يهتم بالغزل والنسيب ووصف المحبوبة والوقوف بديارها والإشارة إلى الدمن التى تركتها مثل قول زهير بن أبى سلمى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم ؟

كما كان للبئية الصحراوية والإبل والخيول أثرها فى الشعر، وقد جاءت أغراض الشعر العربيى فى ذلك العصر ، والتى تتمثل فى الغزل والمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والوصف والحكمة والمثل ، لتعبر عن حياة العرب فى عصر ما قبل الإسلام وعن البيئة فى ذلك العصر وعن المعتقدات والعادات الجاهلية التى جاء الإسلام ليغير بعضها ويهذب من بعضها الآخر مثل قول عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا

وأحيانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

وفى عصر صدر الإسلام ، كان للشعر دوره فى الدعوة الجديدة فى مواجهة شعراء المشركين ، وفى هذا العصر تخلى الشعر عن كل المعتقدات والعادات الجاهلية وتخلى عن بعض أغراضه السابقة مثل الفحش فى الهجاء والفحش فى الغزل ووصف الأخيلة والمعانى الجنسية الصريحة ، واهتمام الشعراء بأغراض جديدة للشعر مثل خدمة الدين الإسلامى ونشر العقيدة الإسلامية والكشف عن محاسنها وغاياتها فى هداية الإنسان ، والدفاع عن المسلمين والتحريض على قتال المشركين ، والترغيب فى نيل الشهادة فى سبيل الله وهجاء المشركين والحط من قدر معتقداتهم وآلهتهم ، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح صحابته ، مدحا خالصًا لوجه الله لا يراد منه كسباً ماديًا ولا جاه دنيوى ، أما التجارب الشعورية (الأخيلة والمعانى) فى صدر الإسلام فقد تميزت بترتيب الأفكار ، وتقريب المعانى للذهن ، والتخلى عن التجارب الشعورية التى تعبر عن مواضيع لا يقرها الإسلام مثل التجارب التى تتسم بالفحش فى شعر امرئ القيس وغيره ، أما التجارب التعبيرية (الألفاظ والأساليب) فقد اتسمت بالرقة والسهولة بعد أن هذب الإسلام النفوس وألان القلوب ورقق الطباع مثل قول أبى دعبل الجمحى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن البيوت معادن فنجاره	ذهب وكل بيوته ضخم
عقم النساء فما يلدن شبيهه	إن النساء بمثله عقم
متهلل بنعم ، بلا متباعد	سيان منه الوفر والعدم
نزر الكلام من الحياء تخاله	ضمنا وليس بجسمه سقم

وفى عصر الخلفاء الراشدين ، فإن سيدنا أبا بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى كانوا يأنفون أن يمدحهم الشعراء وذلك ورعًا وزهدًا وتواضعًا ، وكل قصائد المديح تقريبًا التى جاءت لمدح الخلفاء الراشدين ، كانت بعد رحيلهم رضوان الله عليهم من دار الفناء إلى دار البقاء .

وفى العصر الأموى ، فقد كان هناك عاملان مهمان أثرا على الشعر والشعراء فى هذا العصر :

العامل الأول : آثار الحروب بين سيدنا على ومعاوية بن أبى سفيان . والعامل الثانى هو اتساع الفتوحات الإسلامية وكثرة الأموال وبداية حياة الدعة والترف

والغنى التى وصلت لقمتها فى العصر العباسى . وقد أدى النزاع بين سيدنا على ابن أبى طالب ومعاوية بن ابى سفيان إلى دخول السياسة فى مجالات الشعر وأغراضه وإتسعت هذه الظاهرة فى العصر الأموى ، فظهر الشعراء التجار الذين يتكسبون بشعرهم ، وأصبح الشعر تجارة رابحة ، وازدحم الشعراء على أبواب الخلفاء يطلبون العطايا والمنح .

أما العامل الثانى : هو الترف والغنى نتيجة لاتساع الفتوحات وازدياد الثروة ، فقد أدى إلى ظهور شعراء الغزل الرقيق مثل الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، كما ازدادت ظاهرة الغزل والتشبيب مثل الشاعر جميل بن معمر وحبيبته بثينة وابن أبى عتيق وغيرهما .

ونتيجة لهذين العاملين فقد اكتسبت قصائد المديح أهمية كبيرة ورونقًا وبهاءً فى معانيها وأساليبها . وبالمقابل فقد ظهر نوع من التهاجى الأدبى الشخصى بين الشعراء تميز بالإقذاع والإسفاف كما هو مشهور فى المهاجاة الأدبية بين الفرزدق وجرير والأخطل والذى شاعت قصائدهم فى ذلك العصر بين الناس ، وانقسم الناس إلى فريقين ، فريق يناصر الفرزدق والآخر يناصر جريرًا .

وفى العصر العباسى بلغت الإمبراطورية الإسلامية أوج عظمتها ، وانتقلت عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد وعلا شأن الشعر علوًا كبيرًا وأصبح الخلفاء يدعون الشعراء إلى مجالسهم ، حبًا فى الشعر وليس لأغراض سياسية ، مثلما كان يفعل هارون الرشيد الذى كان لا يخلو مجلس من مجالسه من شاعر أوأكثر لولعه الشديد بالشعر ، فكان لذلك أثره على الشعر العربى فى ذلك العصر .

فظهر اتجاه واضح إلى الاهتمام بالتجارب الشعورية وتوليد المعانى الجديدة عند الشاعر مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى ، وعند أبى نواس وبشار بن برد ، وغيرهم فى هذا الميدان أبو تمام والبحترى وعبد الله بن المعتز وابن الرومى .

يقول مسلم بن الوليد (صريع الغوانى) :

إذا التقينا منعنا النوم أعيننا ... ولا نلائم يوما حين نفترق

أقر بالذنب منى لست أعرفه ... كيما أقول كما قالت فنتفق

وظهر اتجاه للتجـديد فى موسـيقى الشعر العربى ، مثل ما قال بـه أبـو العتاهـية بنظم الشعر على أوزان لم يسبقه أحد إليها ، وظهر فـى هـذا العصـر شعراء كبار مثل أبى الطيب المتنبى الذى عـبر فـى شـعره أروع تعبـير عـن المعارك الحربية التى جرت بين سـيف الدولة والروم ، وأبى العلاء المعرى الذى اتسم شعره بطابع فلسفى عميق . وفى العصر العبـاسى عنـدما بـدأت بعـض الأقـاليم تنفصل عن الإمبراطورية الإسلامية ، قام الأمراء بإستقطاب الشـعراء إلى أقاليمهم وإكتسب الشعر بعض الصفات الجديدة التى تخص كل إقليـم كمـا أن مهنة الاتجار بالشعر بدأت تروج رواجًا عظيمًا .

والشعر مثله مثل جميع أنواع الأدب والفنون والمعارف والعلوم كـان ينتقـل عبر الأقاليم الإسلامية المختلفة حتى بعد تفتت العالم الإسلامى إلى دول عديدة فكان كل جديد فى فن الشعر عندما يظهر فى أى إقليم من الأقاليم الإسلامية ، سرعان ما ينتشـر فى بقية الأقاليم الأخرى ، فوحدة الثقافة العربية فى العالم الإسـلامى لـم تنفصم أو تتغير طوال عصور الإسلام المختلفـة . فعندمـا ظهـرت الموشـحات الأندلسية على يد مخترعها " مقدم بن معانى القبرى " الذى ينسب إلى مدينة قـبرة فى الأندلس والذى توفى فى القرن الثالث الهجرى جاء بعده ابن عبد ربه صـاحب (العقد الفريد) ونظم موشحاته على نفس الطريقة التى اخترعها مقدم بـن معـانى القبرى ، وبعدها إنتشرت فى بقية العالم الإسلامى وإستخدمت فى شتى الأغراض . وكان كل شعر جـيد يشـرق ويغـرب فى العالم الإسلامى حتى بعد أن تعـددت دوله ، ومن ذلك موشح إبراهيم بن سهل الإسرائيلى الإشبيلى الأندلسـى المتوفـى سنة٦٤٩هـ والتى يقول فيها :

هـل درى ظبى الحمى أن قـد حمى

قـلـب صب حـله عن مكنس

فهـو فى حـر وخفـق مثـلـمـا

لعـبت ريـح الصبـا بالقـبـس

والتى عارضها الكثيرون فى العـالم الإسلامى على مـر التـاريخ وفـى العصر الحديث عارضها شوقى بموشح عن عبد الرحمن الداخل (صقر قريـش) ، مطلعه :

من لنضـــــو يتنـــزى ألمـــا ؟ بــــرح الشـــوق بـه فى الغلــس

حن للبـــان ونـاجــى العــلـمــا أين شــرق الأرض من أندلـــس ؟

وكان اهتمام القدماء بموسيقى الشعر العربى اهتمامًا كبيرًا روت الكتب الكثير منه مثل قول عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى عند ما أنكر على الفرزدق قوله :

مســتقبلين شــمال الشـــام تضربنا

بحـــاصب من نديف القطن منثور

على عمـائمنا تلـقــى وأرحــلنــا

على زواحــف تزجى مخها رير[١١]

برفع كلمة (رير) . وقال ابن أبى إسحاق للفرزدق : ألا قلت : على زواحــف نزجيها محاســير ؟ ويقال إن الفرزدق عندما وجه إليه هذا النقد غضب منه وكان كثير النقد له وهجاه بالبيت القائل :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موالــيا

فقال له ابن أبى إسحاق : وقد لحنت أيضًا فى قولك : مولى مواليـــا إذ كــان ينبغى ان تقول : مولى موال .

ويقال إن الفرزدق هو الذى قام بتصحيحها إلى "على زواحف ترجيها محاسير" وليس ابن إسحاق أثناء نقده له . ويرجع اهتمام القــدماء بموسيقى الشعر العربــى إلى أن العرب كانوا يهتمون برواية الشعر شفاهة وسماعا وليس قراءة وتدوينا حتى بعد عصر التدوين كما ذكرنا ســابقا ، بالإضافة إلى أن الشعر العربى كان يـــردد بعد تلحينه على الآلات الموسيقية ويتغنى بـــه وأحيانـــا يتغنــى بــه بــدون آلات موســيقية . وهــناك رأى يرجع نشـــاة الشعر العربى إلى الحداء الذى كان يردد فى ترحال العرب وتنقلهم عبر الصحراء .

---

(١١) الحاصب : الريح الشديدة . الرير : المخ الرقيق .

وتميز الشعر العربى بموسيقاه والتى تختلف عن موسيقى الشعر فـــى الآداب الأخرى واللغات الأخرى واهتمام العرب والشعراء العرب بهـذه الموسـيقى هـو خصيصة للشعر العربى يتميز بها عن الشعر فى بقية لغات وثقافات العالم .

وأما محاولة بعض الشعراء فى العصر الحديث بتطوير الشعر العربى وذلـك عن طريق التخـلى عن الموسيقى الشـعرية والاعتمـاد فقـط علـى التجـارب الشعورية، وبموسيقى الألفاظ والتجارب التعبيرية والتى يطلـق عليـه الشـعر المرسل وأحيانا الشعر الحديث ، فتجارب مآلها للفشل . لأن الشعر العربى إذا فقـد خصيصته الموسـيقية فلن يبق له إلا خصيصة التجـارب الشـعورية وموسـيقى الألفاظ والتجارب التعبيرية ، وهى خصيصة للأدب عموما ولذلك تخرج مثل هـذه القصائد الشعرية المرسلة من مسمى الشعر .

٣ ـ فن القص الأدبى

عرف العرب فن القصة منذ عصر ما قبل الإسلام . وكانت القصص تـــروى شفاها ؛ كما عرفوا القصص الخرافية وقصص الجان . ويروى أن كلمة " خرافية " أو "خرافى" مثل قولهم " أحاديث خـــرافــيـــة " أو "حديث خرافة " ، ترجع إلـــى قصة عن رجلٍ من قبيلة بنى عدرة العربية يدعى خرافة زعم أن الجان . اختطفـــه وظل عنده شهورًا عديدة ، فعاد إلى قومه يروى الأحاديث عن الجـــان ، والعـــرب أطلقوا على هـــذه الأحـــاديث " أحاديث خرافة " ، وأصبح هذا يطلق علـــى كـــل حديث غريب لا يصدقه العقل [١٢] . كما لازالت تتردد فى مجتمعاتنا كثـــير مـــن الألفاظ التى تشير إلى قصص الجان ، والغول وغيرها مثل كلمـــة " الســـلعوة " أو كلمة "السعلاة " ، والعنقاء وكلمة "سلعوة " مازالت شائعة الاستعمال بين الناس فـــى مصر . يقول الشاعر أبو العـــلاء المعرى فى إحدى قصائده متحدثـًا عن الإبـــل عندما أصابه البرق فى أحد الأيام الممطرة فى سفرياته :

إذا لاح إيماض سترت وجوهها

كأنى عمـــرو والمطى ســـعالى

وهو فى هذا البيت يشير إلى عمرو بن يربوع وقصته مع الغول ، وهى قصة خرافية تحكى أن عمرو بن يربوع تزوج الغول وعاش معها وأنجب منهـــا أولادًا ولكنها اشترطت عليه أن يستر وجهها عندما يلوح البرق وإلا طارت إلـــى قومهـــا وتركت له الأولاد ، لأنها كانت لا تتحمل رؤية البرق ، وفى ليـــلة غفـــل فيهـــا عمرو ، عن ستر وجه زوجته عندما لاح البرق فتركته وطارت إلى قومها وهـــى تقول :

" أمســـك بنيك عمـــرو إنى آبق

برق على أرض السعالى آلـــق "

هذا وغيره من القصص الخرافية وقصص الجن والقصص الخيالية التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى قبل الإسلام .

---

(١٢) عباس خضر : " القصة القصيرة فى مصر نشأتها حتى ١٩٣٠ م " .

وفى العصور الإسلامية تعددت فنون القص وتنوعت ، فكانت هناك القصص المكتوبة والمنشورة فى كتب الأدباء والقصص المروية ، والمحكية فى مجالس القص الأدبى ، والقصص التى كان يرويها الرواة على الآلات الموسيقية .

وفى مجال القصص المكتوبة والمنشورة فى كتب الأدباء ، اشتهر وذاع منها " المقامات الأدبية " التى كان من روادها بديع الزمان الهمذان ، والحريرى ومن جاء بعدهما ، وكذلك قصص ألف ليلة وليلة ، وقصة "حى بن يقظان " لابن طفيل ، وقصص الحيوان الرمزية فى " كليلة ودمنة " لعبد الله بن المقفع ، وأحاديث ابن دريد وهى قصص وأحاديث فمنها كتابة الضحم " الأمالى " لأبى بكر بن رديد والتى لا زالت أغلب أجزائه مفقودة ولم يعثر إلا على بعض أجزاء هذا الكتاب فى العقود الأخيرة . وكتاب " الأمالى " لأبى على القالى وفيه كثير من أمالى ابن دريد والتى كتبها فى القرن الرابع الهجرى .

كما سبق الجاحظ ابن دريد بقرن ونصف .

وكذلك الرسائل الأدبية التى اتخذت مسارات قصصية مثل "التوابع والزوابع " لابن شهيد الأندلسى ، " ورسالة الغفران " لأبى العلاء المعرى ، وهاتان الرسالتان كان أول ظهور لهما فى القرن الخامس الهجرى . وتشتملان على نوع من التمثيل القصصى ، " ورسالة أبى إسحاق الصابى " التى اشتملت على نوع من الوصف القصصى ومن الرسائل التى اتخذت مسار القالب القصص الحوارى" رسالة الصاهل والشاحج" من رسائل أبى العلاء المعرى . وتعتبر المقامات التى كان بداية ظهورها فى العصر العباسى من الفنون العربية الأصيلة. كان أول كتاب وضع فى فن المقامة هو كتاب (أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى) " المقامات لبديع الزمان الهمذانى " ثم تلاه كتاب (المقامات الأدبية لأبى محمد القاسم بن على الحريرى البصرى) يقول الحريرى فى مقدمة كتابه "المقامات الأدبية " :

" وبعد ، فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحة ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ،

رحمه الله تعالى وعزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نشأتها وإلى عيسى بن هشام روايتها . وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف " (١٣) .

ويقـول :

" وأنشات على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، وردية ناضبة ، وهموم ناصبة ، خمسين مقامة . تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق القول وجزله ، وعزر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ماوشحتها بها من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحيرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى ، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصرى . وما قصدت بالإحماض(١٤) فيه إلا تنشيط قارئيه ، وتكثير مواد طالبيه . ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين ، أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية ، وآخرين توأمين ضمنتها خواتم المقامة الكرجية . وما عدا ذلك فخاطرى أبو عزره (١٥) ومقتضب حلوه ومره . هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات ، وصاحب آيات".

والمقامات فن عربى أصيل يتميز بسمات وملامح عربية تتمثل فيها مفاهيم الثقافة العربية فى الدين ، والأخلاق ، والعادات وغيرها من مفاهيم العناصر المكونة لنسيج الثقافة العربية .

وكانت الثقافة العامة فى ذلك الوقت تستطيب وتستملح هذا التنوع والتعدد الفنى فى المقامة ، ففى المقامة الواحدة قد تجد قصة قصيرة ، تتخللها أبيات من الشعر ، أو تجد مقالة وصفية أو خطبة وعظية مؤثرة أو نقد لبعض العادات المستهجنة . وقد نجد فى بعض المقامات قصصاً فنية أو دراما حوارية أو مناظرة موضوعية، وقد تجد فى بعض المقامات اللطائف الأدبية والأحاجى البلاغية والنحوية، والأمثال

---

(١٣) كتاب " المقامات الأدبية " تأليف : أبى القاسم بن على الحريرى البصرى ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الثالثة .

(١٤) الانتقال من أسلوب إلى آخر ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م .

(١٥) أول قائل لهذا الكلام .

السائرة والقصص الفكاهية والدعابة والسخرية والطرائف والنوادر والشوارد والمرح والسرور ، دون ابتذال أو افتعال وكذلك القصائد الشعرية الجميلة . فالمقامات تتمثل فيها القصة والرواية أو الشعر والمقالة الأدبية أو الرسالة الأدبية .

وكانت أغلب المقامات عند بديع الزمان الهمذانى أو الحريرى أو غيرهما تحتوى على كثير من القصص القصيرة ، وكان السجع فى تلك العصور من صيغ التعبير المستحبة ، ولذلك كانت المقامات وكثير من الأعمال الأدبية الأخرى تجنح للسجع . والذى يقرأ المقامات الأدبية وخاصة عند الهمذانى ، والحريرى يجد ذلك الثراء اللغوى العظيم الذى ينبهنا أننا لا نستعمل إلا قدرًا ضئيلاً جدًا من لغتنا العربية الثرية فى أعمالنا الأدبية المعاصرة . وللمقامات آثار كبيرة على المبدعين من الأدباء العرب منذ نشأتها فى العصر العباسى فى القرن الرابع الهجرى وحتى العصر الحديث . وقد تأثر بها كثير من الأدباء العرب . ومن الذين تأثرو بها فى العصر الحديث رفاعة الطهطاوى " وقائع الأفلاك فى حوادث تليماك " . وعبد الله فكرى فى " المملكة الباطنية " ، ومحمد عثمان جلال فى " الأمانى والمنة فى حديث قبول وورد الجنة "، وناصيف اليازجى فى " مجمع البحرين " ، وأحمد فارس الشدياق فى " الساق على الساق " ، وعلى مبارك فى " علم الدين "، ومحمد المويلحى فى "حديث عيسى بن هشام " ، وعائشة التيمورية فى " نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال " وأحمد شوقى فى " لادياس " و" شيطان بنتاعور "، وحافظ إبراهيم فى "ليالى سطيح" ، ومحمد تيمور فى " ماتراه العيون " ، ومحمد لطفى جمعة فى "وادى الهموم " ، وغيرها من الأعمال سواء لهؤلاء الأدباء أو لغيرهم .

وكان للمقامات أثرها الكبير فى إثراء اللغة وحفظ مفرداتها وإحيائها والتصدى لتيار العجمة والعامية . ويقول د.عبد الله حسين [١٦] إن للمقامات العربية آثار كبيرة فى الآداب الأجنبية مثل الفارسية ، والعبرية ، والسريانية ، والإسبانية والفرنسية والإنجليزية ، ترجمة وإنشاء واحتذاء ، على يد " القاضى حميد الدين البلخى " فى الفارسية .

---

(١٦) د. عبد الله حسين : الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية .

و" يهود ابن شلومو الحـــريزى " فى العبرية . و" ســـريانى نصيبنـــى " فـــى السريانية . وقام كثير من الأدبـــاء الأجـــانب أمثـــال "وســـتنجاس " و " برستون " و " تشنيرى " بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية . كما أثرت المقامات العربية تـــأثيرًا واسعًا متنوع الدلالة فى قصص " الشطار " أو الصعاليك " فى الأدب الإســـبانى ، وانتقل التأثير من الأدب الإسبانى إلى الآداب الأوربية ، كما كان لها تأثير كبير فى مخاطرات البطولة و الفروسية التى انتشرت فى الآداب الأوربية متمثلة فـــى تلـــك القصص التى يقوم فيها البطل بالمغامرة تلو المغـــامرة دون أن يصـــاب بـــأذى ، وينتصر دائمًا فى مغامراته على نحو مانشـــاهدة فى المقامـــة " البشـــرية " التـــى يحكيها بديع الزمان الهمذانى .

" المقـــامة البشـــرية " لبديع الزمان الهمذانى

حدثنا عيسى بن هـــشـــام قال :

كان بشـــر عوانة العيدى صعلوكا ، فأغار على ركب فيهم امـــرأة جميلـــة ، فتزوج بها .. وقال : ما رأيت كاليوم . فقالت :

أعجب بشـــرا حور فى عينى وساعد أبيض كاللـــــــجـــين

ودونه مســـرح طرف العيـــن حمصـــانة ترفـــل فى حجلين

ولو ضـــم بشـــر بينهـــا وبينى

ولـــو يقـــيـــس زينهـــا بزينى

لأســـفر الصبح لذى عـــينيـــن

قال بشـــر : ويحك من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال أهـــى مـــن الحسن بحيث وصفت ؟ قالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

ويحك ياذات الثنايا البيـــــض

ما خلتنى منك بمستعـــــيض

فالآن إذ لوحت بالتعـــــريض

خلوت جوا فاصفرى وبيضى

لأضـــم جــفنـــانى على تغـــميض

مالم أشـــل عرضى من الحضيض

فقالت :

كم خاطب فى أمــرهـــا ألحـــا

وهـــى إليــــك ابنـــة عـــم لحـــا

ثم أرسل إلى عمه يخطب ابنته ، ومنعه العم أمنيته ، فـــآلى ألا يرعى علــــى أحد منهم إن لم يزوجه ابنته ... ثم كثرت مضراته فيهم .. واتصلت معراته إليهم ، فاجتمع رجال الحى إلى عمه ، وقـــالوا : كف عنا مجنونك ، فقـــال : لاتلبســـونى عارًا ، وأمهلونى حتى أهلكه ببعض الحيل ، فقالوا : أنت وذاك ، ثم قال له عمـــه: إنى آليت ألا أزوج ابنتى هـــذه إلا ممن يســـوق إليها ألف ناقة مهرًا ولاأرضاهـــا إلا من نوق خـــزاعة ، وغرض العم كان أن يســـلك بشر الطريـــق بينـــه وبيـــن خزاعة ، فيفترسه الأسد ، لأن العرب كانت قد تحامت عن ذلك الطريق ، وكان فيه أسد يسمى داذا ، وحية تدعى شجاعا ، يقول فيها قائلهم :

أفتك من داذ ومن شجاع

إن يكُ داذ ســيد الســـباع

فإنها سيدة الأفاعى

ثم إن بشر سلك ذلك الطريق، فما نصفه حتى لقى الأسد ، وقمـــص مهـــره ، فنزل وعقره ، ثم اخترط سيفه إلى الأسد ، واعترضه وقطعه ثم كتب بـــدم الأســـد على قميصه إلى ابنة عمه :

أفاطم لوشهدت ببطن خـــبت

وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

إذا لـــرأيت ليثـــا زار ليثـــا

هـــزبرا أغلبا لاقى هـــزبرا

تبهنس إذ تقاعس عنه مهرى

محاذرة ، فقلت :عقرت مهرا

أنل قدمى ظهـــر الأرض إنى

رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وقلـــت له وقد أبــدى نصالا

محـــددة ووجـــهـــا مكفهـــرا

يكفكف غــيلة إحـــدى يديـــه

ويبســـط للوثوب على أخرى

يدل بمخـــلـــف وبحـــد ناب

وباللحظات تحســبهن جمرا

وفى يمناى ماضى الحد أبقى

بمضربة قراع الموت أثـــرا

ألـــم يبلغـــك مافعلت ظـــباه

بكاظمة غداة لـــقيت عمـــرا

وقلـــب مثل قلبك ليس يخشى

مصاولة فكيف يخاف ذعرا؟

وأنت تروح للأشـــبال قوتـــا

وأطلب لابنـــة الأعمام مهرا

ففـــيم تســـوم مثلى أن يولى

ويجعل فى يديك النفس قسرا؟

نصحتك فالتمس ياليث غيرى

طعـــاما إن لحمى كان مـــرا

فلما ظـــن أن الغش نصحى

وخـــالفنى كأنى قلت هجـــرا

مشى ومشيت من أسدين راما

مراما كان إذ طلباه وعرا

هززت له الحسام فخلت أنى

سللت به لدى الظلماء فجرا

وجدت له بجائشة أرته

بأن كذبته ماضنته غدرا

وأطلقت المهند من يمينى

فقد له من الأضلاع عشرا

فخر مجندلا بدم كأنى

هدمت به بناء مشمخرا

وقلت له : يعز على أنى

قتلت مناسبى جلدا وفحرا

ولكن رمت شيئا لم يرمه

سواك ، فلم أطق ياليث صبرا

تحاول أن تعلمنى فرارا

لعمر أبيك قد حاولت نكرا

فلا تجزع فقد لاقيت حرا

يحاذر أن يعاب فمت حرا

فإن تك قد قتلت فليس عارا

فقد لاقيت ذا طرفين حرا

فلما بلغت الأبيات عمه ، ندم على مامنعه تزويجها ، وخشى أن تغتاله الحية فقام فى أثره ، وبلغه وقد ملكته سورة الحية ، فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية فجعل يده فى فم الحية ، وحكم سيفه فيها فقال :

بشـــر إلى المجـــد بعـــيد همه لمـــا رآه بالعـــراء عمــــــــه

قد تكلفـــه نفســـه وأمــــه جاشـــت به جائشـــة تهمــه

قـــام إلى ابن للفـــلا يؤمــه فغـــاب فـــيـــه يـــده وكمــــه

فلما قتل الحية قال عمه : إنى عرضتك طمعًا فى أمر قد ثنى الله عنانى عنه ، فارجع لأزوجك ابنتى، فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخرا ، حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه ، مدججا فى سلاحه ، فقال بشر : ياعم إنى أسمع حس حفيـــد ، وخرج فإذا بغلام على قيد ، فقال : ثكلتك أمك يابشر، أإن قتلت دودة وبهيمة تمـــلأ ماضغيك فخرا ؟ أنت فى أمان إن سلمت عمك، فقال بشر : من أنت لاأم لك قـــال: اليوم الأسود ، والموت الأحمر ، فقال بشـــر : ثكلتك من سلحتك ، فقال : يابشـــر ومن سلحتك .

وكر كل واحـــد منهما على صاحبه فلم يتمكن بشر منــــه ، وأمكـــن الغـــلام عشرين طعنة فى كلية بشر ، كلما مسه شبا السنان ، حماه عن بدنه إبقاء عليه . ثم قال : يا بشر كيف ترى ؟ أليس لو أردت لأطعمتك أنياب الرمح ؟ ثم ألقى رمحه، واستل سيفه ، فضرب بشرا عشرين ضربة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشر مـــن واحدة ، ثم قال : يابشر سلم عمك واذهب فى أمان .

قال : نعم ، ولكن بشريطة أن تقول من أنت ، فقال : أنا ابنك فقال : ياسبحان الله ، ما قارنت عقيلة قط فأنى لى هذه المنحة ؟ فقال : أنا ابن المرأة التـــى دلتـــك على ابنة عمك . فقال بشر : تلك العصا من هذه العصية هل تلد الحيـــة إلا الحيـــة وحلف لاركب حصانا ولاتزوج حصانا ، ثم زوج ابنة عمه من ابنه .

وهذه القصه يتمثل فيها روح الفروسية العربية التى لا تهزم ، فهزيمة البطل جاءت على يد ابنه الذى يمثل امتداداً له . وأعتقد أن هذا هو المغزى الذى قصـــده الهمذانى فى هذه المقامة ، فبشر يلاقى الأسد ويهزمه ، والحية ويقضـــى عليهـــا ، ولكنه أخـــيرًا ينـــازل أســـدًا ، بشـــريًا لايقدر عليه ، ولـــم يكن هـــذا الأســـد البشرى إلا بشـــر نفســـه فى شخص ولده وتنتهى فيها الصفات والأخلاق العربيـــة فى ثوب قصصى .

وإذا أخـذنـا إحـدى مقـامات الحريرى ولتكـن أول مقامـة فـى كتابـه والمسماة "الصنعانية" ، نسبة إلى مدينة صنعاء باليمن وذكرنا ملخصا لهـا فنجـده يقص جـانبا من اغترابه على لسـان " الحارث بن همام " عندمـا دخـل مدينـة صنعاء " خاوى الوفـاص ، بادى الإنفـاض ، لاأملك بلغـة [١٧]، ولا أجـد فـى جرابى مضغة " ، فقـادته قـدماه إلى مكان رحيب ، محتو على زحام ونحيـب ، ووجد شـيخا يتحلق الناس حـوله ، وهو يعظهم عظات عظيمـة مؤثـرة تبكـى العيون وتثـير المهج والنفوس ، وعندما أنهى ذلك الشـيخ موعظتـه "اعتضـد حكوته ، وتأبط هراوته "[١٨] فلما رأته الجماعة يهم بالانصراف وخاصة أن عليـه ملابس السفر والترحال ، سارعوا فى الإنعام عليه بالمال والطعام الجيـد ، فـأخذ يودع الجمع حتى لايتبعونه ، وتسـلل من بينهم ، ولكن الحارث بن همـام يتبعـه دون أن يراه فوجـده يتسلل إلى مغارة خارج صنعاء ، فأخذ الحارث بـن همـام يراقبة عن كثب داخل المغارة ، فوجده خـلع نعليه ، وغسل قدمه ، ووجد غلامًـا خادمًا أعد له أطايب الطعام من بينها جدى حنيذ [١٩] وقنينة نبيذ وعندئذ هجم عليه وقال : ياهـذا " أيكون ذاك خبرك وهذا مخبرك[٢٠]" فزفر زفرة القيظ [٢١]، وكـاد يتميز من الغيظ ولم يزل يحملق إلى حتى خفت أن يسطو على فلمـا خفـت حـدة غضبه أخذ ينشد أبياتا من الشعر تبين هدفه وتعليل الغـلام وتعليل لما فعلـه فـى الموعظة ومايفعله الآن وأن وعظه أحبولة يجتذب بها ما يصطاد من المال والطعام بالمكر والحيلة . فقال الشيخ : " إذن فكل ، وإن شئت فقم وقل " ، فالتفت الحـارث بن همام إلى الغلام وسأله : "عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى ، لتخـبرنى مـن ذا " ، فقال هذا أبو زيد السروجى[٢٢]، " سراج الغرباء ، وتـاج الأدبـاء " وختـم الحـارث بن هـمام القصة بقوله " فانصرفت من حيث أتيت ، ورضيت العجـب مما رأيت " .

---

(١٧) أنفض الرجل : إذا فنى زاده ومال . بلغة : مايتبلغ به من العيش وهو اليسير من الزاد .
(١٨) حكوته : قربة صغيرة واعتضدها : جعلها فى عضده .
(١٩) الجدى المشوى على حجارة محماة وقيل هو السمين .
(٢٠) المخبر يستعمل للباطن ، كما أن الخبر يستعمل للظاهر .
(٢١) وهو شدة الحر .
(٢٢) أبو زيـد السروجى شخصية ابتدعها الحـريرى ليعبر من خلالها عن السـلوكيات التـى يريد أن ينقدها والتى يجعلها فى النهاية معروفة لديه .

ويعتبر بعض المفكرين والأدباء والمعاصرين أن المقامات لها حق الريادة فى مجال القصة العربية المكتوبة والمقروءة ، والبعض الآخر يعتبر أحاديث أبو بكر بن دريد لها أحقية الريادة فى الفن القصصى ، إذ أن ابن دريد سبق بديع الزمان الهمذانى . على أن ابن دريد استخدم الكدية والتسول فى أحاديثه قبل بديع الزمان الهمذانى ، غير أن الجاحظ استخدم أيضاً الكدية والتسول فى كتاباته قبل ابن دريد بقرن ونصف .

وأبو بكر بن دريد لم يستخدم الكدية والتسول فقط فى أحاديثه وحكاياته ، فإنما شملت قصصه كذلك الأعراب والبادية وعكس عالمهم وأحوالهم من جوانب كثيرة تمتد من البلاهة والغفلة والسذاجة إلى الأناة والحكمة . وأحاديثه عن النساء تتمثل فيها المرأة فى أحوالها كفتاة وكزوجة ، وأم وعاشقة ومعشوقة . وكذلك أحاديثه عن عالم الطرافة والنوادر والحمقى ، وعالم " الحكمة والفصاحة " ومن طرائفه فى عالم الحمقى : (قال الغلام الأحمق لأمه : يوشك أن تريني عظيم الشأن ، فتقول وكيف ؟ والله مأدرى أحمق منك ، فيقول : والله مارجوت هذا الأمر إلا من حيث يئست منه ، أما علمت أن هذا زمن الحمقى وأنا أحدهم)[٢٣] .

وأهم مصدر موثق لأحاديث أبى بكر بن دريد هو كتاب "الأمالى " لأبى على القالى وهو عن أحاديث ابن دريد .

غير أن كثيرًا من المصادر الحديثة تؤكد أن كتاب "الأمالى" لأبى بكر بن دريد الذى لاتزال كثير من أجزائه مفقودة كان كتابًا ضخمًا يضم سبعة أجزاء . [٢٤] .

ومن المدونات فى النثر الأدبى الرسائل الأدبية التى اتخذت مسارات قصصية مثل : "رسالة التوابع والزوابع " لابن شهيد الأندلسى ، و" رسالة الغفران " لأبى العلاء المعرى ، وهما رسالتان أدبيتان ظهرتا فى القرن الخامس الهجرى. كما كان

---

(٢٣) أبى على القالى : " الأمالى " .

(٢٤) أ – مخطوط كتاب "الأخبار المنثورة" وتوجد أوراق من الجزء الرابع والخامس والسادس منه بمكتبة الخلوية بالقدس (كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربى . ترجمة عبد الحميد النجار) .

ب – " تحقيق الفوائد والأخبار " وهو رسالة مطبوعة تحقيق إبراهيم صالح فى مجلة مجمع اللغة العربية فى دمشق المجلد السابع .

جـ – كتاب " تعليق من أمالى ابن دريد " تحقيق السيد مصطفى السنوسى . صدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون بالكويت سنة ١٩٨٤م .

هناك " رسائل أبى اسحاق الصابئ " الأدبية التى تمثل فيها نوع من الوصف القصصى .

" ورسالة الغفران " لأبى العلاء المعرى جاءت ردًا على (رسالة ابن القارح) وهو على بن منصور الحلبى، أديب من حلب معاصر لأبى العلاء المعرى . ورسالته يتمثل فيها أفكار السنة والجماعة . وينتقد أبن القارح فى رسالته بعض شعراء المعتزلة ومنهم المعرى كما ينتقد بعض أفكار الصوفية ، الذين يؤمنون بفكرة الحلول والاتحاد أمثال الشاعر الصوفى الكبير الحلاج .

فجاءت " رسالة الغفران " لأبى العلاء المعرى ، الشاعر المعتزلى مشتملة على جزئين ، جزء يتعلق بالرد على رسالة ابن القارح والجزء الآخر يتعلق بالأدب العربى ، فقد جاء فى صيغة قصة أدبية تحكى قصة أحد الأدباء الذى يقوم برحلة سماوية علوية يلتقى فيها بأهل الجنة وأهل النار فيزور الشعراء السابقين ، فيجد بعضهم فى الجنة وبعضهم فى النار فيسأل كل واحد منهم عن سبب دخوله الجنة أو سبب دخولة النار ، وخلال ذلك يستعرض أبو العلاء المعرى بعض المواقف مع هؤلاء الشعراء السابقين لعصره مثل زهير بن أبى سلمى وعبيد بن الأبرص ، وعدى بن زيد وحسان بن ثابت ... ومن القصص المكتوبة والمدونة كذلك ، حكايات "ألف ليلة وليلة " وإن كان البعض يضعها تحت قسم المرويات أو المحكيات وهى القصص التى يتذوقها المتلقى سماعًا وليس قراءة .

٢ - أما فى مجال القصص المروية أو المحكية فى مجالس القص الأدبى فقد انتشر هذا اللون من القص الأدبى طوال العصور الإسلامية المختلفة وكانت هناك مجالس للقص ، وكان بعض الرواة يروون حكاياتهم وقصصهم بمصاحبة الإيقاع الموسيقى على العود أو الربابة . وقد ظل هذا النوع من القصص منتشرًا فى بعض البلاد العربية مثلما كان منتشرًا فى ريف مصر حتى مطلع الستينيات من هذا القرن ويعترف " بشعر الربابة " وكانت من أشهر قصصه " قصة أبى زيد الهلالى " .

وكانت هناك عدة أنواع من مجالس القص الأدبى ، فكان هناك مجلس القص العمومى الذى يعقد فى الساحات والأماكن المتسعة وأماكن التجمع ، ويحضره

أعداد كبيرة من الناس ، وكانت هناك مجـــالس القص الـــذى يعقدهـــا الأمـــير أو الوزير لخاصته ، وكذلك مجالس القص الموسعة التى يدعو إليها الأمير والوزيـــر ويحضرها الشعراء ، والأدباء والمثقفون ووجوه القـــوم ، وغيرها مـــن مجـــالس القص التى كانت تعقـــد ويقوم الراوى أو القـــاص برواية الحكايـــة شـــفاهة أو بمصاحبة الآلات الموسيقية .

وقد أمدتنا المقدمة التى سبقت "حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال" وهى حكاية الليلة الثانية والخمسين من ليالى " ألف ليلة وليلة " بصورة وصفية لمجالس القـــص والآداب التى كانت متبعة فى هذه المجالس ، كما أمدتنا بـــأنواع تلـــك المجـــالس وتعددها .

هل القصة القصيرة ، القديمة والحديثة فن عربى خالص ؟

عرف الأدب العربى القصة القصيرة المكتوبة والمدونة منذ القرن الرابع الهجرى كما بينا سابقًا فى المقامات وغيرها مثل المقامة البشرية . غير أن بعض النقاد والأدباء يرى أن الأدب العربى لم يعرف القصة القصيرة بشكلها الحديث إلا بعد أن عرفها العرب على يد الفيلسوف الفرنسى " جى دى موباسان " فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

والقصة القصيرة بمفهومها الحديث والتى كان أول من كتبها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى الأديب الفرنسى " موباسان " ومن سماتها أنها لاتحتاج إلى وقائع خطيرة ، وخيال خارق ، بل يكفى الكاتب أن يتأمل فى الوقائع العادية والأفراد العاديين لكى يفسر الحياة ويعبر عن خفاياها من خلال موقف أو لحظة من لحظاتها . وقد سجل " جى دى موباسان " القصة القصيرة الحديثة باسمه كما يسجل المخترعون أو المكتشفون اكتشافاتهم [٢٥].

ومع أن القصة القصيرة فى الأدب الغربى الحديث كتبها قبل " بوباسان" كثير من الأدباء فى الغرب على نمط القصص العربى مثل " مارك توين " و " إدجار ألان بو " الأمريكيان وغيرهما إلا أن هذا المفهوم الحديث للقصة القصيرة والذى يعتمد على الواقعية الجديدة لم يعرفه أحد قبل " جى دى موباسان " . والقصة القصيرة الحديثة التى تعبر عن لحظة أو جزء محدود من أجزاء الحياة هى فى الحقيقة تعبر عن الحياة كلها ، لأن الحياة ماهى إلا لحظات أو أجزاء متصلة والتعبير عن الجزء يؤدى لمعرفة الكل .

وهذا المفهوم للقصة القصيرة الحديثة يرجع إلى الواقعية الحديثة التى كان يؤمن بها "جى دى موباسان " .

والفنون الأوربية الحديثة عامة والأدب بوجه خاص متأثرة فى كثير من مجالاتها بالإكتشافات العلمية الحديثة ، مثل " التكعيبية " فى الفنون ، وصلتها بالأحجام الهندسية ، ومثل استخدام الدالة فى الدراسات الفنية التى يطلق عليها " الفنون الشعبية " .

---

(٢٥) عباس خضر : " القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٠م".

والرياضيون يستخدمون الدالة بمعنى المتغير الذى تتوقف قيمته على متغـــير أخر . وقد نقل بروب هذا المصطلح إلى الدراسات الشعبية عندما اســـتخدمه فـــى دراسته الرائدة لمورفولوجيا الحكاية المغربية [(٢٦)] والتأثرية وصلتها بتحليل الضوء .

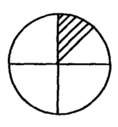
وهذا المفهوم " للواقعية الجديدة " التى اعتمد عليها " موباسان " فـــى القصـــة القصيرة الحديثة يرجع إلى توصـــل علماء الرياضـــة الأوربيـــون إلـــى حســـاب "التكامـــل" ، ومفهوم الواقعية الجديدة والذى مثلهـــا " موباســـــان " فـــى القصـــة القصيرة الحديثة كان بعد التوصل إلى معرفة علم التكامل فى الرياضة .

ومعروف علميًا أن علم "التكامل" نشأ مبنيًا على معرفة الأوربييـــن للجـــبر العربى الذى وضعه الخوارزمى وعلى المصطلح الرياضى " إلى مالانهاية" الذى لم يعرفه الغرب لأن الفلسفة اليونانية والرومانية كانت تتجنب "مالانهاية " [(٢٧)].

وفى سنة ١٦٥٥م قام العالم الإنجليزى "جون ولس" John walis بإدمـــاج الجبر العربى ومصطلح "مالانهاية " .

وفى سنة ١٦٦٦م توصل إسحاق نيوتن إلى معرفة علم "التكامل" والمشـــتقات بناء على أفكار "جون ولس" .

وأصل معرفة "حساب التكامل" هو الحاجة إلى معرفة المســـاحات والأحجـــام المرتبطة بالأقواس مثل معرفة مساحه أو حجم جزء من الدائرة . وتخيـــل نيوتـــن تقسيم هذا الجزء من الدائرة إلى مستطيلات ، وبحساب مساحة كل مستطيل ، ثـــم جمع مساحة المستطيلات يمكن الحصول على مساحة هذا الجزء من الدائرة .



---

(٢٦) الأستاذ عبد الحميد حواس مقال : الحكاية – البيان وتأسيس شكل حكائى أدبى (قراءة فـــى حكاية ليلية) ، مجلة فصول ، المجلد ١٣ ، العدد ٣.

(٢٧) Grolier Academic Encycolopedia (Intigration).

ولكن الحساب بهذه الطريقة لايكون دقيقًا لأن مساحة كل مستطيل ليست دقيقة ، وكلما كثر عدد المستطيلات " إلى قرب مالانهاية " يكون الحساب أقرب إلى الدقة ولعل هذا المفهوم لحساب " التكامل " والذى يعتمد على معرفة الجزء ليحصل على معرفة الكل هو ماتخذته " الواقعية الحديثة " وما اتخذه " جي دى موباسان " فى القصة القصيرة الحديثة . وكما تذكر الموسوعة الأمريكية أن حساب التكامل مبنى على الحساب العربى(٢٨) ، فلعل هذا المفهوم الحديث للقصة القصيرة الحديثة ماهو إلا مفهوم عربى الأصل .

---

(٢٨) المصدر السابق .

الاتجاهات الأدبية العربية الراهنة واختلاف الثقافات

توجد على الساحة الأدبية العربية عدة تيارات أو اتجاهات أدبية تختلف تبعًا لاختلاف رؤيتها الثقافية ، و بعض هذه الاتجاهات تحمل رؤية للثقافة العربية تتناقض مع مفاهيم العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة العربية .

وما نشاهده الآن على الساحة الأدبية العربية والإسلامية لا يمثل تعددًا و تنوعًا ثقافيًا فى ظل وحدة حقيقية و لكنه تعدد ثقافات لايجمع بينها وحدة ، والاتجاهات الأدبية العربية الراهنة عديده ولكن يمكن أن نتبين أربعة اتجاهات أدبية واضحة ومن بينها :

الاتجاه الأول : -

هو اتجاه الحداثة أو الاتجاه العلمانى ، وهذا الاتجاه فى الأدب العربي يحمل مفاهيم الحداثة الغربية بخلفياتها و مفاهيمها . و تعبير الحداثة هو تعبير غربى يحمل مدلولات الفكر العلمانى الغربى فى الأدب الغربى الحديث بعد نشأة الليبرالية الحديثة . ونشأة الليبرالية الحديثة فى القرن السابع عشر فى أوروبا صاحبها تغيير فى الثقافة الغربية بعد استبعاد الكنيسة الغربية وأفكارها وسلطاتها الاقتصادية والسياسية . وفى الحقيقة أن ما حدث فى أوروبا مع نشأة الليبرالية الحديثة كان هدماً للمعتقدات الكنيسية واللأهوتية والإتيان بديانة جديدة أطلق عليها " المادية الجديدة " ، بأخلاقها الطبيعية الجديدة التى لم تتخذ من المسيحية الجديدة مصدرًا لها ، ولذلك أطلق عليها الفلاسفة والمفكرون الأوروبيون " الأخلاق الطبيعية الجديدة " . إذن فقد صاحب نشأة الليبرالية الحديثة قيام ثقافة غربية حديثة سادت أوروبا وأمريكا منذ القرن السابع عشر الميلادى لها اعتقاد مادى لا دينى يخالف المسيحية وأخلاق " طبيعية ليس مصدرها الدين المسيحى " ، وكذلك اختلفت بقية العناصر المكونة للنسيج الكلى للثقافة الغربية الحديثة .

نتيجة لذلك جاءت " الحداثة فى الأدب الغربى " تحمل مفاهيم الثقافة العلمانية الغربية الحديثة التى نشأت مواكبة للفكر الليبرالى الحديث فى السياسة والاقتصاد فى أوروبا وأمريكا منذ القرن السابع عشر الميلادى .

وتيار الحداثة فى الأدب العربى الإسلامى يؤمن بالحداثة فى اأدب الغربى العلمانى ولذلك جاءت إبداعاته الأدبية تحمل مفاهيم الثقافة الغربية الحديثة . ومع أن تيار الحداثة فى الأدب العربى عدد كتابه وأدبائه محدود إلا أنه يتسنم وسائل الإعلام والثقافة فى معظم البلاد العربية والإسلامية بفعل العوامل السياسية .

الاتجاه الثانى : -

هو الاتجاه أو التيار الإسلامى فى الأدب العربى . وهذا التيار جاء ممثلاً للفكر الإحيائى الإسلامى الحديث الذى نشأة مع عصر النهضة العربية منذ أواخر القرن الماضى . وهذا الاتجاه يتمسك بمفاهيم الثقافة العربية وله رؤية فى النهوض والتطور تخالف رؤية الاتجاه العلمانى وخاصة فى مجال الثقافة والأدب ، فالنهوض والتطور فى أدبيات هذا الاتجاه تكون عبر النهوض والتطور بالعناصر المكونة لنسيج الثقافة العربية وليس بإحلال عناصر غربية علمانية محل مفاهيم العناصر العربية الإسلامية .

ولذلك جاءت إبداعات هذا الاتجاه الأدبية تحمل هذه الرؤية الثقافية . والرؤية الثقافية لهذا الاتجاه فى حقيقتها هى رؤية متمشية مع مفهومه للتطور والنهوض فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

وهذا الاتجاه أو التيار يرى أن الاتجاه العلمانى يريد أن يقوض ويهدم الثقافة العربية الأصيلة بإحلال مفاهيم الثقافة الغربية الحديثة محل مفاهيم العناصر المكونة لنسيج الثقافة العربية فى الدين والأخلاق والعادات والفنون والقانون وغيرها .

ومن هنا كان هذا الصراع الثقافى المستتر حينًا والعلنى أحيانًا بين هذين الاتجاهين وإن تحول فى بعض الأقطار الإسلامية إلى تنافس ثقافى بدلاً من هذا الصراع فى العقود الأخيرة .

الاتجاه الثالث : -

هو الاتجاه العربى المحافظ فى الأدب . ويقود هذا التيار كثير من الأكاديميين العرب ، ورؤيته للأدب العربى والثقافة العربية وتطورها تتلاقى مع

رؤية الاتجاه الإسلامىَ غير أن ابتعاده عن السياسة وتقلباتها تبعـــده عــن مجــال الصراع والتنافس وإبداعات هذا الاتجاه فى الأدب العربى تتميز بالعمق والأصالة .

الاتجـــاه الرابــع : -

هو اتجاه التقليد فى الأدب وهذا الاتجاه يجنح إلى التقليد فى الأدب . فهو يقلد الاتجاهات الأخرى فى إنتاجه الأدبى ولا يعنيه المفاهيم الثقـــافية ســواء ثقافتــة العربية أو الثقافات الأخرى . وهذا التيار ينطلق فى إنتاجه الأدبـــى دون وعــى بالذات وبالغير ، ودون وعى بثقافته العربية الأصيلة أو الثقافات الأخرى . ولذلــك جاء إنتاجه الأدبى فى اغلبه تقــليد للأدب الغربى العلمـــانى دون وعـــى أو إدراك والقليل من إنتاجه جاء تبعــًا لمفــاهيم الثقافة العربية والإسلامية .

الفصل الثـــالث

الفــنون الإســلامية

أولا : الفنــون والمعتقــدات الدينيــة

عرف الفلاســفة والمفكرون الفن بأنه تعبير مادى عن فكرة دينيـــة . لذلــك ارتبط الفن بالاعتقاد الدينى فى كل الحضارات . وفى الحضارات الســـابقة علـــى الحضارة الإسلامية . دلت الحفريات والآثـــار التى خلفتها الحضـــارات القديمـــة ، والتى أكتشفها علماء الآثار ، ليس على وجود هذه الحضارات فقط ، بل على الفكر الدينى والمعتقدات الدينية لشعوب هذه الحضارات .

فالإنســان البدائى الذى كان يعيش فى الكهوف ، كان يعــبر عــن مشــاعره الدينية ، بنقــوش يخطها على الحجارة وجدران الكهوف وقد اكتشفت آثـــار فـــى العصر الحديث تدل على حضارة عيلام والحضارة الســـومرية وحضـــارة بـــابل وآشور ، هذا بجـــانب الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانيـــة القديمـــة ، وهذه الآثار تبين لنا المعتقدات الدينيـــة فى فنون هذه الحضارات . أمـــا الديانـــات السماوية الثلاث ، اليهـــودية والمسيحية والإسلامية فقد تميزت فنـــون حضاراتهـــا بانعكاس هذه المعتقدات الدينية على هذه الفنون .

وسوف نلقى الضوء على الفنون فى هذه الحضارات ، لنبين أثـــر المعتقـــدات الدينية المختلفة على هذه الفنون أما الفنون . فى الحضارة الغربيـــة الحديثـــة فقـــد تغير المعتقد الدينى وتحول إلى " المادية الجديدة " منذ حوالى القرن الســـابع عســـر الميلادى .

١- عـيـــلام :

والعيلاميون (عيلام) كانوا يسكنون مساحة ضيقة من الأراضى على نهر دجلة حيث توجد مدينة شوشان الحديثة ، وهى فى موقع مدينة السوس القديمة التى كانت

أهم بلاد عيلام منذ ما يقرب من عشرين ألف سنة فى بعض الأقوال ، وفى أقـــول أخرى أنها ترجع إلى ٤٥٠٠ ق. م وكما يـــدل على ذلك ما اكتشف من آثار مــــن بينها مزهريـــات فى غـــاية الروعة عليها نقوش ورسوم وصور تمثل الحيوانـــات والنبـــات[1] .

٢ - ســومـــر : -

أقام السومريون حضارة عظيمة لهم على أرض ما بين النهرين ، وقد وجدت كتابات لهم تشير إلى بداية الخلق وإلى طوفان مروع خـــرب أرضهـــم ، وتنـــاقل البابليون والآشـــوريون الذين جـــاءوا من بعدهم قصة هذا الطوفان .

وقد اكتشف " ول " وهو ينقب فى خرائب " أور " سنة ١٩٢٩م علـــى عمــق عظيم من سطح الأرض عن طبقة من الغرين سمكها ثمانية أقدام رسبت على أثـــر فيضان مروع لنهر الفرات ، وقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبـــل الطوفان وصفها الشعراء فيما بعد بأنها العصر الذهبى لتلك البلاد [2] .

وقـــام المؤرخـــون السومريون من الكهنة ، بوضع قوائم بأســـماء ملوكهـــم الأقدمين ، ترجع إلـــى الأســـرة المالكـــة التـــى حكمـــت قبـــل الطوفـــان إلـــى (٤٣٢٠٠عاما)[3].

وهذا تاريخ مغالى فيه والأرجح أن هذه الحضارة قامت قبـــل (٥٢٦٢ق.م)[4] ومن آثـــار السومريين التى عثر عليها وتبين معتقداتهم الدينية ، تمثال الملك جوديا وهو أشهر ما بقى من أثارهم فى فن النحت السومرى وهـــو موجـــود الآن فـــى متحف اللوفر وهو مصنوع من حجر الديوريت .

والملك جوديا حكم فى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد وكان مصلحًا أحبه قومه واتخذوه إلهـًا لهم بعد موته والحضارة السومرية كانت حضارة بدائية وأقدم

---

(١) ول ديورانت : " قصة الحضارة " جزء٢ ، ترجمة محمد بدران .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) Grolier Academic Encyclopedia .

ما اكتشف من ثقافة السومريين ، هى الكتابة المسمارية ، وتكتب بقلم معدنى أو جسم صلب ذى طرف دقيق على طين لين ثم يجفف أو يحرق ، وقد وجدت بعض القصائد الأولى أو الأغانى التى بها أدعية وصلوات دينية ، وكانت الهياكل تزينها أحيانًا تماثيل للآلهة والحيوانات وكانت تماثيل بدائية ينقصها الصقل والدقة .

وإن كانت الآثار التى تركتها الحضارة السومرية قليلة ، إلا إن أعظمها اللوحات المسمارية ، وماتحتوى عليه من ثقافة متقدمة نسبيًا . تدل على رقى فكرى لايتناسب مع ما اكتشف من آثار مادية قليلة كالنحت والتماثيل وخلافه .

وفى نقش من نقوش الملك جوديا ، والذى عثر عليه من ضمن الآثار ، يفصح هذا النقش عن الاسباب التى من أجلها عبده رعاياه واتخذوه إلهًا لهم بعد موته : " فى خلال سبع سنين كانت الخادمة ندأ لمخدومتها وكان العبد يمشى بجوار سيده ، واستراح الضعيف فى بلدى بجوار القوى " .

ومن أقدم القصائد المعروفة على لوح من الطين المحروق لعل عمرها يرجع إلى (٤٨٠٠ق.م) ، لوحة يرثى فيها الشاعر السومرى " دنجردامو" انتهاب إلهة لكش عندما غزاها لوجال زجيزى ، ويقول فيها :

واأسفاه إن نفسى تذوب حسرة على المدينة وعلى الكنوز

واأسفاه إن نفسى تذوب حسرة على مدينة جرسو (لكش) وعلى الكنوز

إن الاطفال فى جرسو المقدسة لفى بؤس شديد

لقد استقر الغازى فى الضريع الأفخم

وجاء بالملكة المعظمة من معبدها

أى سيدة مدينتى المقفرة الموحشة متى تعودين ؟[٥]

وجاء فى إحدى اللوحات التى عثر عليها فى الخرائب السومرية لوحة نقش عليها بعض الصلوات وفيها " إن الضأن فداء اللحم الآدمى ، به افتدى الإنسان

---

(٥) ول ديورانت: " قصة الحضارة " .

حياته "[٦] . إن الحضارة السومرية حضارة قديمة وكل ما هو موجود مـــن قبــل (٦٦٣ق.م) ينقصه الدقــة[٧] التأريخية .

وقد وجدت فى آثار البابليين الذين جاءوا من بعدهم كثيرًا من الألواح الطينية التى بها كثير من أخبار السومريين ، فقد وجدت فى بعض الألواح التـــى ســيأتى ذكرها ، وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى قصة حاكمين من الســومريين أحدهما " جلجميش " وهو من نسل " الملك شمش – نشــتين " الــذى نجـــا مــن الطوفـــان ، و"جلجميش " بطل الملحــمة المشهورة فى الأدب البــابلى ، والآخــر هو " تموز " الذى قدسه البابليون من بعدهم وجعلوه إلهًا كما قدسه اليونانيون مـــن بعدهم وأطلقوا عليه " ادنيس " .

وقد حفلت ألواح البابلــيين بأدعية وصلوات مكتوبة باللغة السومرية القديمـــة وليست باللغة البابلية لغتهم ، بل إن جميع الأدعية والأناشيد الدينيـــة والصلــوات البابليـــة كانت مكتوبة باللغـــة الســومرية القديمة وهى مفارقة عجيبة وســوف يأتى ذكر ذلك فيما بعد .

٣- بابــل وآشــــور والفــرس :

وبعد أن انقضى عصر السومريين فى المدن الجنوبية جاء عصر بابل وآشور فى المدن الشمالية على امتداد نهر دجلة والفرات وبعد حل رموز الكتابـــة البابليـــة والآشورية بواسطة هنرى رولنسن سنة ١٨٣٥ الذى كان موظفًا بالسلك السياســـى البريطانى فى إيران وذلك بعد أن عثر على نقوش فى صخرة عالية فـــى الجبــال نقشها " دارا الأول " تسجل انتصاراته ، وكانت هذه النقوش مكتوبة بثلاث لغـــات هى الفارسية القديمة والآشورية والبابلية . أمكن معرفة اللغة البابلية القديمة وأنهـــا تطورت عن لغة سومر وأكد أنها كانت تكتب بحـــروف ســومرية الأصــل . وأن الكهنة البابليين وضعوا معاجــم وقواعد النحو والصرف يســـتعين بهـــا العلمــاء والكهنة الشبان على تفهم اللغة السومرية الفصحى والكتابات السومرية الدينية .

---

(٦) المصدر السابق .
(٧)المصدر السابق .

وقد وجدت كتابات على الألواح المسمارية البابلية تدل دلالة كبيرة على اهتمامهم بالدين . ولم يوجد فى مجال الشعر إلا الشعر الدينى تقريبا .

وكتبت ملحمة جلجميش المشهورة على اثنى عشر لوحًا ، وجدت محطمة فى مكتبة آشور بانيبال ، وهى الآن فى المتحف البريطانى . وتتألف من القصص الغير مترابطة ، ضمت بعضها إلى بعض فى عهود مختلفة ويرجع بعضها إلى أيام السومريين . ومن هذه القصص النص البابلى لقصة الطوفان . وكان جلجميش بطل القصة الذى كان حاكمًا أسطوريًا من نسل الملك " شمش – نشتين " الذى نجا من الطوفان ولم يمت .

وهى قصة تصور مغامرات جلجميش وتصف حياة الآخرة وأهوال الجحيم يوم القيامة . وصور عن الألهة التى كانت لها غريزة وطبيعية الإنسان مثل الإلهة إشتار أو عشتار التى أحبت جلجميش وأرادت أن تتزوجه ولكنه رفض ، فذهبت إشتار إلى الإله العظيم غضبى تطلب منه أن يخلق ريمًا مفترسة تقتل جلجميش ، ولكن الإله يرفض طلبها ويذكرها بفضائحها ، فتنذر أشتار الإله الأعظم بأنها سوف تعطل ما فى الحياة وما فى الكون من غرائز الحب والشهوة فيهلك كل شىء ، ويخضع الإله الأعظم لإرادتها ، ويخلق الريم المفترس ، ولكن جلجميش يتغلب على الريم المفترس ويقضى ، عليها فتنتقم أشتار من جلجميش بأن تصيب صديقه الحميم – الذى يعاونه فى الأعمال البطولية – بداء عضال يقضى عليه ، ويحزن جلجميش على صديقه حزنًا عظيمًا وبعد مغامرات طويلة يعود جلجميش إلى عاصمة ملكه أروك يائسًا حزينًا يطوف بالمعابد ويطلب من الألهة أن ترد الحياة إلى صديقه الحميم ولو للحظات حتى يستطيع أن يكلمه . فتستجيب له ، ويسأل جلجميش صديقه الحميم بعد أن ردت إليه الحياة عن حال الموتى فيرد عليه بقوله : " لا أستطيع أن أجيبك لأنى لو فتحت الأرض أمامك ولو أخبرتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ولغشى عليك " . ولكن جلجميش يصر على طلب الحقيقة ، فيصف له أهوال الجحيم وشدة الهول والفزع العظيم ومشاهد يوم القيامة . وتنتهى القصة بتصور أهوال يوم القيامة .

ومن أشهر الملوك البابلين حمورابى صاحب قانون حمورابى وهناك كثير من اناشيد التوبة عند البابلين سجلت على الألواح بالكتابة المسمارية والتى يهرع الإنسان فيها للتوبة إلى الإله عن ذنوبه التى إرتكبها .

ولم يترك السومريون والبابليون والآشوريون من الآثار سوى هـذه الألـواح الطينية المحماة فى النار والمدون عليها بالكتابة المسمارية ، مفاهيمهم ، ومعتقداتهم وآدابهـم وفنونهم ، أما أعمال النحت أو الرسم أو الزخرفة أو العمارة لم نحصـل إلا على القليل منها . وقد وجد أن الألواح المسجل عليها كل ما يختص بـالمعتقد الدينى عند البابليين من تعاليم أخلاقية أو آداب وأناشـيد دينيـة مكتوبـة باللغـة السومرية القديمة وليس بلغتهم البابلية . وربما يرجع ذلك إلى أن السومريين كانوا أقرب عهـدًا لسيدنا نوح عليه السلام والأنبياء من بعده . يقول ديورانت : " وهذه الأناشـيد والمزامير كان ينشـدها الكهنة تـارة ، والمصلون ، تـارة وتـارة ينشدها هؤلاء وأولئـك معًا ، وهم يتمايلـون ذات اليمين وذات الشـمال . ولعـل أغرب ما فى هذه الترانيم والأناشيد أنها – ككل آداب بابل الدينية – كتبت باللغـة السومرية القـديمة "[٨] .

وكانت هناك ترجمة لبعض الأناشـيد باللغة البابلية أو الآشورية بين سـطور اللغة السومرية القديمة .

ومن هـذه الأناشـيد : " رب إن ذنوبى عظيمة ، وأفعالى السيئة كثيرة .. إنى أرزح تحت أثقال العذاب ، ولم يعد فى وسعى أن أرفع رأسى ، إنى أتوجه إلى إلهى الرحيم أناديه ، وأنا أتوجع وأتألم ..... رب لا ترد عنك خادمك ".[٩]

ولعل فنون السومريين والبابليين والآشوريين – كما وصلت إلينا حتـى الآن على هذه الألواح – تعبر عن مفاهيم معتقداتهم الدينية، التى ربما كانت خليطًا مـن ديانات سماوية حقيقية مثل ديانات سيدنا نوح عليه السلام والنبيين من بعـده مـع مفاهيم أدخلها الكهنة والشعوب والملوك عليها . وهى عادة أهـل الديانـات فـى الإنحراف بها عن أصولها بمرور الزمن وبعد الإتصال والتواصل بين هذه الحقب الزمنية المتباعدة الموغلة فى التباعد والقدم . وجاء بعد البابليين والآشوريين الفرس بحضارتهم وفنونهم التى كانت تمثل معتقداتهم مثل الزرادشتية وتعدد الألهة ......

(٨) المصدر السابق .
(٩) المصدر السابق .

٤- قــدمــاء المصــريين :

وجاء عصر الحضارة المصرية والتى فيها سجل المصريون القدماء معتقداتهم الدينيــة فيما تركوه من فنون النحت والزخرفة والنقوش علـــى جـــدران المعـــابد والتماثيل ، وما تركوه من آثار عظيمة تدل على ذلك . فقـــد اعتقـــد المصريـــون القدماء بعودة الروح ، فنحتوا التماثيل التى ستحل فيها الروح ، وأقـــاموا المعـــابد الرائعة وسجلوا على جدرانها معتقداتهم ووضعوا داخلهـــا ما يحتاجه المتوفـــى - عند ما تعود الروح إلى التمثال أو الجثة المحنطة - من طعـــام وملابـــس وأدوات الزينة وغيرها ، ونقشوا جدران المقـــابر بنقوش غاية فى الروعة .

٥- اليونـــــان :

وفى عصر الحضارة اليونانية سجلوا معتقداتهم على ما أبدعوا فى فن النحت والتصوير ، فنحتوا تماثيل فى غاية الروعة تمثل آلهتهم التى كـــانت فـــى منزلـــة بشرية ، وتخيلوا هذه الآلهة على صورة الإنسان أو الحيوان أوالأجرام الســـماوية فجاءت فى غاية الروعة والإتقـــان .

٦- اليهــودية والفنون :

جاءت اليهودية وقد ابتعدت مفاهيم الرسالات والنبوات السابقة عليهـــا فـــى الزمـــان والمكان . واختلطت مفاهيم الديانات الصحيحة مع غيرها مـــن مفـــاهيم البشر . وكان كل شعب لا يدرى شيئاًعن معتقدات الشعوب الأخرى البعيدة عنـــه لبعد الاتصال وما يستتبعه من بعد التواصل . فتعددت الآلهـــة وانتشـــرت عبـــادة الأصنام فجاءت الشريعة الموسوية لتحول بين الشعب وعبادة الأصنام . فقـــد ورد فى التوراة فى الإصحاح العشرين من ســـفر الخـــروج " لا يكن لك آلهة أخـــرى أمامى . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ، مما فى الســـماء من فوق وممـــا فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن ، إنى أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى " وبذلك لم تكن هناك آثار فى الفن التشـــكيلى لتعـــبر عـــن الديانـــة اليهودية[١٠] . وقد أشارت الوصية الثانية من الوصايا العشر إلى ذلك .

---

(١٠) د. سعاد ماهر الفنون الزخرفية كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " المجلد الأول .

وكان كل ما يجيزه الكهنة من الفنون هما فنا " العمارة والموسـيقى " .

٧- المسيحية والفنـون :

كما حرمت اليهودية عبادة الأوثان وبذلك قضت على الفنون التشكيلية قضـاء مبرمًا ، كذلك فعل الدين المسيحى ولكن فى شىء من اللين والهوادة .

على أن المذهب الكاثوليكى المسيحى اعتمـد اعتمادًا كليًا علـى الفـن فـى توضيح تعاليمه وتصوير الحوادث الدينية وتاريخ المسيحية وسيرة أبطالها .

ومنذ القرن السابع عشر الميلادى تغيرت معتقدات الشعوب الأوروبية وحلـت "المـادية الجديدة " محل التقاليد المسيحية ، وجاءت الفنون منذ ذلك العهد وحتـى الآن متأثـرة بذلك المفهوم للمعتقد الجـديد الذى لا يرعى حرمة للدين المسـيحى ومفاهيمه . ونتيجة لذلك جـاءت الفنون الأوروبية منذ ذلك التـاريخ وحتـى الآن تعبر عن ذلك الاعتقاد اللادينى فى النحت والتصوير والعمارة والفنون الزخرفيـة والأغانى والأفلام والمسرحيات والرقص وغيرها .

ثانيا : الإســلام والفنــون

نظرة الإسلام للفنون – كما أكد كثير من علماء الإسلام على مدار التاريخ – الأصل فيها الإباحة .

فالفنون سواء كانت سماعية أى يتذوقها الإنسان بالسمع مثل الشعر والخطابة والموسيقى والغناء وغيرها ، أو نظرية أى يتذوقها الإنسان بالنظر مثل الفنون التشكيلية التى يشكلها الفنان عندما يقع نظره على الأشياء مثل فن العمارة ، والفنون الزخرفية ، وغيرها من الفنون ....

كل هذه الفنون وغيرها ما هى إلا أشكال ومضامين . وبدون الدخول فى التفاصيل لمعنى الشكل والمضمون فإن الإسلام يبيح جميع أشكال الفنون . أما مضمون كل فن وما يحتويه كل فن ، وما يحمله هذا المضمون من مفاهيم تتوافق أو تتعارض مع مفاهيم الإسلام فهذا ما نعنى به أن نظرة الإسلام للفنون الأصل فيها الإباحة . فالإسلام يبيح شتى أشكال الفنون ، أما المضمون أو المحتوى فلابد ألا تتعارض مع مفاهيم الإسلام وتعاليمه .. ولناخذ الشعر وموقف الإسلام منه كمثل نافع للقياس عليه فى الفنون الأخرى يقول تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرًا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون " (١١)

والآيات تبين أن فن الشعر ذاته ليس حرامًا ، والشعر من الفنون المباحة فى الإسلام ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من الشعر لحكمة " (١٢).

ويقول صلى الله عليه وسلم : " أشعر كلمة تكلمت بها العرب قول لبيد " ألا كل شيء ما خلا الله باطل (١٣).

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يسمع الشعر ، فقد روى عمرو بن الشريد عن أبيه قال : " ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فقال : هل معك من

---

(١١) سورة الشعراء آية٢٢٤-٢٢٧ . (١٢) البخارى ٤٢/٨ .

(١٣) صحيح مسلم ١١/٥ : " كتاب الشعر " .

شعر أمية بن أبى الصلت شيء ؟ قلت نعم ، قال هيه ، فأنشدته بيتًا ، فقال هيه ، ثم أنشـــدته بيتًا حتى أنشدته مائة بيت "[١٤]

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشجع حسان بن ثابت فى الرد على هجاء المشركين للمسلمين ويقول له : " اهجهم ومعك روح القدس " . مثل رده على هجاء سفيان بن الحارث . وغيره يقول حسان فى رده على سفيان بن الحارث :

هجـــوت محمدًا وأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجـــــزاء

فإن أبى ووالـــــده وعرضى لعرض محـــمد منكم وقـــاء

فدعى له الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة والوقاية من النار[١٥].

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو لعبد الله بن رواحة ويقول للمســـلمين : " إن أخًا لكم لا يقول الرفث هو عبد الله بن رواحة "[١٦]

وكان يعجبه شعر الخنساء ويقول لها : " هيه يا خناس" ويومئ بيده . كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم استمع فى المسجد للشاعر كعب بن زهير فى قصيدته "بانت سعاد" التى ابتدأها بغزل وتشبيب ومطلعها :

بانت سعاد ، فقلب اليوم متبول متيم إثرها لم يفـــد مكبـــــول

على عـــادة الشعراء آنذاك ، وفيها مدح للرسول صلـــى اللـــه عليـــه وســـلم وللمسلمين ، وذلك عند إسلامه .

فالشعر كفن من الفنون لم يحرمه الإسلام ، وهو مثل الفنون الأخرى حســـنه حسن ، وقبيحه قبيح . يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى : " أما الشـــعر فكـــلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم .... وإنشاد الشعر ونظمه ليـــس بحرام إذا ما لم يكن فيه كلام مستكره ".

---

(١٤) المصدر السابق .
(١٥) العمدة ١/٥٣ .
(١٦) د. جابر قميحة : " المدخل إلى القيم الإسلامية " كتاب "دراسات فى الحضارة الإســلامية " المجلد الثالث.

الغناء والموسيقى ، كالشعر ، الأصل فيها الإباحة ، فالغناء كشكل من أشكال الفنون الأصل فيها الإباحة ، أما المحتوى أو المضمون ، فذلك شأنه شأن الشعر يجب أن يتقيد بالمفاهيم الإسلامية والأخلاق الإسلامية فالكلمات التى تغنى واللحن والآلات ، والأداء فى الأغنية وكذلك المضمون الموسيقى ، والعازفين للقطعة الموسيقية يجب ألا يخرج عن مفاهيم الإسلام ، والأخلاق الإسلامية .

أما ما نشاهده الآن فى فن الغناء وفن الموسيقى فذلك شأن آخر سوف نناقشه بعد ذلك ، وسوف نناقش أسبابه والدليل على إباحة الغناء والموسيقى كأشكال فنية .
ويجب أن يكون مضمونها متمشيًا مع تعاليم الإسلام ومفاهيمه . إن نساء المدينة كن يضربن بالدف والألحان فى غنائهن عند قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا يا خير داع

فإظهار السرور بمقدمه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والذى عبر عنه نساء الأنصار بالكلمات الطيبة والألحان ، والآلات ، والأداء الذى لا يخرج عن مفاهيم الإسلام وتعاليمه أمر محمود يعبر عن الشعور الإنسانى فى وقت الفرح والسرور بما يبعث فى النفس الإنشراح والبهجة .

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحدى له فى السفر ، والحداء عادة عربية قديمة من قبل الإسلام واستمرت فى عصور الإسلام وحتى الآن فى بعض الحالات التى يستعمل فيها الجمل فى الركوب والسفر حيث ، يتغنى الحادى بأشعار وألحان موزونة . ويروى البخارى ومسلم ، أن سيدنا أبا بكر دخل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فوجد به جاريتين تغنيان فقال : أمزامير الشيطان فى بيت الرسول ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر يا أبا بكر دعهما فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا .

وعن ابن عباس قال : " زوجت عائشة ذات قرابة لها فى الأنصـــار . فجــاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أهديتم إلى الفتــاة ؟ قــالوا : نعـم قــال : أرسلتم معها من يغنى ؟ قالت عائشة : لا فقال الرسول : إن الإنصار قـــوم فيهـم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

أتــيـنـــاكـم أتــيـنــاكـم

فحـــيـونـا نحـيـيـــكــم

وعن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم مر ببعض نواحى المدينـــة فإذا هو ببعض الجوارى يضربن بدفهن ويتغنين :

نحن جــوار من بنى النجـــار

يـــا حــبـذا محمــد من جـــار

فقال صلى الله عليه وسلم " الله يعلم إنى لأحــبكن " .

وقد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم صوت أبى موسى الأشـــعرى وهــو يتغنى بالقرآن فقال : لقد أوتيت مزمارًا من مزامير داود ، وكان صوته جميلاً .

رأى الشيخ متولى الشعراوى : -

يقول الشاعر عزيز أباظة فى مسرحية " قيس ولبنى " :

تغضى حياء وتغضى عفة وتقى

إن الحياء سياج الحب مذ كانا

ويعلق فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى على ذلك بقوله : " وهـــو قـــول طيب ، وجميل تغنى به محمد عبد الوهاب رحمه الله ، فأطربنا وأمتعنا ، وربمـــا كان هذا شــفيعًا له فيما يكون قد صدر عنه بعيدًا عن ذلك . وأن الحـــق ســبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان ، خلق له عواطف يجتذبها الجمال فى كون الله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يهذب هذه العواطف ، فيشرع التعبير عنها ، والاستمتاع بها ، بالأسلوب الذى لا يعتدى على جمال فى حوزة الغير ، ولذلك أستطيب أنا ما قالـــه أحد الشعراء :

" من لم يحركه الجمال فناقص تكوينه

وسوى خلق الله من يهوى ويأذن دينه " .

وفى مجال الفنون التشكيلية ، وهى الفنون التى يشكلها الفنان نتيجة رؤية الأشياء ويتذوقها الآخرون بحاسة النظر واللمس وتشمل فن العمارة ، والفنون الزخرفية ، والتصوير والنحت . وقد برع المسلمون فى فن العمارة والفنون الزخرفية ، وتعتبر من الفنون العظيمة والمتميزة فى الحضارة الإسلامية فى كل العصور الإسلامية . وقد أطلق الأوروبيون على الفنون الزخرفية الإسلامية إسم (أرابيسك Arabesques) لتميزها وروعتها وإتقانها . أما فن النحت والتصوير فقد استوعبت فى الفنون الزخرفية الإسلامية وفى فن الحفر الغائر والبارز على المعادن والخشب والعاج والرخام والبلور الصخرى لكراهة الإسلام لنحت التماثيل المنفردة ، لما لها من علاقة بالأصنام التى كانت موجودة قبل الإسلام . وكذلك فن التصوير الذى أدخل فى فن صناعة الكتب منذ القرن السادس الهجرى (تجليد الكتب ، الخط العربى المتنوع والمتميزوتذهيب الكتب والمنمنات) والذى يشترك فيه الخطاط والمذهب وصانع جلدة الكتاب .

وقد وردت أحاديث تشير إلى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تصوير الإنسان والحيوان . وقد أشار الإمام محمد عبده والشيخ عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر إلى أن النهى ليس للحرمة بل للكراهية(١٧).

وقد اتجه الفكر الإسلامى إلى الإجماع على جواز تصوير ماليس فيه روح ، كالزخرفة من أوراق الشجرة والزخرفة بالكتابة وتصوير النبات والجماد (١٨).

وقد أورد الأستاذ سيد قطب فى كتابه " التصوير الفنى فى القرآن " صورًا فكرية عديدة أوردتها آيات قرآنية كثيرة

من هذه الصورقوله تعالى : "مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت "(١٩) ومنها قوله تعالى :

---

(١٧) د. أحمد شلبى : " بحوث فى الحضارة الإسلامية " .
(١٨) المصدر السابق .
(١٩) سورة العنكبوت .

" ومن يشـــرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريـــح فـــى مكان سحيق " [٢٠]

ومنها تصوير حال المسلمين فى غزوة الخندق التى أحاط فيها عشـــــرة آلاف مقاتل من الكفار بالمسلمين فى المدينة وزلزل المسلمون بزلزال شديد لمـــــا يهـــدد حياتهم ووجودهم . يقـــول تعالـــى :

" إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلـــــوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا " [٢١] .

ومنها تصوير مشاهد يوم القيامة فى قوله تعالى :

" يا أيها الناس أتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهـــــل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى النـــاس ســـــكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شـــديد "[٢٢] .

هذه الصور التى صورتها الآيات القرآنية وغيرها الكثير . هى صور خلقــت فى الذهن صورة لهـــا ، " وإذا كانت قـــد خلقت فى الذهن صورة فليس هناك مـــا يمنع أن تصور هذه الصورة بريشة ، شرحًا للفكرة وتمكينًا لها ".[٢٣]

أما عن تحـــريم التماثيل للأشخاص فيرى الدكتور محمـــــد عمـــارة ان هـــذه القضية اختلف العلماء فيها إلى فريقين :

" الفريق الأول يتبنى تفسيرًا بأن حرمة هذه التماثيل تأتى من كونها معبـــــودة وهى بذلك تمثل شركًا بالله ، أما إذا لم تكن معبودة فإنها تكون مباحة وينطبق هذا الشرط الأخير على العصور التى تلت زمن النبوة المحمدية . ومن أشهر العلمــــاء المعاصرين الذين أباحوا التماثيل : الإمام محمد عبده وذلـــك عندمـــا زار صقليـــة وشاهد متاحفها وتماثيلها وكتب عنها فى مجلة "المنار" مشيرًا إلى أن تحريم التماثيل

---

(٢٠) سورة الحج آية٣١ .	(٢١) سورة الأحزاب آية ١٠ .
(٢٢) سورة الحج آية ١-٢ .
(٢٣) للأستاذ سيد قطب : " كتاب التصوير الفنى فى القرآن " ـــــ المصدر السابق .

مرتبط بتعظيمها وعبادتها ، أما إذا كانت لتخليد ذكرى العظماء فإنها تصبح جـزءًا من ذاكرة الأمة ولا حرمة فيها . وقد كانت التماثيل محرمة فـى بداية العصـر الإسلامى خوفـًا من عبـادتها ولهذا السبب أيضًا حطمها سـيدنا إبراهيـم عليـه السلام ، أما فى عهد سيدنا سليمان فكانت من نعم الله عليه حسبما ورد فى قولـه تعالى : "ومن الجن من يعمل بين يديـه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقـه من عـذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفـان كـالجواب وقدور راسـيات " . [٢٤]

أما الفريق الثانى فقد انطلق فى تحريمه للتماثيل من ظاهر عدة أحاديث نبوية تهاجم الصور والتماثيل . ولكن تحليل مجمل هذه الأحـاديث يؤكـد أن مصطلـح الصورة فى العهد النبوى كان المقصود به " الصنم المعبود " [٢٥].

وهذا الرأى للدكتور محمد عمارة والذى ذكره د.أحمد شلبى فى كتابه "بحوث فى الحضارة الإسلامية " كان بمناسبة خلاف الزعيم أحمد عرابـى الواسـع مـع الخـديوى توفيق مما دفعه للإيعاز إلى وكيل وزارة الدفاع (الجهادية) فـى ذلـك الوقت ليكتب خطابًا إلى المفتى للنظر فى مسألة هدم وحـرق الصنـم الموضـوع بالأزبكية (تمثال إبراهيم باشـا) خاصة وأن الإنجليز كانوا قد نزلوا بالإسـكندرية قبل ذلك بأسبوعين ويريد أن يستثير ويحث المسلمين على الجهاد . وكان رد المفتى عليه بقوله : "إن إقامة التماثيل مكروهة تحريمًا فهى ليست حرامًا حرمة مطلقـة ، ولكنها تدخل فى نطاق الكراهية المشـددة التى يعبر عنها الفقهاء بأنهـا كراهيـة تحريم ، وقد أضاف المفتى إلى فتواه شروطًا يندر توافرها فى التماثيل ، فقـال إن شروط كراهة التحريم أن يكون التمثال ظاهرًا دون حاجة إلى تـأمل وأن تكـون كاملة الأعضاء التى لا يعيش الإنسان بدونها . وقرر المفتى أن حكـام المسـلمين عليهم إزالة كل منكر فى بلادهم كالتعـامل بالربـا والقضـاء علـى دور البغـاء والخمارات والمظالم والحكم بغير ما أنزل الله ، وختم المفتى هذه الشروط بقوله إن إزالة هذه المنكرات أكد أى أشد ضرورة من إزالة الصور والتماثيل " .

---

(٢٤) سورة سبا آية ١٢-١٣ .

(٢٥) د. أحمد شلبى : " بحوث فى الحضارة الإسلامية " .

النظرة الإيمانية ومشاعرنا وأحاسيسنا الجمالية

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان فى هذا الكون وله حواس خمس يدرك بها الأشياء ، كما ميزه عن سائر المخلوقات بالعقل .

والأشياء التى لا تدرك بهذه الحواس لا يدركها الإنسان ، ولكن إذا أعمل فيها العقل ، يمكن إدراكها وقد لا يمكن إدراكها ، وبعض الأشياء التى لا يدركها الإنسان مع إعمال العقل ، فيها، يمكن إدراكها بالمعادلات الرياضية أو بواسطة الفن والخيال والتصور . فالأصوات ذات الترددات العالية والتى لا نسمعها لم نكن ندركها بالعقل أو الحواس الخمس قبل تقدم العلم .

ونظرية النسبية التى وضعها ألبرت إنشتين ، عرفها بالمعادلات الرياضية ولم يدركها عقله ولم يتصورها فقد كان مشغولاً بالمعادلات الرياضية التى قادته إلى أشياء لم يدركها عقله ولكن نتائجها تؤكد صحة هذه المعادلات.

فكأن هناك حقائق فى الكون لا يدركها الإنسان بحواسه الخمس ولا بالعقل ولكن قد يمكن إدراكها بالمعادلات الرياضية أو بواسطة الفن والخيال والتصور .

" ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه . قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين " . **(آية ١٤٣ سورة الأعراف) .**

يقول تعالى : "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " . والروح فى الإنسان نفخة من روح الله جل فى علاه . يقول تعالى عن آدم " فإذا سويته ونفخت فيه من روحى " .

وحقائق الكون التى لا تدرك بالعقل أو الحواس الخمس أو المعادلات الرياضية ، يمكن التعبير عنها بواسطة الفن والتصوير . وأحاسيسنا ومشاعرنا الدينية والجمالية والروحية هى النبع الصافى الذى نغترف منه . والتعبير عن أحاسيسنا ومشاعرنا الدينية والجمالية والروحية عند الفنان المؤمن غيرها عند

الفنان الغير المؤمن . فإبداع الفنان المؤمن وإنتاجـــه ، لا يخـــرج عـــن المفـــاهيم الإسلامية فلا يستقيم عنده الحب المحرم والإبداع الفنى ولا يستقيم عنـــده الجنـــس المحرم والإبداع الفنى . ونظرة الإسلام للحياة والكون نظرة عميقة فلا بد للفنـــون أن تعبر عنها . لابد للفنان أن يتذوق الجمال فى خلق الله ويبدعه والفنــــان الــذى يشعر بالحب لله جل فى علاه والحـــب للرسول صلى الله عليه وسلم ، لا بد أنـــه يحب خلق الله ، يحب الإنســـان والكون والحياة ويكون إبداعه متناغمًا ، يفيـــض بالحب والجمال . وأحاسيسنا الدينية والجمالية ، ليست مظاهر خادعة كمـــا يقـــول الماديون وأصحاب الفلسفة الوضعية امثـــال " أوجســـت كونـــت " و" دوركـــايم " وأصحاب المذهب العقلى الذى يمثله " كانت " وغيرهم الذيـــن يـــرون أن مصـــدر الأخلاق والقيم والمثل هو الإنسان نفسه وليس الدين الذى أنزله الله جل فى عـــلاه على الرسل والأنبياء فى كتبه السماوية .

على أن هذه الآراء المادية الغربية التى بدأت تنتشر منذ القرن السابع عشـــر فى أوروبا وتحكمت فى القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشـــرين ، وجدت من ينقضها ويقيم الحجة على زيفها وعدم عقلانيتها من الفلاسفة الغربييـــن أنفسهم فى العقـــود الأخيرة مـــن القـــرن العشـــرين أمثـــال " هوايتهيـــد " و "إيدينجتون" و " جيمس جينس " وغيرهم . يقـــول " إيدينجتـــون " المتوفـــى ســـنة ١٩٤٤م : " إن حقيقة أن العلم محدود بالمعلومات عن هيكل الأشـــياء حقيقـــة ذات أهمية قصوى – يعنى أنه يصف الأشياء ولا ينفذ إلى جوهرهـــا ، وإنمـــا يصـــف الهيكل الخـــارجى – إنها تؤكد أن الحقيقة الكاملة لا تزال غير معروفـــة ، وفـــى ضوء هذه الحقيقة لا يمكن الزعم الآن بأن أحاسيسنا أو تجربة اتصال النبى باللـــه ليس لهما موضوع خارجى " . ويقول عالم الرياضيات " جيمس جينـــس " الـــذى نشـــر كتابًا سنة ١٩٨٤م فهو من أحدث الكتب فى هذا الموضوع : "إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكينة عظيمة " (بمعنى أن مظاهر العقل فيه أقوى من المادة) ، إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر فى أفكارنا عن العـــالم ، تلك التى كنـــا قد أقمناها على عجـــل ، لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجـــــود قـــوى منظمـــة أو مهيمنة ..... وهذه القوى تشبه أذهاننا إلى حد كبير ، وهذا الشبه ليس من ناحيـــة

العواطف والأحاسيس وإنما هو شبه يتعلق بذلك النهج الفكرى الذى يمكننا تسـميته بالذهن الرياضى " .

هـذا وغيره من الكثير من آراء العلماء فى الغرب والشـرق والاكتشـافات العلمية الجديدة التى تؤكد أن الكون له بداية ونهاية ، كل ذلك وغيره جعل الفكـر الغربى فى عقـوده الأخيرة يعيد النظر فى الآراء التى كان يروج لها على مـدى عـدة قرون مثل " الدين الطبيعى " الذى اقترحه " أوجسـت كونـت " و " لا إلـه والحياة مادة " وغيرها من القيم المادية التى تنكر وجود الله جل فى عـلاه والتـى صاحبت نشأة الليبرالية الحديثة والعلماينة منذ القرن السابع عشر الميلادى . وقـد أشار إلى ذلك أحد المفكرين الغربيين فى إحدى الندوات التى تعقد عـن الإسـلام والغرب فى العقد الأخير بقوله : إن العلمانيـة لابد أن تبحث لها عن معتقد دينى .

ثالثا : وحدة الفن الإسلامى

عند البحث فى الفنون الإسلامية من عمارة وفنون زخرفية وغيرها يتضح لنا أن هناك روحًا واحدة تسرى فى مختلف هذه الفنون وتجمع بينها ، وأن هناك خصائص مميزة واحدة تتميز بها هذه الفنون المتعددة وتشكل وحدتها . هذه الروح وهذه الخصائص المميزة ما هى إلا روح الإسلام ومفاهيمه ومعطياته . ووحدة الفن الإسلامى تكونت عمليًا نتيجة لتأثير مفاهيم الدين الإسلامى على فنون الشعوب العديدة التى دخلت الإسلام وكونت العالم الإسلامى . وساعدت على ذلك تلك الوحدة السياسية التى كان العالم الإسلامى يعيش فى كنفها طوال العصر النبوى وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى وشطر كبير من العصر العباسى والعصر العثمانى . ففى ظل الوحدة السياسية التى كانت تجمع أجزاء العالم الإسلامى من الأندلس والمغرب العربى إلى أقاصى الهند والصين حيث نشأت هناك وقامت دولة واحدة وخليفة أو أمير للمؤمنين واحد ، ولغة واحدة وعاصمة واحدة وقوانين وثقافة ونظام للقضاء والولاة والاقتصاد كالزكاة وبيت المال، ونظم اجتماعية واحدة وعقائد وعبادات واحدة . ومع نشاة وقيام هذه الميادين فى الدولة الواحدة نشأت وقامت الفنون الإسلامية من فنون العرب والفرس والروم والبربر وهى فنون الشعوب التى دخلت الإسلام وكونت الدولة الإسلامية الواحدة . وكان ولاة الأقاليم يرسلون الصناع المهرة وأصحاب الحرف والصناعات والفنون المتميزة مع بعض أدواتهم وإنتاجهم إلى عاصمة الخلافة . وفى عاصمة الخلافة انصهرت فنون وصناعات مصر والشام والعراق والجزيرة العربية والمغرب العربى وفارس والصين وغيرها ، انصهرت فى بوتقة الإسلام وخرجت صناعات وفنون إسلامية أعيد نشرها إلى جميع الأقاليم فى العالم الإسلامى .

وهكذا كانت تنتقل الأفكار الجديدة فى العمائر وأشكال الزخارف وأساليب التصميم فى العمارة وأنماط الخط وزخارف ومواد وأشكال النسيج والصناعات الجديدة وغير ذلك فى مختلف أنواع الفنون التى كانت تنتقل بسرعة من مكان لآخر فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

كما ساعد على قيام وحدة الفن الإسلامى اللغة العربيـــة والكتابـــة العربيـــة . وترجع أهمية اللغة العربية وما اكتسبته من تكريم إلى أنها لغة القـــرآن الكريـــم ، ولذلك أصبحت عاملاً مشتركًا ورباطًا مميزًا فى كل أعمال الفـــن فكـــانت اللغـــة العربية والخط العربى ، وكتابة الآيات القرآنية الكريمة فـــى المســـاجد والعمـــائر والتحف والقراطيس والطرز والنسيج وغيرها عاملاً مميزًا تمتاز به الأعمال الفنية.

وكذلك رحلات الحجيج حيث كانت وما زالت من وسائل نقل الأفكار الجديـــدة فى المجالات المختلفة ، كما كانت رحلات المواطنين والتجار والرحالة والشـــعراء وتنقلهم بحرية فى أرجاء العالم الإسلامى من عوامل انتشـــار الفنـــون الإســـلامية ووحدتها .

وتعتبر المساجد رمزًا للفكر الإسلامى ، ببساطتها ، ونظافتها والآيات القرآنية التى تكتب على جدرانها بالخط العربى المميز وفنون الزخرفـــة الإســـلامية علـــى منابرها ومحاريبها وغير ذلك من الأعمدة والأقواس والقباب والمآذن بأشـــكالها ، وعناصر الزخـــرفة النباتية والحيوانية على أبوابها وفتحات النوافذ التـــى تشـــكل علامة جمالية مع الجدران والزجاج الملون الذى يستخـــدم فـــى هـــذا المجـــال ، والرخام والجص ، والفسيفساء وبلاط القيشانى فى أعمدتها وجدرانها وأرضيتهـــا ، كل ذلك أضفى على المســـاجد الجلال والروعة والجمال . وبذلك كانت المســـاجد من أهم عوامل وحدة وانتشار الفن الإسلامى . ومن الخصـــائص المميـــزة التـــى تتميزبها الفنون الإسلامية والتى تشكل عاملاً هامًا فى وحدتها هذا الاتجاه العظيـــم نحو استلهام مفاهيم الدين الإسلامى ، فى الأعمال الفنية فبعد أن إتسعت الفتوحات الإسلامية وازداد الثراء والغنى كان على الفنان المسلم أن يبدع أعمالاً فنيـــة مـــن خامات بسيطة رخيصة ليست ثمينة تمشيًا مع مفاهيم التقشـــف والزهـــد وتحريـــم الأوانى الفضية والذهبية فكان ابتكار الخزف ذى البريق المعدنى وهو نـــوع مـــن الخـــزف لم يعرف إلا فى الفن الإسلامى ، وأتاح ذلك صناعـــة أوانـــى خزفيـــة رخيصة ذات بريق معدنى ، بديلاً لأوانى الذهب والفضة .

وتجلى ذلك الاتجاه بأجلى صوره ، باستعمال الفنان المسلم لأرخص الخامات كالطين أو الجص أوالخـــزف ، وأثراها بالنقوش والزخرفة ، ممـــا جعـــل هـــذه

المحــاريب فى قمة الجلال والجمال فى الوقت الذى كانت فيه الدولة مــن الــثراء بحيث يمكنها أن تستعمل أنفس المعادن الثمينة لهذا الغرض . ومــن أمثلــة ذلــك محراب (مسجد السيدة رقية) الموجود الآن بالمتحف الإسلامى بالقاهرة (من العصر الفاطمى – القرن الثانى عشر الميلادى) . ومن الخصائص المميزة التى تتميز بها الفنون الإسلامية أيضًا كراهــية الكائنات الحيــة والتمــاثيل . وكذلــك الاهتمــام باستعمال الزخارف الهندسية والنباتية والخطية .

وكذلك من الخصائص المميزة لهذه الفنون الاتجاه نحو التجريد والنظر إلــى المطلق والمجرد وليس محاكاة الأشياء تمشيًا مع النظرة الإيمانية المطلقة لعظمــة الله سبحانه وتعالى وأنه هو الخالق البارئ المصور جل فى علاه . فالفن الإسلامى ليس من وظيفته نقــل المرئى ، بل إظهار ماهو غير مرئى ، ومحاولة الإحســاس بالقوانين الرياضية التى تحكم الوجود ، ومن هنا اتجه الفن الإسلامى إلى الهندســة والأشكال الهندسية وهذا ليس معناه إلغاء الإحساس بالطبيعية ولكن إدراكها إدراكــا واعيًا موازيًا ومؤكدًا لوجودها فالفنان المسلم يواجه الطبيعة ويتناول عناصرهــا ويقوم بتفكيكها إلى عناصرها الأولية ليقوم بتركيبها من جديد فى صــورة جديــدة عذبة ذات موسيقية رائعة ، وهو لا يتجه إلى محاكاة الطبيعة ، فهذا ليــس هدفًــا يسعى إليــه . ويجمع كثير من الفنانين اليوم على أن الفن يبدأ عندما يأخذ الفنــان فى الانصراف عن محاكاة الطبيعة ويأتى بفن ووزن وإيقاع جديد .

كانت هذه هى العوامل التى ساعدت فى تكوين الفن الإسلامى . وكمــا هــو واضح فإن الدين الإسلامى بمفاهيمه ومعطياته كان هو سبب هذه الوحــدة ومــن العوامل المساعدة أيضا فى وحدة الفن الإسلامى ما قام به الخلفاء والأمــراء فــى الحفاظ على هذه الوحدة وإنتشارها وماقام به الخليفة الأموى عبد الملك بن مــروان معروف ومشهور ، فقد روته مصادر عديدة ولا بأس من إيراده فى هذا المجــال ، فقد جاء فى كتاب المحاسن والمساوئ للإمام إبراهيم البلهقى : " إن الكسائى دخــل على هــارون الرشيد ذات يوم وهو فى إيوانه وبين يديه مال كثير قد شــق عنــه البدر شقًا وأمر بتفريغه وتفريقه على خاصة المراقبين من رجال دولتــه ، وبيــده درهمًا عليه كتابة وهو يتأمله. ويقول الكسائى كان الرشيد كثيرًا ما يحدثنى فقال :

هــل علمت أول من ســن هذه الكتابة على الدراهم والدنانير من ذهب وفضــة ؟ قلت : سيدى هو عبد الملك ابن مروان . قال : فما كان المسبب فى ذلك ؟ قلـت : لا أعلم غير أنه أول من أحدث هذه الكتابة ، فقال الرشيد سأخبرك ..

وقص القصة التى ملخصها :

" بينما كان عبد الملك بن مروان فى مجلسه إذ مر به ورقة من أوراق البردى (قرطاس) التى كانت تصنع فى مصر وتصــدر إلى بــلاد الــروم ، فنظــر فــى طرازه [٢٦] وأمر أن يترجم إلى العربية ، ولما ترجم وجد مكتوبًــا عليــه عبــارة التثليث المسيحية (الأب ، الابن ، الروح القدس) فاستاء عبد الملك بن مروان وقال: ما أغــلظ هــذا فى أمر دين الإسلام ، وكتب إلى عــامله فى مصر عبد العزيــز ابن مروان ليبطل ذلك عن الثياب والقراطيس والستر وسواها ، وأن يأمر الصناع هناك أن يستبدلوا ذلك بعبارة " شهد الله أنه لا إله إلا هو " وأمر أن توجه رســائل إلى جميع عماله فى الأقاليم المختلفة فى بلاد الإسلام و يبطلوا كل شىء لايحمــل شعار الإسلام ويعاقبوا كل من يخالف ذلك بالضرب الموجع والحبس الطويل ، ولما وصل الخبر لملك الروم وعلم بما اتخذ من شعــارات جديدة اشتاط غضبًا وكتــب إلى عبد الملك بن مروان وأرسل له هدية عظيمة الشأن مع رسول .

فلما قرأ عبد الملك بن مروان رسالة ملك الروم رد الرسول بالهدية وأعلمه أنه لاجواب ، فما كان من ملك الروم إلا أن أمر بمضاعفة الهدية وإرسالها ثانية إلــى عبد الملك مع رسالة جديدة قال فيها : وإننى ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها ولــم تجبنى على كتابى فزدتك فيها . وإنى أرغب أن ترد الطرز إلى ما كان عليه .

لكن عبد الملك بن مروان رد الهدية ولم يجب على رسالته فكتب إليــه ملــك الروم : قد استخففت بكتبى وهديتى وهأنذا أضاعفها لك للمرة الثالثة وأستحلفك أن ترد الطرز إلى ما كانت عليه ، وإلا أمرت بنقش الدراهــم والدنانير ، وأنت تعلــم أنه لاينقش منها شىء إلا فى بلادى – وسوف ينقش عليها شتم نبيك ، فإذا قــرأته

---

(٢٦) هذه القصة روتها كثير من المصادر
الأستاذ عمير القيمرى : "مجلة الفكر الإسلامى " ، السنة السادسة (صفر ١٣٩هــــ- آذار ١٩٧٥م) .

تصبب وجهك عرقًا . فلما قرأ عبد الملك بن مروان الرسالة أصابه هم كبير فسوف تحمل الدنانير سبًا للنبى صلى الله عليه وسلم وتتداول فى شتى أقطار الدولة الإسلامية فتكون سبة فى التاريخ يحملها عبد الملك بن مروان أبد الدهر . وأخذ عبد الملك بن مروان بتدبير الأمر مع مستشاريه وأخيرًا اهتدى إلى الحل ، فاستدعى جميع الصناع على عجل فأمرهم بسك دراهم ودنانير إسلامية ، وجعل لها مثاقيل مناسبة ومختلفة وجعل نقوشها سورة التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد وجهيها ، مع ذكر السنة والمكان الذى ضربت فيه ، وجعل فى نفس الوقت يماطل رسول ملك الروم حتى تم له صنع الدنانير والدراهم الإسلامية وأمر بتوزيعها على شتى أقطار الإسلام وأمر بإبطال ماعداها من نقود ، ثم فاجأ الرسول بما فعل ورده خائبًا فلما علم ملك الروم بما فعله عبد الملك بن مروان ملأ قلبه الغيظ والحقد فأشار عليه أحد خاصته بأن ينفذ ماهدد به عبد الملك بن مروان ، فلم يفعل لأنه وجد أن لا فائدة من ذلك بعد أن صك عبد الملك بن مروان العملة الإسلامية " .

وهذه الحكاية وغيرها تنير لنا الطريق ، فى أهمية المحافظة على وحدة الفن الإسلامى. وتدلنا على أهمية المحافظة على وحدة الثقافة العربية وماقام به هؤلاء الخلفاء والأمراء العظام فى المحافظة على وحدة الثقافة العربية ووحدة الفنون الإسلامية مهما كلفهم ذلك من مشاق وجهد وصبر .

ولا شك أن الفنون الإسلامية فى العصر الحديث قد توارت وتمزقت وحدتها نتيجة لغزو الفنون الغربية ، التى حلت محلها ، وتكاد تقضى عليها وعلى وحدتها .

والدعوة إلى إقامة فنون إسلامية تحمل المفاهيم الاسلامية فى العصر الحديث ، تلاقى تأييدًا كبيرًا من المسلمين ، فليس الرفض وانتقاء ما يشاهد وما لا يشاهد فى التلفاز فى العصر الحديث بكاف فى هذا المجال . وقد بدأت بعض الدول الإسلامية مثل جمهورية إيران الاسلامية فى إنتاج فنون تحمل المفاهيم الاسلامية فى العقد الأخير .

رابعا : التعدد والتنوع فى الفنون الإسلامية :

وفى ظل الوحدة التى سادت الفنون الإسلامية بمختلف أنواعها والتي ظلت تتميز بها فيالعصور التاريخية المختلفة وحتى الآن ، فإنه كان هناك تعدد وتنوع في الفنون ، وتعدد وتنوع فى كل فن من الفنون ، وتعدد وتنوع فى الفنون تبعا لتعدد العصور الإسلامية والبلاد الإسلامية . وسوف نشير إلى ذلك فى سياق هذا الموضوع الذى يشمل : -

١- مجال الفنون الحركية والألعاب .

٢- الموسيقى والغناء .

٣- الفنون التشكيلية .

١- فى مجال الفنون الحركية والألعاب :

وهذه المجموعة من الفنون يطلق عليها البعض "ألعاب التسلية وتزجية الفراغ"(٢٧).

وهى مجموعة كبيرة من الفنون والألعاب التى كانت شائعة ومنتشرة فى البلاد الإسلامية المختلفة طوال عصور الإسلام المختلفة . ومعظم هذه الألعاب كان يمارسها الأفراد والشعوب قبل دخولها فى الإسلام وخاصة الشعوب الفارسية والهندية. ولما دخلت هذه الشعوب الإسلام أصبحت هذه الفنون والألعاب فنونا إسلامية بعد إصطباغها بالصبغة الإسلامية وانتشرت فى بقية العالم الإسلامى مثل مسرح خيال الظل أو مسرح الدمى ، وهو فى الأصل لعبة هندية ، وعندما انتقلت إلى عاصمة الخلافة الإسلامية فى بغداد ، انتشرت منها إلى جميع البلاد فى العالم الإسلامى وظلت تتطور عبر مراحل التاريخ حتى وصلت إلينا فى العصر الحديث بأساسيات الصورة الأولى التى كانت عليها .

---

(٢٧) د. أحمد عبد الرازق أحمد : "دراسات فى الحضارة الإسلامية " " التسلية عند المسلمين"، المجلد الأول .

وكثير من هذه الفنون والألعاب تدخل فى مجال الرياضة البدنية فى العصـــر الحديث مثل المشى على الحبال وسباق الجرى وسباق الخيل والمصارعة وغيرها .

وبعض هذه الفنون كان مصدرها الجزيرة العربية مثل الشعر والأدب وسباق الجرى الذى كان يمارسه الرسول صلى الله عيله وسـلم والصحابـة . إذ تحكـى السـيدة عائشة رضى الله عنها "سابقنى الرسول صلى الله عليه وسلم فسـبقته ، ثم عاد وسابقنى بعد أن أرهقنى اللحم، فسبقنى ، فقال : هذه بتلك "[٢٨] .

وكذلك الصيد والقنص ، والسباحة، والرماية بالسهم والنشاب والحربة والبندق والمصارعة والتى عرفها العرب قبل وبعد الإسلام . ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صارع ركانة بن عبد يزيد بن هاشـم وكان ركانة معروفـًا بقوتـه الفائقة ، فصارعه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فصرعه فيها وأسـلم ركانة بعد الثالثة[٢٩] . وظلت هذه اللعبة على مر العصور الإسلامية منتشرة كوسيلة من وسائل التسلية وتزجية الفراغ . وكان لها ميادين للممارستها . وكان يمارسـها العامة والخاصة وترصد للفائز الجوائز .

وكذلك سباق الخيل وألعاب الفروسية . ويقال أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب الخيل ويجريها، ويسابق عليها ، ويراهن عليها أيضـا [٣٠] ويـروى أن عمر بن الخطاب قد أمر بالسباق فى الكوفة [٣١] واهتم بنو أميـة بسـباق الخيـل وأقاموا الحلبات للسباق مثل الوليد بن عبد الملك وأخوه سليمان . ويقال أن أخوهما هشام "اجتمع له فى إحدى حلبات السباق من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فـرس ولم يعرف ذلك فى جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس [٣٢] " .

---

(٢٨) د.أحمد شلبى :"موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، الحياة الاجتماعية" جـ٥، ٢١٥ .
(٢٩) د.أحمد عبد الرازق أحمد: "دراسات فى الحضارة الإسلامية"، المجلد الأول "التسلية عند المسلمين" .
(٣٠) المصدر السابق . (٣١) المصدر السابق .
(٣٢) المسعودى مروج الذهب جـ٣ صـ٢٠٥ –المصدر السابق .

ويقال أن لعبة الكرة والصولجان التى كانت منتشرة فى العصر العباسى ترجع إلى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . وزعمت بعض الكتابات أن الرسول صلى الله عليه وسلم مارس هذه اللعبة (٣٣) .

ولعبة الكرة والصولجان تعتبر من ألعاب الفروسية فهى تسلية وتزجية لأوقات الفراغ وتمرين للكر والفر فى وقت الحروب .

كما أن بعض الفنون ترجع مصادرها إلى الشعوب المختلفة التى دخلت فى الإسلام . وكان كل فن جديد غالبًا ما يمارس فى العاصمة ثم ينتشر منه إلى بقية الأقاليم مثل مسرح الدمى أو مسرح العرائس المعروف الآن . ومسرح الدمى أو مسرح العرائس يرجع إلى العصر العباسى ، فقد عرف لأول مرة فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ومنها انتشر إلى بقية الأنحاء مثل مصر والشام والمغرب والأندلس وغيرها . ويرجح أن مصدر هذه اللعبة الهند القديمة ، ويرى أحمد تيمور أنها نشأت فى الشرق الأقصى وانتقلت للهند (٣٤).

يرجح أن الشعوب الهندية التى دخلت الإسلام هى التى جاءت بهذا الفن . وتذكر بعض المصادر أنه كان لأحد طهاة الخليفة المأمون ابن يسمى عبادة، وكان خفيف الظل لطيف المعشر، حاضر البديهة ، فقال له الشاعر دعبل يوما:والله لأهجونك قال : "والله لئن فعلت لأخرجن أمك فى الخيال" (٣٥).

يقصد مسرح الدمى ، فقد كان مسرح الدمى أو مسرح العرائس يعرف حينذاك باسم شخوص خيال الظل أو ظل الخيال أو طيف الخيال أو مسرح الدمى، وكان عبارة عن عمودين من الخشب يمتد بينهما قماش أبيض تحرك العرائس المصنوعة من الجلد خلفه .

ويوجد فيه متحف برلين القسم الإسلامى ، بعض العرائس المخرمة المصنوعة من الجلد تنسب للعصر المملوكى وأحدها يمثل فارس بيديه صقر (صيد الصقور).

---

(٣٣) المصدر السابق .
(٣٤) المصدر السابق .
(٣٥) المصدر السابق .

وقد عثر المستشرق (بول كاله) سنة ١٩٠٩م على مجموعة من المخطوطات بالقاهرة ومن بين هذه المخطوطات، بعض تمثيليات خيال الظل فى مصر أثناء الحروب الصليبية . ففى مخطوط "حرب العجم" أو " لعبة النار " نجد تمثيلية عن الحروب الصليبية ، فيها شحذ للهمم والكفاح ، وحب الظفر بالنصر، والتغنى به والدعوة للجهاد فى الحروب الصليبية ، وكذلك يوجد مخطوط عن تمثيلية " لعبة التمساح" وغيرها من تمثيليات خيال الظل [٣٦].

أما لعبة "الكرة والصولجان "، وتعرف أيضا بلعبة الكرة أو الأكرة وغيرها من الأسماء . والصولجان هو العصى الذى تضرب به الكرة ، وهو معقوف فى طرفه ويعرف أيضا بالجوكان . والكرة كانت تصنع من مادة خفيفة كالفلين ، وينقسم اللاعبون إلى قسمين . ومكان اللعب ميدان فسيح ويمتطى اللاعبون ظهور الخيل ، وفى يد كل لاعب صولجانه وكانت الكرة توضع فى وسط الميدان ، يكون اللعب بأن يحاول كل فريق أن يحوز الكرة إلى جانبه ، والذى ينجح فى ذلك تكون له الغلبة .

ويرجح أن هذه اللعبة ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد حيث ظهرت لأول مرة فى بلاد الفرس ومنها انتقلت إلى بلاد العرب وقد لعبها هارون الرشيد ، وكان الخليفة المعتصم مغرمًا بها . ويروى أنه قسم أصحابه إلى فريقين وجعل الأفشين فى جهة ، وهو فى جهة فقال الأفشين : "يعفينى أمير المؤمنين من هذا " فقال : "ولما ؟ " قال : " لأنى ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين فى جدل وهزل " فاستحسن ذلك منه وجعله فى فريقه" [٣٧].

وقد زار الرحالة تافور مصر زمن المماليك الجراكسة وشهد لعبة "الكرة والصولجان" ووصف هذه اللعبة وقال إن الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسمًا ومخططًا بخطوط بيضاء[٣٨]. وكان المشاهدون يتجمعون خارج الميدان .

ومن ألعاب الفروسية أيضًا لعبة القبق وهى كلمة تركية معناها القرعة العسلية . وكانت توضع القرعة العسلية معلقة بحبل بين عمودين من الخشب فى

---

(٣٦) د. نعمات أحمد فؤاد: " دور مصر فى الحضارة الإسلامية " . "كتاب دراسات فى الحضارة الإسلامية " ، المجلد الثانى .

(٣٧) المصدر السابق . (٣٨) المصدر السابق .

ميدان اللعب ، أو توضع القرعة العسلية فى مركز دائرة قطرها عشرة باعات ، ثم يأتى اللاعبون والخيل مسرعة وهم على ظهورها ويرمونها بالنشاب والسهام أو يرمون فى السماء ليصيبوا القرعة العسلية على الأرض ، وكانت كل هذه الألعاب لها قواعد وأصول يجب أن يتقيد بها اللاعبون ، وكان النظارة يتجمعون حول ميدان اللعب لمشاهدة الفرسان ، ويشجعون الفارس .

وقد انتشرت ميادين هذه الألعاب في شتى الأقطار على مر العصور وكان الأمراء والسلاطين يشجعون الناس على ممارستها ويرصدون جوائز للفائزين .

ومن الألعاب التى مارسها العرب للتسلية وقت الفراغ اللبخة وتعرف أيضًا بلعبة التحطيب ، وهى مثل لعبة التحطيب التى تمارس حاليا فى صعيد مصر والتحطيب على ظهور الخيل . وكذلك استعمال الكلاب ، والفهود والصقور فى الصيد والقنص . وكان يزيد بن معاوية يدرب الفهود لتجلس على أكفال الجياد . وكانوا يستعملون الكلاب والفهود فى صيد الغزلان وحمر الوحش وغيرها كما كان الأمين مولعًا بصيد السباع بصحبة الفرقة المعروفة بأصحاب اللبابيد [٣٩] .

وكذلك أولع خمارويه بصيد السباع فى مصر زمن الطولونيين . ويقال إنه كان معه رجال يلبسون اللبود ويمسكون بالأسد حيا ويضعونه فى أقفاص محكمة حيث يعرض للعامة للمشاهدة .

وكذلك الرمى بالبندق الذى كان يصنع من الطين أو الحجارة أو المعادن وكان منتشرًا فى شتى الأقطار فى جميع العصور ، ويقال أن العرب أخذوه عن الفرس فى زمن الخليفة عثمان بن عفان. كما كان عند الخليفة هارون الرشيد فرقة تعرف بالنمل كانت تسير بين يديه للرمى بالبندق على من يقف فى طريق موكبه . وكان رماة البندق يتسابقون فى رمى الطيور خارج المدن . وكان الرمى بالبندق من الكثرة حتى إنهم كانوا يقولون فى الأمثال " من كثرت بنادقه رمى طير الماء " وكان منتشرًا فى شتى البلاد الإسلامية على مر العصور.

---

(٣٩) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ صـ٢١٣ .

وكذلك من وسائل التسلية لعب النرد والشطرنج والورق وكذلك لعبة القــراح وهى شبيه بلعبة الكريكت ، ولعبة الطبطاب وهى تشبه لعبة التنس وكــان يلعبهــا الخليفة هارون الرشــيد .

وكذلك الحركات البهلوانية مثل المشى على الحبال . وقد انتشرت هذه اللعبة فى العصر المملوكى وكان الحبل يشد بين مئذنتين أو بين جبلين على ارتفاع مائــة ذراع أو يزيد . وقد وصف المقريزى أحد هذه الألعاب البهلوانية على الحبل الــذى نصبه أحد هواة هذه اللعبة من مئذنة السلطان حسن إلى الأشرفية فى القلعة . وقــد جلس السلطان الأشرف برسباى لمشاهدته واجتمع الناس من كل حــدب وصــوب لمشاهدة هذه اللعبة التى أتى فيها اللاعب بألعاب بهلوانية خطيرة [٤٠].

وصفها المقريزى بأوصاف تدل على أنها نفس ألعاب الحبل الموجــودة الآن مثل حمــل اللاعب لقضيب أو عمود لحفظ توازنه وما شابه ذلك . وكذلــك كــان هناك صراع الكباش ، وسباق الحمام ، ومهارشة الديوك ، والسمان والقبــج [٤١]، وألعاب الدببة والحواة والقرود وغيرها من الألعاب .

وبعض الأمراء كان يحتفظ بحديقة حيوانات مصغرة يتفــرج عليهــا النــاس ويتسلون بمشاهدتها وكانت حيواناتها من حصيلة هواية الصيد والقنص التى كــانت منتشرة بصورة كبيرة على مر العصور . ويذكر المقريزى أن الأمير تنكز أمــير الشام كانت حصيلته فى الصيد فى إحدى الرحلات ثلثمائة غزال ونيــف ومــائتى رأس من بقر وأنعام وغيرها [٤٢].

وقد شهد ليوناردو فى سنة ٧٨٦هـ - ١٣٨٤م أكثر من خمسة آلاف خيمــة فى موكب السلطان الظاهر برقوق عند عودته من إحدى رحلات الصيد [٤٣] .

---

(٤٠) المقريزى السلوك جـ٤ صـ ٧١٢-٧١٤ .
(٤١) طيور تسكن الجبال . القزوينى عجائب المخلوقات صـ ٢٥٥ .
(٤٢) المقريزى السلوك جـ٢ صـ ٥١١-٥١٢ .
(٤٣) د. أحمد عبد الرازق أحمد : كتاب دراسات فى الحضارة الإسلامية التسلية عند المسليمن .

٢- الغناء والموسيقى :

تعدد الآراء فى الموسيقى والغناء :

الغناء فى مفهومه هو كلمات ، ولحن ، وآلات للعزف ، والمؤدى أو المغنى الذى يؤدى الكلمات الملحنة .

فكل الآراء تجمع على أن الغناء كفن ليس فيه خلاف، أما اختلاف الآراء فيرجع إلى نوعية عناصر الغناء ، الكلمات والألحان ، وآلات العزف والمغنى . وكذلك من أسباب الخلاف مدى الاهتمام بالغناء أى مدى الاستغراق فى الطرب والغناء ومدى تأثير ذلك على ما يقوم به الإنسان من سائر الأعمال وخاصة العبادات التى فرضها الله سبحانه وتعالى على الإنسان . وبمعنى آخر الاهتمام الزائد بالطرب والغناء والموسيقى أى ما يجب أن يشغله حيز اللهو والطرب فى حياة الإنسان السوى العادية . فالاهتمام الزائد والمبالغ فيه بالموسيقى والغناء مثلما نشاهده الآن فى الثقافة العربية والثقافات الأخرى ، هو الآخر من أسباب تعدد الآراء فى الموسيقى والغناء ، وتحت إطار هذا المفهوم للموسيقى والغناء تعددت الآراء وتنوعت ويمكن تقسيمها إلى الفرق الآتية : -

الفريق الأول : -

يرى هذا الفريق أن الموسيقى والغناء دائمًا مرتبطة بالشراب المحرم والتبذل والمجون ورقص الجوارى والإماء الخليع . وكانت بعض مجالس الموسيقى والغناء وخاصة مجالس الأمراء والحكام والأثرياء مرتبطة دائما بهذه المخالفات لشرع الله ، فقد أفاضت كتابات عديدة بالنقد والرفض لما يحدث فى هذه المجالس . وكانت الشعوب والمجتمعات لاتقر ارتباط الموسيقى والغناء بممارسات الرقص الخليع والشراب المحرم والتهتك والتبذل ، وكان القائمون بالموسيقى والغناء والرقص فى معظم الأحيان من الجوارى والإماء والعبيد وعدد قليل من الأحرار.

وكان المغنون أو الموسيقيون من غير الجوارى والعبيد وخاصة من يمتهنون هذه الفنون يخجلون من هذه المهنة ويستخفون عن الناس ولايصرحون بهواياتهم أو مهنتهم لارتباط هذه الفنون بالمحرمات فى أحايين كثيرة على مر التاريخ الإسلامى . ويذكر أبو حيان التوحيدى فى إحدى مقابساته وهو يحصى هو وجماعة من أصحابه عدد المطربين والعازفين فى بغداد ، أن بعضهم من

غير القينات والعبيد كان يتخفى ويرسل جواسيسه وحراسه فلم يستطع معرفتهم ليحصيهم .

ويرى هذا الفريق أن الموسيقى والغناء فى مختلف العصور لم يتغير وضعها ، فلازالت متلبسة بالمحرمات حتى الآن سواء كان سبب ذلك يرجع إلى الكلمات المبتذلة التى تحض على الجنس المحرم ، أو الألحان أو المغنيات وتهتكهن وخلاعتهن ، أو ما يصاحب تلك الفنون من شراب وسكر، أو الاستغراق فى قضاء أوقات طويلة فى اللعب والسماع لتلك الفنون التى تلهى عن العبادات ، يقول الإمام الشافعى فى كتاب أدب القضاء : الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته " . والإمام مالك نهى عن الغناء وعن استماعه وقال : " إذا اشترى جارية فوجدها مغنية ، كان له أن يردها بالعيب " .

أما الإمام أبو حنيفة فإنه يكره الغناء ويجعله من الذنوب . وكذلك مذهب أهل الكوفة : سفيان ، وحماد وإبراهيم والشعبى وغيرهم .

ويقول المولى سبحانه وتعالى : " ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرًا فبشره بعذاب أليم" [٤٤].

وقد قال بعض المفسرين إن المقصود بلهو الحديث هو الغناء فمنهم البغوى ، والواحدى والقرطبى ، والإمام الطبرى ، وعزاه إلى جابر ومجاهد وسعيد بن جبير . وروى ثور بن أبى فاختة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله تعالى " ومن الناس من يشترى لهو الحديث " قال هو الرجل يشترى الجارية تغنيه ليلا ونهارا وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد " هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل " وهذا قول مكحول وابن إسحاق أيضا .

وقد روى ابن جرير فى تفسير الآية أقوالاً كثيرة عن الصحابة والتابعين وروى حديث أبى أمامة من وجوه عدة ثم قال : والصواب فى القول فى ذلك أن يقال :

---

(٤٤) سورة لقمان آية ٦-٧ .

عنى به كل ماكان من الحديث ملهـيًا عن سبيل الله ممـا نهى الله عن اسـتماعه أو رسـوله . لأن الله سبحانه وتعالى عنى بقوله " لهو الحديث " ولـم يخصـص بعضًا دون بعض فذلك على عمومه حتى يأتى ما يدل عليـه علـى خصوصـه ، والغناء والشرك من ذلك .

وقال الواحدى : أما غناء القينات فذلك أشـد ما فى الباب وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه وهو ما روى عن النبى صلى الله عـليه وسلم قال : " من استمع إلـى قينة صب فى أذنيه الأنك يوم القـيامة " . وقال السيوطى عن هذا الحديث : رواه ابن عساكر عن أنس وهو ضعيف . ورواه الإمام بن المبارك عن مالك بن أنـس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

يقول الأستاذ سيد قطب فى الظلال فى تفسير " لهو الحديث " : منهم من فسره بالغناء ومنهم من فسره مما كان النضر بن الحارس يحدث به أهل مكة ، يشغلهم به عن القرآن الكريم مثل أخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ونحو ذلك.

ويقول : " ولهو الحديث كل كلام يلهى القلب ويأكل الوقـت ولايثمـر خـيرًا ولايؤتى حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلف فى هذه الأرض لعماراتها بالخير والعدل والصلاح . هذه الوظيفة التى يقرر الإسـلام طبيعتها وحدودها ووسـائلها ويرسم لها الطريق . والنص عام لتصوير نموذج من الناس موجود فى كل زمـان ومكان .

وبعض الروايات تشير إلى أنه كان تصويرًا لحـادث معيـن فـى الجماعـة الإسلامية الأولى . وقد كان النضر بن الحارس يشترى الكتـب المحتويـة علـى أساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ، ثم يجلس فى طريق الذاهبين لسـماع القـرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم محاولاً أن يجذبهم إلى سـماع تلك الأساطير والاستغناء بها عن قصص القـرآن الكريم . ولكن النص أعم مـن هذا الحادث الخاص إذا صح أنه ورد فيه . وهو يصور فريقـًا من الناس واضـح السمات قائمًا على كل حين وقد كان قائما على عهد الدعوة الأولـى فـى الوسـط المكى الذى نزلت فيه هذه الآيات "ومن الناس من يشترى لهو الحديث...." ويشتريه بوقته ويشتريه بحياته يبذل تلك الأثمان الغالية فى لهو رخيص ، يفنى فيه عمـره

المحدود الذى لا يعاد ولا يعود يشترى هذا اللهو ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذوها هزوًا فهو جاهل محجوب ، لا يتصرف عن علم ولا يرمى عن حكمة ، وهو سيىء النية والغاية يريد أن يضل عن سبيل الله يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذى ينفق فيه الحياة وهو سيىء الأدب يتخذ سبيل الله هزوًا ويسخر من المنهج الذى رسمه الله للحياة وللناس[٤٥].

ويرى هذا الفريق أن أفضل غناء هو التغنى بالقرآن الكريم (فقد قالوا لابد للناس من طرب واشتياق للغناء يروحوا بهما عن النفس ساعة الفراغ ولما كان الإسلام دين الفطرة يراعى النفوس البشرية وغرائزها ويحترم رغباتها الفطرية فقد عوضنا عن طرب الغناء الباطل بطرب القرآن كما عوضنا عن كل محرم ومكروه بما هو خير لنا منه" [٤٦] كما أن الغناء واستعمال الدف فى النكاح وفى الأعياد وعند قدوم الغائب وغيرها مباح وكذلك الحداء فهو مباح فى رأى هذا الفريق .

الفريق الثانى :-

يرى هذا الفريق أن الموسيقى والغناء من أشهر أنواع الفنون ، والسماع للموسيقى والغناء حلال ، وتحرم إذا كان سماعًا لشئ غير حلال ، أو أدى بطريق انحراف به عن الحلال فيمتنع إذا ترتب عليه فتنة أو ترتب عليه حرام كشرب الخمر، أو تضييع الوقت ، وانصراف عن أداء الواجب . ويقول الإمام الغزالى : " والقول بأن السماع حرام معناه أن الله يعاقب عليه . وهذا لا يعرف بمجرد العقل بل بالنص . فمعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على نصوص ، ولم يستقم فى هذا المجال نص ولا قياس ، وبهذا يبطل القول بتحريمه ، ويبقى فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات بل إن هناك نصوصا تدل على إباحته ، فالغناء سماع صوت طيب مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، وسماع الصوت الطيب

---

(٤٥) سيد قطب : "تفسير سورة لقمان ظلال القرآن" ، صـ ٢٧٨٤-٢٧٨٥، المجلد الخامس الأجزاء ١٩-٢٥ .

(٤٦) أبو حذيفه إبراهيم بن محمد : " اللهو المباح فى العصر الحديث لا يوافقه الشرع الحنيف ".

بالنسبة لحاسة السمع ، كرؤية الخضرة والماء الجارى بالنسبة للعين فلا يحـــرم ، فإن أدى النظر إلى الإطلاع على شىء حرام ، حرم النظر كالنظر إلى العورة ، أو النظر بشهــوة ، وكذلك يحرم السماع إن كان سماعًا لشىء غـــير حـــلال أو أدى بطريق انحرف به عن الحلال " [٤٧] .

ويحدد الإمام الغزالى الأسباب التى تحرم الغناء والموسيقى فيجعلهـــا أســـباب طارئة كان يكون الغنـــــاء من إمـــــراة يخشى الفتنة من سمعها أو مــــن صبـــى امرد كذلك أو ان تستعمل فى الموسيقى آلات من شعار أهل الشرب المخنثين ، أو ان يكون الكلام الذى يغنى ، فيه فحش ولغو ، أو أن الســـامع يثير الغناء شـــــهوته ويحرك ثائرته ، أو يتخذ الموسيقى والغنـــاء ديدنا فتســـبب المواظبـــة عليهمـــا ، التقصير فى أداء الواجب الدينى وأداء واجب الأسرة والمجتمع [٤٨].

وقد حكى عن الإمام الشافعى أنه مر مع أحد رفاقه بموضع فيه شخص يغنى فلما سمعه قال لرفيقه : مل بنا إليه . وسأل الشافعى رفيقه : أيطربك هذا ؟ فقال لا. فقال الشافعى إذن ليس لك حس [٤٩].

ويقول الإمام القشيرى : "واعلم أن سماع الأشعار بالألحـــان الطيبـــة والنغـــم المستلذ ، إذا لم يعتقد المستمع محظورًا ولم يسمع على مزموم فى الشـــرع ، ولـــم ينجرف فى زمام هواه ، ولم ينخرط فى سلك لهوه ، مباح فى الجملة "[٥٠] .

ويقول القاضى أبو بكر بن العربى : " لم يصح فى تحريم الغناء شىء ، وقـــد تصدى ابن حزم للأحاديث التى وردت فى تحريم الغناء ، وبين أن رواتهـــا بيـــن مجهول ، ومدلس وضعيف ، وقرر أن بيع المزامير والعيدان والمعازف والطنابير حلال كله ومن كسر شيئـــًا منها ضمنه" [٥١] .

---

(٤٧) د. أحمد شلبى : " بحوث فى الحضارة الإسلامية ".
(٤٨) المصر السابق .
(٤٩) المصدر السابق .
(٥٠) الرسالة القشيرية –المصدر السابق .
(٥١) المصدر السابق .

ونقل الشوكانى آراء كثيرة عن الصحابة والتابعين فى إباحة الأعواد والغناء مالم ينحرف بها اتجاه من الاتجاهات الكريهة . كذلك الحافظ القيسرانى أحد أئمة الحديث فى القرن السادس الهجرى (توفى سنة ٥٠٧هـ) وله كتاب عنوانه "السماع" (٥٢) وفيه فند آراء القائلين بحظره معتمدًا على الأحاديث الصحيحة وعلى أقوال الأئمة والفقهاء ، كما نقل ما قاله الإمام مالك وما قاله الإمام الشافعى ، ونقل أن طائفة من شيوخ المالكية والشافعية وأصحاب الحديث وشيوخ الوعظ والزهاد حضروا مجالس الغناء . وتحدث عن المزامير والآلات الموسيقية وغناء الرجال والنساء وأورد الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها ، كما أورد الأحاديث التى احتج بها من يرفض السماع ، ثم تناول هذه الأحاديث الصحيحة واحدًا واحدًا وبين وجه بطلانها (٥٣) .

ويقول المرحوم الشيخ شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق فى تعقيبه على رسالة الفقيه عبد الغنى النابلسى وهى تقرر أن السماع حلال مالم يقترن بمحرم : " إن هذا يوافق تمامًا فى المغزى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغناء والموسيقى ، وعلى هذا فإن سماع الآلات أو الأصوات الجميلة لايمكن أن يحرم باعتبارها صوت آله أو صوت إنسان وإنما يحرم إذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو ألهى عن واجب(٥٤) .

ويقول الدكتور أحمد شلبى : " إن الآلات الموسيقية الحديثة امتداد للآلات التى كانت موجودة فى العصور الأولى ، فإذا أبيحت الموسيقى فهى مباحة أيا كانت الآلات المستعملة فيها "(٥٥) .

أما الرقص فالإمام الغزالى يبيح منه مالايثير شهوة فاسدة كرقص الرجال وحدهم أو رقص النساء دون أن يراهن من الرجال من لايحل لهن . وقد استدل

---

(٥٢) قام بتحقيق هذا الكتاب الشيخ أبو الوفا المراغى ونشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية والمصدر السابق .

(٥٣) المصدرر السابق .

(٥٤) الشيخ عبد الغنى النابلسى : " كتاب الفتاوى " ص ٤١٣-٤١٤ ، وانظر " الدلالات فى سماع الآلات ". المصدر السابق .

(٥٥) المصدر السابق .

الغزالى على الحل برقص الحبشة والزنوج فى المسجد النبوى يوم عيد حيث أقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك وأباح لزوجته السيدة عائشة أن تتفرج عليهم وهى مستندة به [٥٦].

الفريق الثالث :-

وضحت رؤية هذا الفريق فى القرن الأخير ، وتنامت فى العقود القليلة الماضية . ويرى هذا الفريق أن الموسيقى ، والغناء ، والرقص حلال ، مالم يكن فيها مخالفة لشرع الله ، أواستعين بها على محرم ، أو اتخذ وسيلة إلى محرم ، أو ألهى عن واجب . وهذا الفريق له رؤية فى الثقافة العربية عمومًا ، والغناء والموسيقى والرقص خصوصًا .

فمنذ أواخر القرن الماضى اتسع مجال الموسيقى والغناء ، والرقص وظهر الراديو ، والتلفيزيون ، والسينما ، والمسرح ، وتطورت وسائل الاتصال ، ففى العقود الأخيرة دخلت القنوات الفضائية إلى سمائنا العربية وغزت البيوت وسوف تتطور سريعًا وتدخل كل البيوت وهى تحمل مفاهيم الثقافات الأخرى والثقافة الغربية بما فيها من خلاعة ومجون ، وانحراف ، ورقص وعرى ونواقص كثيرة ، وعادات لايقرها الذوق السليم ، والحس الرفيع ، ويخالف معتقداتنا الإسلامية ، ومفاهيمنا الثقافية العربية الأصيلة .

لكل ماسبق وغيره ، كان لزامًا على المفكرين العرب والمسلميين أن يجدوا وسيلة فعالة لمقاومة هذا الغزو الثقافى والفنى الذى اقتحم المخادع والبيوت .

وقد استقر فى وجدان المطلعين والمثقفين من هذا الفريق أن وسيلة المنع الجبرى لهذه الفنون الغازية سواء الفنون الغنائية ، أو الموسيقية أو غيرها من فنون المسرح ، والسينما ، والتليفزيون لن تجدى ، وأن خير وسيلة لمقاومة هذا التيار الثقافى الأجنبى الجارف الذى يقتلع فى سبيله كل مقدراتنا الثقافية ومفاهيمنا الإسلامية، هى عمل فنون غنائية ، وموسيقية وسينمائية ومسرحية ، تحمل مفاهيمنا

---

(٥٦) المصدر السابق .

الثقافية العربية الأصيلة وقيمنا الإسلامية ، وتلتزم بمفاهيم الإسلام ومعطياته ، كما تلتزم بالأصول الفنية التى تجذب المشاهدين .

وهذا الفريق يؤمن بالمنافسة الثقافية والحضارية مع الثقافات والحضارات الأخرى ، ولايؤمن بالصراع الثقافى أو الصراع الحضارى . الذى أشارت إليه كتابات المفكرين الغربيين فى الآونة الأخيرة .

وهذا الفريق يرى أن الاستعمار منذ أواخر القرن الماضى قد زرع ثقافته الغربية بوسائل عديدة ، وربى أجيالاً من العرب والمسلمين ، يحملون مفاهيم وتقاليد الثقافة الأوربية والأمريكية .

وبعد ازدياد الوعى بالذات ، والوعى بالغير كان لزامًا أن تصحح الثقافات العربية الأصيلة كثيرًا من المفاهيم الغربية التى غزتها . كما أن تطوير ثقافتنا العربية الأصيلة أصبح أمرًا مهمًا للغاية .

وفى مجال تطوير السينما والمسرح يكون ذلك بتطوير الأدب العربى ، وخاصة القصة ، والرواية ، والمسرحية ، والقصيدة الشعرية الغنائية بحيث لاتخرج عن القيم الإسلامية ومفاهيم الإسلام ، ولذلك بتطوير صناعة السينما والمسرح ، وقد بدأت بعض الدول الإسلامية خطوات كبيرة فى هذا المجال .

وفى مجال الموسيقى والغناء ، يرى هذا الفريق أن كلمات الأغانى يجب أن تكون شعرية فنية راقية ، منطلقة من وجدان شاعر مبدع يؤمن بالله ورسوله ، وتعاليم الإسلام ومعطياته ويكون إبداعه بعد ذلك ليس وعظيًا إرشاديًا ، بل إبداع متميز لايتقيد إلا بالنواحى الفنية والجمالية والتجارب الشعورية والفنية والتجارب التعبيرية الموحية ، وكذلك تلحين الكلمات وصياغة موسيقاها يجب أن يكون مؤديًا لمعانى تلك الكلمات الشعرية المتميزة .

أما الأداء الفنى للعازفين والمطربين ، وما يصاحب ذلك فيجب أن يكون فى حدود المفاهيم الإسلامية والأخلاق الإسلامية .

وتنطلق رؤية هذا الفريق فى الموسيقى ، والغناء ، والرقص ، والسينما ، والمسرح من خلفية إسلامية فى الثقافة العربية متميزة عن غيرها فى الثقافات الأخرى .

وأساس هذه الخلفية الإسلامية فى مجال العلاقة بين الرجل والمرأة هى العلاقة الشرعية اللازمة لإنجاب النسل واستمرار الحياة المتمثلة فى الأسرة .

الفـــريق الرابع :-

ظهر هذا الفريق فى الثقافة العربية منذ أواخر القرن الماضى ، وهذا الفريـــق لايتقيد فى نظرته للثقافة العربية عامة ، والموسيقى والغنـــاء خاصــــة ، بالمفـــاهيم الإسلامية . فـــلا يعنيه ما إذا كانت الثقافة العربية تحمـــــل مفاهيمـــاً إســـلامية أو أخلاقية ، أو عادات إسلامية أم لا . ولذلك جاءت إبداعاته الثقافية ، وإبداعاته فــــى مجال الغناء والموسيقى مغايرة لمفاهيم الدين الإسلامى ، والأخــــلاق الإســـلامية ، والعادات الإسلامية ، وغيرها ، وهذا الفريق ينطلق من خلفية ثقافية غربية حديثة . ومن المعروف أن الثقافة الغربية الحديثة بمفاهيمها وعناصرها فى الدين ، الأخلاق والعادات والقانون والمعرفة وهى العناصر التى تكون النسيج الكلى للثقافة الغربية الحديثة مغايرة للثقافة العربية .

وكان للغزو الثقافى والاستعمارى دوره الكبير فى نشأة هذا الفريـــــق ونمــــوه وانتشاره منذ أواخر القرن الماضى وحتى الآن كما ، كان للسياسة دورها فى إعلاء شـــأن هـــذا الفريق ، وتخذيل الفرق الأخرى فى بعض الدول الإسلامية .

نتيجة لذلك كانت الموسيقى العربية والغنـــاء العربى المعاصر فــــى معظمـــه تقليد للفنون الغربية .

تعدد الآلات الموسيقية :

تعددت الآلات الموسيقية فى العصور الإسلامية المختلفة ، فكان هناك الدف ، والطبل والناى والعود والطنبور والمعزفة والمزمار والبربك والجنك ، والقضيب ، والقانون وغيرها. وقد أفاضت مؤلفات كثيرة فى بيانها ويجملها " ابن قيم الجوزية " فى الأصناف الآتيـــة : (٥٧) .

---

(٥٧) ابن قيم الجوزية المتوفى فى سنة ٧٥١هـــ : "حكم الإسلام فى الغناء" تحقيق أبو حذيفـــة إبراهيم بن محمد يغرب فى تغريده فكأنه .

١- الطنبور : اسم جنس لكل آلات الطرب التى يستخدم فيها أوتار السلك .

٢- الصنـــج : آلات بأوتار يضرب عليها .

٣- اليـــراع : وهو الشبابة وهى جملة مزامير .

٤- المعزف : يدخل تحته أنواع المعازف .

٥- الصفارة : آلة صغيرة جوفاء ، غالبًا من النحـــاس ، مثـل تلـك التـى يستخدمها رجال المرور الآن .

٦- الطبــل : اسم جنس لعدة آلات مصنوعة من الجلد .

٧- العــود : اسم آلة من المعازف ، ذى أوتار وهو مشهور وقد أضيف الوتر الخامس إليه فى عصر هارون الرشيد . ويقول فيه صفى الدين الحلى :

وعــود به عـــاد الســـرور لأنه حوى اللهو قدمًا وهو ريان ناعم .

يغــرب فى تغـريــده فكـــأنــه يعــيد لنـــا مالقنته الحمـــائم(٥٨) .

وقد اشترك الرجال والنساء فى الضرب على هذه الآلات وكان هناك أســماء للضاربات على هذه الآلات من القينات ، فكان هناك الطبالة والصناجة والزمـــارة والعوادة والطنبورية . ومن أسماء بعض المغنين فى المدينـــة نشـيط الفارســى ، وطويس وسائر بن جابر مولى عبيد الله بن جعفر ، ومعبد ، وابن شـــريح . وفــى العصر العباسى : إبراهيم بن المهدى ، وإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق ، وابنـــه حماد(٥٩).

وزرياب ومعناها الطائر المغرد ، وظهر رزياب فى عصر الرشـــيد وكـــان شاعرًا وملحنـــًا ومغنيًا وغيرهم الكثير من الرجال والنساء .

وأول من اشـــتهر بالتأليف فى الغناء الفارابى وابن سينا وكتابه " المدخل إلى صناعة الموسيقى" وابن باجة ، والرازى .. ويقول ابن خلدون : " إن الغناء يعتبر

---

(٥٨) الشاعر صفى الدين الحلى توفى فى بغداد سنة ٧٥٠ هـ وهو مشهور بالبديعـــات وهــى مدائح نبوية شهيرة .

(٥٩) عن ابن خلدون : " الموسيقى الشرقية والغناء العربى " للأستاذ قسطندى رزق .

عاملاً مكملاً للعمران ولازمًا لحـياة الإنسان " [٦٠] . وكانت كلمات الأغاني مـــن الشعر العربي .

ثم ظهرت الموشحات الأندلسية فى الأندلس وانتشرت فى بقية البلدان وخاصة فى مصر ، وكذلك الموال الذى نشأ فى بغداد وانتشر كذلك فى مصر وغيرها .

وظهرت كذلك أشعار القصص الشعبى الذى كان يتناقله الرواة علـــى العــود والربابة مثل قصة الظاهر بيبرس ، وأبى زيد الهلالى والهلالية والزنـــاتى خليفــة وغيرهم التى ظلت منتشرة فى ريف مصر حتى النصـــف الأخـــير مـــن القـــرن العشـــرين .

٣- التعدد والتنوع فى مجال الفنون التشكيلية :

الفنون التشكيلية هى الفنون التى يحقق بها الفنان أشكال المرئيات التـــى يقـــع عليها بصره وتشمل فنون العمارة والفنون الزخرفية والنحت والتصوير وقد بـــرع المسلمون فى فنون العمارة والفنون الزخرفية إلى درجة بهرت العالم ، وكانت مثار الإعجاب فى الشرق والغرب ، قديمًا وحديثـًا :

يقول جوستاف لوبون " إن إلقاء نظرة على أثر من آثار العرب فى أى عصر متقدم : كجامع أو سراى ، أو أى شيء بسيط كدواة ، أو خنجر ، أو تجليد مصحف ، سيبهرنا العمل لتفرده ، ولأنه ليس له علاقة بما لدى الأمم الأخرى" [٦١].

وتميزت فنون العمارة الإسلامية بتفردها ، وخصوصايتها فهى تنحـــاز إلـــى تجميل الطبيعة ، والانسجام معها . وتعتمد فنون العمارة الإسلامية على الرياضيات والهندسة التى كان للعرب باع طويل فيهما ، فالخوارزمى هو مبتكر علـــم الجـــبر واللوغاريتمات ، وتعتمد مواد البناء على الكيمياء ، وكان جابر بـــن حيـــان مـــن الأفـــذاذ فى هذا المجال . وكان للتقدم الذى بلغه العـــرب فـــى العلـــوم الطبيعيـــة والجغرافيا والجيولوجيا وبقية العلوم أثره الواضح فى تقدم فنون العمارة .

وكانت مواد البناء لديهم تتغير حسب جيولوجيا المكان ، فاستخدموا الطوب فى بناء جـــامع ابن طولون ، وبنـــوا جامع الحاكم بأمر الله من الأحجار ، واستخدموا

(٦٠) المصدر السابق .

(٦١) محمود أفندى فؤاد : " كتاب الهندسة والإسلام " .

الأسمنت المكون من الجير والرمل والطفلة أو مادة الكاولين فى أسبانيا وأماكن أخرى . وأشكال العمارة العربية متنوعة ومتعددة ولكنها ذات طابع خاص يميزها عن غيرها من فنون العمارة فى الحضارات الأخرى .

فهناك المساجد والدور والقصور أو التكايا ، والأسبلة ، مثل قصر الحمراء فى الأندلس ، وتاج محل فى الهند ، والمساجد الرائعة مثل الجامع الأموى فى دمشق ، والمسجد الجامع فى قرطبة وغيرها من مساجد عديدة فى مصر ، وتركيا ، والهند وباكستان والمغرب العربى وغيرها من البلدان . وهذا وصف للمسجد الجامع بقرطبة كما جاء فى أحد المؤلفات الأسبانية المعاصرة (٦٢).

المسجد الجامع بقرطبة : بنيت جدران المسجد من الحجر الجيرى اللين المائل للإصفرار من كتل أبعادها ١,١٥×٠,٦×٠,٤٨ متر . وصفت الكتل على الجوانب الطويلة والعرضية على التعاقب بحيث يبدو للعين وجهها الأكبر ثم وجهها الأصغر على التناوب ، وتتكرر فى صفوف مقسمة على نحو يؤدى فيما بينهما إلى الترابط والإحكام ، ويعرف هذا فى عرف المعماريين " بالتعاقب طولاً وعرضًا ". والملاط المستخدم كان من الجير والرمل . وكانت هذه الطريقة الفريدة غير معروفة ولا شائعة فى الأساليب الكلاسيكية قبل ذلك .

وكان به ١٤٢ عمودًا من الرخام والجرانيت ، بعضها وردى اللون والعمود مكون من قاعدة وبدن وتاج وحدارة. وطول العمود حتى تاجه ٤,٢٠ متر وطوله حتى السقف ٨,٦ متر . ووصف المؤلف ذلك المسجد وصفـًا يثير الخيال ، ويصل إلى حد الإعجاز فى ذلك الزمن فقال : " وما إن يتخذ المرء طريقه خلال العقود إلى الجزء المسقوف الذى نجده فى المساجد الأخرى، حتى يرى منظرًا يشبه غابة من النخيل ، مما يكسب البناء مظهرًا معماريًا ، توحى فيه الأعمدة ، والعقود ، إذ يتلو بعضها بعضًا بالطبيعة الحية تحت ظلال فى لون الشفق " ثم يقول.... " وأنقذه ذلك من الهدم والتبديد (يقصد بعد خروج المسلمين من الأندلس) لأن غرائبه كانت تعلو على كل نقد ، وإلى ذلك مرجع التقدير الذى يفضى بنا إلى الاعتراف بأنه

---

(٦٢) مانويل جوميث تورينو : " الفن الإسلامى فى أسبانيا "، ترجمة د. لطفى عبد البديع د. السيد محمود سالم .

جدير بالدراسة ، واستخلاص النتائج والتمتع به فى الصورة التى أسس عليها مـــع تجريدات طفيفة " . وقد سبق المسجد الجامع فى قرطبة المسجد الجامع فى القيروان الذى أسسه عقبة بن نافع سنة ٦٧٥م . وقد احتفظ المسجد بقرطبة بصورته وكـــان مثلاً معماريًا تغلغل تأثيره الفنى فى الثقافة الأسبانية ومؤسسه هو عبـــد الرحمـــن الداخل ، وقد بلغت نفقاته ثمانون مثقالاً من الذهب : وفى ذلك يقول الشاعر دحيـــة بن محمد البلوى :

وأبرز فى ذات الإلـــه ووجـــه ثمانين ألفا من لجين وعسجد

فأنفقها فى مسجـــد أســـه التقى ومنتهجه ديـــن النـــبى محمد

ترى الذهب النارى بين سموكه يلوح كلمح البارق المتوقـــد

ومن خصائص العمارة الإسلامية الأعمدة المصنوعة من الرخام ، والرخـــام الملون وغيرها . والعمود فى العمارة الإسلامية يتكون من قاعدة ، وبـــدن وتـــاج والأجزاء الثلاثة غالبًا ما تكون محلاة بالنقوش المحفـــورة ، ومطعمـــة بالعـــاج أو السن، وتيجانها مزينة بالكرانيش والمقرنصات .

أما العقود ، فهى من ابتكارات المسلمين ، وهى مكونة مـــن أقـــوس . وقـــد تعددت وتنوعت أشكالها فهناك العقد الســـتينى ، والعقـــــد المخمـــس ، والعقـــــد المكون من سلسلة عقـــود .

أما المنائر والمآذن فقـــد تعددت أنواعها كذلك فمنها المخروطية مثل المســـجد الحسينى فى القاهرة وبعض المساجد فى تركيا وغيرها ، والمآذن المربعـــة مثـــل منارة مسجد الناصر قلاوون بالنحاسين بالقاهرة ، وبعض المساجد فى الأندلـــس . وهناك المآذن الأسطوانية مثل مسجد محمد على بالقلعة وبعض مســـاجد تركيـــا ، وبعض المنائر تتكون من دورين أو ثلاثة ، وقد يتخذ كل دور شكلاً ، فهـــى فـــى الدور الأول مربعة ، ومثمنة فى الدور الثانى ، وأسطوانية فى الدور الثالث .

أما القباب العربية فلها قمم عالية ومنحنياتها نازلة أسفل مراكزها ، وهى تمثل أشكالاً من العقود العربية وهى من ابتكارات الهندسة العربية .

أما المقرنصات فهى تشبه خلايا النحل ذات طبقات مصفوفة بعضهـــا فـوق بعض ببراعة فنية ، وهى لها وظائف معمارية وجمالية وعند الانتقال من شكل إلى شكل أخر فى فنون العمارة الإسلامية كما أنها تستخدم فى الفنون الزخرفية .

والفنون الزخرفية تعتبر من بدائع الفــن الإســلامية ، وقد استخدمت فى نواح عديدة فنية وزخرفية ، وصناعية ومعمارية ، وقد تجـلت عظمة الفنون الزخرفية فى صناعة النسيج بأنواعه ، وفى فنون الخزف والفخار، والحفر علـــى الخشـب وصناعــة الأثاث الخشبى وفى المعادن والسجاد المتنـــوع والمتعـدد الأشـكال ، والصنعة ، والألوان وكذلك فى الزجاج والبلور الصخرى ، والطرز وغيرها .

كما كانت الزخارف العربية تستخدم كذلك فى المساجد ، والقصـــور والتكايـا والدور.

والفنون الزخرفية العربية يطلق عليها الأروبيون أربيك أو أرابيسك .

وقد تنوعت وتعددت الفنون الزخرفية العربية ، فبعضها أشكال هندسية ، سواء مضلعات بأنواعها أو منحنيات ، ونوع آخر يطلق على المزركشات وهـــو يحمـل أشكال النباتات وأشكال الطبيعة ونوع ثالث ينشأ من خطوط الكتابة العربية ســـواء كانت كوفية أو بغدادية أو رقعة أو نسخ أو ثلث أو غيرها ....

كم كانت بعض الزخارف غائرة ، وبعضها بارزة أو منقوشة أو منحوتة . وقد كان للكتابة العربية دورها الهام فى الزخرفة ، حتى إن أوربا قلدتها فـــى العصـر الوسيط ، وقد عثر على زخارف بحروف عربية على كنيسة فى ميلانو(٦٣) .

ففى النسيج مثلا تنوعت المواد التى تصنع منها المنسوجات ومنها الكتــــان ، والصوف ، والحرير والحرير المزركش من الذهب والفضة الذى يعـــرف باســم الديباج . وكذلك الأحجار الكريمة التى كانت تستخدم فى ترصيع الثياب ، وكذلــك القطن الذى اســتخدم فى صناعة المنسوجات القطنية الدقيقة والذى اشــتهرت بــه الهند وشجع هذه الصناعة أباطــرة المغول فى العصر الإسلامى فى الهند وفرضوا عليها رقابة حكومية .

---

(٦٣) المصدر السابق .

وكانت الرسوم الزخرفية على الملابس تختلف تبعًا لنوع الملابس.

ومن ناحية أنواع الملابس والمنسوجات فقد كان هناك القباطى وهو نسيج مصرى مشهور . وفى الحقيقة فإن لفظ القباطى كان يعنى طريقة فنية تطبيقية فى صناعة النسيج ، اشتهر بإنتاجها القبط فى مصر قبل دخول الإسلام وظلت تطلق على هذا النوع من المنسوجات حتى العصر الفاطمى ، وقد انتشرت فى بقية الأقطار ومع ذلك كانت تسمى بهذا الاسم نسبة إلى أصحابها الأول (٦٤) .

وكانت القباطى تصنع كذلك فى خراسان وتستخدم لكساء الكعبة المشرفة كما ذكر ذلك ابن عبد ربه فى العقد الفريد وكان هناك الشطوى نسبة لشطى بدمياط ، والتنيسى : نسبة إلى تنيس ، والديبقى نسبة إلى الديبق ، والصعيدية فى صعيد مصر وهى أقمشة مصنوعة من الكتان أو الصوف أو الحرير أو خليط منها كالحنيفى .

وفى العصور الوسطى أطلق الأوروبيون أسماء بعض المدن العربية على المنسوجات المصنوعة فى تلك البلاد مثل الدمشقى نسبة إلى دمشق ، والموسلين نسبة إلى الموصل . كما كان هناك النسيج المصنوع فى شتى الأقطار والعصور الإسلامية مثل الإيرانى والمملوكى والأيوبى والتركى والهندى والأندلسى .

وقد تنوعت الزخارف على النسيج تنوعًا كبيرًا فقد كان هناك مثلاً ثمانمائة طراز فى الأندلس (٦٥) فى عصر المرابطين وكانت قطعة النسيج تحتوى بجانب الطرز شرائط زخرفية متنوعة تحوى رسومات آدمية وحيوانية ونباتية . وكذلك تنوعت الزخارف الخشبية والزخارف على الفخار والخزف والزجاج والمعادن وزخارف السجاد .

وقد تنوعت مراكز هذه الفنون الزخرفية تبعًا لمراكز الصناعة فقد كان السجاد الإيرانى ذات شهره كبيرة وقد عرفت أنواعه تبعًا للزخارف عليه ، فكان هناك السجاد ذو الزخارف الحيوانية وسجاد الزهور وسجاد الأرابيسك ، وسجاد

---

(٦٤) د. سعاد ماهر : " الفنون الزخرفية " كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " ، المجلد الأول .

(٦٥) الطرز شريط من الزخارف أو الكتابة على الثياب أو الستر أو القراطيس وأحيانًا ماكانت الزخارف تشمل الثوب كله . المصدر السابق .

الزهريات ، وسجاد الأشجار ، وسجاد الصلاة ، وسجاد الحديقة ، والسجاجيد البولندية وهى تنسب إلى بولندا حينـًا من الدهر[٦٦] ، وكذلك كان هناك السجاد التركى والقوقازى والأرمينى والكازاكى (نسبة إلى الجزء الجنوبى من القوقاز) والسجاد التركستانى والهندى وغيرها . وكل نوع من هذه الأنواع كانت له زخارفه المميزة له . أما الزخارف الخشبية فى الأبواب والشبابيك وفى القصور والمساجد ومنابر المساجد فقد تنوعت وتعددت وكذلك المشربيات المشهورة من العصر المملوكى وهى مأخوذة من كلمة شرب التركية . وهى تعنى الغرفة العلوية البارزة عن سمت الحائط . وأصبحت كلمة مشربية اسم علم لكل النوافذ والفتحات المغطاة بخشب الخرط والتى تكون عادة بارزة عن سمت الجدار [٦٧] .

(٦٦) د. سعاد ماهر : " الفنون الزخرفية " كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " ، المجلد الأول .

(٦٧) المصدر السابق .

الفصل الرابع

عن المجتمع الإسلامى

أولا : وحدة المجتمع الإسلامى

من بين طبائع الإنسان المتعددة، طبيعته الفطرية فى الاجتماع مع بنى جنسه وهو مضطر إلى ذلك ليشبع حاجاته الضرورية وغير الضرورية . وكان العلامة ابن خلدون رائد علم الاجتماع أول من عبر عن ذلك فى مقدمته ، فيقول : " إن الاجتماع الإنسانى ضرورى . ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : الإنسان مدنى بالطبع ، أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم ، وهو معنى العمران . وبيانه أن الله سبحانة خلق الإنسان وركبه على صورة لايصح حياتها وبقائها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته ، ومما ركب فيه من القدرة على تحصيله . إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء .... مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى ... فلابد من إجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف ".

ويشير ابن خلدون كذلك إلى حاجة الإنسان إلى الأمن وأهمية التعاون لتحقيقه وغير ذلك من الأسباب التى ساقها ابن خلدون ليبين طبيعة الإنسان الفطرية فى الاجتماع مع بنى جنسه .

واجتماع الناس بعضهم مع بعض يتولد عنه علاقات اجتماعية كالصداقة والزمالة والمصاهرة .

وعمليات اجتماعية وهى علاقات اجتماعية معقدة مثل التعاون والحركة والتكيف والصراع ...

وقواعد اجتماعية يسير عليها الناس فى المجتمع مثــل القوانيــن والأعــراف والتقـــاليد والعادات ونظم اجتماعية مثل النظــم الاقتصاديـــة والسياســية والنظــم التربوية والنظم القضائية والنظام العائلى .

فالنظم الاقتصادية هى النظم التى تتعلق بشـــئون الاقتصـــاد ونظــم الإنتــاج والتوزيع والاستهلاك وتداول الثروة والملكية الفردية والملكية العامة وحقوق كـــل منهما وواجباتها ومناهج التجارة الداخلية والخارجية ... والنظم السياســـية وهـــى تتعلق بالشئون السياسية ونظم الحكم ووظـــائف الســلطات التشــريعية والتنفيذيــة والقضائية وسلطاتها وعلاقتها بالأفراد وصلة الدولة بالدول الأخرى .....

والنظم القضائية وتتعلق بشئون القضاء ونظم المسئولية والجــــزاء ومقاومـــة المجتمع للجريمة ورد الحقوق لأصحابها وطرق التقاضى وإجراءاته ...

ونظم الأسرة من زواج وطلاق ونفقه وميراث وواجبات أفراد الأسرة تجـــاه بعضهم البعض ...

والنظم التربوية وهى تختص بالتربية والتعـــليم وشــــئون الثقافـــة وتربيـــة النشء ... ونظم الآداب والأخلاق والمثل العليا وقواعـــد التميـــيز بيـــن الفضيلـــة والرذيلة والخير والشر وما يليق وما لا يلـــيق .

ويرى د. على عبد الواحد وافى أن حياة المجتمع لاتســـتقيم ولايكتـــب لهـــا الاستقرار إلا إذا توافر فى هذه النظم والقواعد شرطان :[١]

الشرط الأول : أن تكون هذه النظم والقواعد موائمة لطبيعة المجتمع متفقة مع درجة تطوره . متسقه مع ظروفه وأوضاعه ومحققه لصالحه مواتية لانطلاقه فأن لم يتوافر فيها هذا الشرط فإنها تكون عناصر غريبة عن واقع حياته ، متنافرة مـــع طبيعته وبيئته ، يتجرعها أفراده تجرعًا ولا يكادون يستسيغونها ، ويلاقون العنـــت فى تطبيقها . فيقـــوى لديهـــم الاتجاه لمخالفتها وتعدى حدودها وتصبح أغلالاً فى

---

(١) دكتور على عبد الواحد وافى : "بحوث فى الإسلام والاجتماع" .

أعناقهم ، تعوق سـيرهم وانطلاقهم وتعوق سـير المجتمع نفسـه وانطلاقـه ، فيصيبه الفوضى ويعمه الاضطراب ويختل نظامه .

الشرط الثاني : أن تكون لهذه القواعد والنظم في نفـوس الأفـراد قدسـية واحترام وجلال ، وبذلك تمثل وازعـًا داخليًا للأفراد ، ينبعث من نفوسهم ، فيحبب إليهم السير عليها ويبغضهم في الاتجاه لانتهاك حرماتها .

وذلك أنه إذا فقد الوازع الداخلي واقتصر الأمر على الواقع الخـارجي الـذي يتمثل فيما يمثله القانون والعرف من عقوبة ومقاومة لمن يتعـدى حـدود النظـام الاجتماعي ، فأنه يسهل حينئذ على الفرد الخروج على هذا النظام كلما تمكن مـن اتخـاذ وسـائل الحيطة والحـذر والحـيلة كي لايقـع تحـت طائلـة العقـاب القانوني أو العرف .

واختلال هذا الشرط يؤدي إلى الصراع بين النزعات الفردية والمجتمع ومـن ثم يؤدي إلى الفوضى واضطراب الأمور . وتحقيق هذين الشرطين فـي النظـام الاجتماعي يختلف تبعًا للمصدر الذي تستخدمه هذه النظم. وهذا المصدر قد يكـون مصـدرًا لا دينيًا أو مصدرًا دينيـًا والمصدر الديني قد يكـون مصـدرًا دينـًا سماويًا أو مصدرًا دينيًا غير سماويًا ، والدين السماوي قد يكون دينيًا سـماويًا قـد أصابه الانحراف والتعديل على يد أتباعه ، أو يكون دينـًا سماويًا صحيحًا كالدين الإسلامي الصالح لكل زمان ومكان لأنه آخر الديانات السماوية التي جـاءت بعـد تطور البشـرية والذي تكفل المولى عز وجل بحفظه فظل كما هو لـم يتغـير أو يتبدل في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

فإذا كانت هذه النظم والقواعد غير مستمدة من دين ما ومعـروف أنهـا مـن وضع البشر اختل فيها الشرط الثاني ، فلا يكون لها في نفوس الأفراد قدسـية ولا حرمة ولاجلال ، لأن القدسية والحرمة والجلال تختص بها أمور الدين والعقيـدة . وقد يختل فيها الشـرط الأول نفسه وهو اتفاقها مع طبيعـة المجتمـع وتحقيقهـا لصالحه ؛ لأن واضعي القوانين غالبًا ما يتأثرون بنظريـاتهم وآرائهـم الخاصـة فيبعدون بها عن واقع المجتمع ويأتون بما لا يتفق مع طبيعته ولايحقق مصالحه ، أو بما يلائمه في مرحلة خاصة من مراحل حياتة ولايلائمه فيما عداها من مراحل.

وإذا كانت هذه النظم والقواعد مستمده من دين غير سماوى مثل قوانين الديانة البوذيه وقوانين " الفيدا " و قوانين "مانو" فى الديانه البرهمية ، وقوانين " الأبستاق " فى الديانة الزرادشتية ، توفر فيها الشرط الثانى ، فتحظى لدى الأفراد بالقداسة لأنها ترتبط بإيمانهم بعقائدهم ، ولكن قد يختل فيها الشرط الأول وهو اتفاقها مع طبيعة المجتمع وتحقيقها لصالحه ، لأنها على الرغم من الثوب الدينى الذى ترتديه فى الظاهر ، قد وضعها أناس من البشر ، وعقليات من البشر بما لا يتفق مع طبيعة المجتمع ولا يحقق صالحه .

ولايتوافر فى هذه النظم و القواعد الشرطان السابق ذكرهما تمام التوافر إلا إذا كانت مستمده من تشريع سماوى ودين صحيح ، كالدين الإسلامى لأن الشارع - جل فى علاه - عليم بطبيعة كل مجتمع إنسانى ولايفرض عليه من الشريعة والدين إلا ما يوائمه ، ويتسق مع أوضاعه ويحقق صالحه ، وبذلك يتوافر فيها الشرط الأول . والنظم السماوية من جهة أخرى ترتبط بالإيمان والعقيدة فيكون لها فى نفوس الأفراد قدسية وحرمة وجلال ، فيتبعونها عن رغبة ووازع داخلى وابتغاء لمرضات الله ، ومحافظة على تقواه ، وخوفًا من سخطه وعقابه فى الآخرة ، وبذلك يتحقق فيها الشرط الثانى أيضًا على أكمل ما يكون .

وجاء الدين الإسلامى محققًا لهذين الشرطين تمام التحقيق لأنه أخر الديانات السماوية التى أنزلها المولى عز وجل على رسولنا الكريم ، ولم يشبه التغيير أو التبديل أو الانحراف لأن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظه فظل محفوظًا فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ومنذ نزل القرآن الكريم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقيام الدولة الإسلامية تغيرت القواعد والنظم الاجتماعية واصطبغت بصبغة الإسلام .

تغيرت القوانين والأعرف والتقاليد والعادات ، وتغيرت النظم السياسية والاقتصادية والتربوية والنظم القضائية ونظام الأسرة ونظم الآداب والمثل العليا .

كما تغيرت قواعد التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، والخير والشر ، وما يليق وما لا يليق . ولقد تغيرت هذه القواعد والنظم الاجتماعية جذريًا وتم بناء النظم والقواعد الإسلامية على مفاهيم الإسلام وعطاء الإسلام .

وأصبحت القوانين مستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية وقـــامت الأعـــراف والتقاليد والعادات الإسلامية . وتم بناء نظم اقتصادية إســلامية ، ونظــم سياســية إسلامية . ونظم تربوية إسلامية ، ونظم قضائية إسلامية ، ونظم أسرة إسلامية .

وأصبحت هناك مقاييس وقواعد اجتماعيـــة إســلامية ، للفضيلـــة والرذيلـــة والخـــير والشـــر وما يليق وما لا يليق ، اكتسبتها المجتمعات الإسلامية كمعيـــار وقياس للأفــراد والشعوب ، ومن هنا قامت وحدة المجتمع الإسلامى على أســس راسخة هى أسس إسلامية ومفاهيم ومعطيات إسلامية .

فوحدة المجتمع الإسلامى ترجع إلى الإسلام ، ووحدة المجتمع الإسلامى ترجع إلى قيام القواعد والنظم الاجتماعية على مفاهيم ومعطيات الإسلام ، وقـــد ظلــت وحـــدة المجتمع الإسلامى قائمة ـــ سواء كان العالم الإسلامى دولـــة واحـــدة أو دولاً متعددة ـــ لأن المجتمعات الإسلامية ظلت محتفظـــة بقواعدهـــا ونظمهـــا الإسلامية المبنية على مفاهيم الإسلام ومعطياته . ظلت وحدة المجتمع الإســـلامي قائمة حتى أواخـــر القرن الماضى وهو الوقت الذى احتل فيه الاســـتعمار معظـــم الأراضى والبلاد الإسلامية ، وبدأ الغزو الفكرى الاستعمارى العلمانى للمجـــالات الثقافية والاقتصادية والسياسية والتربوية والتعليمية وغيرها .

فتغير كثير من النظم والقواعد الإسلامية وحلت محلها نظم وقواعد مســتوردة من الغرب تحمل مفاهيم المجتمعات الغربية وأدى ذلك إلى هذا التشـــتت والتمـــزق الذى يهـــدد وحدة المجتمعات الإسلامية . ولا يمكن الزعم بأن ما هو حـــادث الآن فى المجتمعات الإسلامية هو نوع من التعدد والتنوع فى هذه النظم والقواعد ، لأن النظم والقواعد المستوردة تخص المجتمعات الغربية بديانتها المســيحية وتاريخهـــا ومفاهيمها الدينية والثقافية والحضارية ، فهى مختلفة عن النظم والقواعد الخاصـــة بالمجتمعات الإسلامية بدينها الإسلامى وتاريخهـــا ومفاهيمهـــا الدينيـــة والثقافيـــة والحضارية الإسلامية ، ويجب أن نفرز ونغربل وننقى نظمنا وقواعدنا وقوانيننـــا الإسلامية مما أصابها من النظم والقواعد الدخيلة فى شتى المجـــالات الاقتصاديـــة والسياسية والثقـــافية والاجتماعية وغيرها ..... حتى تشفى مجتمعاتنا الإســـلامية من هذا التمزق الذى تعيشه والذى يهدد وحدتها .

القوانين ووحـــدة المجتمع الإســـلامـــى :

معظم المجتمعات العربية والإسلامية لا تطبق الشريعة الإسلامية إلافى فـــرع واحد من فروع الحياة وهو فرع الأحول الشخصية وهو الـــذى يتعلـــق بـــالزواج والطلاق والنفقة والميراث والقرابة ... وغيرها.

وحتى فى هذا الفرع فإن كثيرًا من البلاد العربية والإسلامية لم تســـر علـــى النظام الإسلامى بحذافـــيره بل عطلته فى بعـــض مســـائل الأحـــوال الشـــحصية واستبدلت به نظامًا غير إســـلامى . وهناك الآن فـــى بعـــض البـــلاد الإســـلامية والعربية بعض الاتجاهات التى تنادى بتغيير نظام الأحوال الشـــخصية واســـتبداله بالنظام الذى تسير عليه الأمم المسيحية فى أوربا وأمريكا وخاصـــة فـــى أحـــوال الطلاق وتعدد الزوجات ، هذا فى مجال الأحوال الشخصية أما فى بقيـــة الفـــروع والنواحى مثل القوانين المدنية والجنائية فقد استبدلت القوانين الاســـلامية بقوانيـــن غير إسلامية استوردناها من الغرب ، أو فرضت علينا أو تأثرنا بها نتيجة الغـــزو الاستعمارى ، وهى قوانين خاصة بمجتمعات تختلف عنا كل الاختلاف فى ديانتها وعقيدتها وبيئتها وحضارتها وثقافتها وتاريخها وتقاليدهـــا ، وعرفهـــا الخلقـــى ، ومقاييسها للفضيلة والرذيلة .

وهذه القوانين الأوربية الغريبة عن بيئتنا وديننا وتقاليدنا وأخلاقنا ومقاييســـنا الإسلامية لازالت تسيطر فى معظم نواحى حياتنا ، ولانزال مصرين على التمسك بها والسير عليها . وقد نتج عن هذه الأوضاع والأحوال أضرار اجتماعية خطيرة أصابت المجتمعات الإسلامية التى لم تطبق فيها أحكام الشريعة الإسلامية منها :

١- انقسام خطير فى النظام التشريعى، حيث يوجد فرع واحد من فروع الحياة هو فرع الأحوال الشخصية تطبق فيه أحكام الشريعة الإسلامية ، وبقيـــة الفـــروع تطبق فيها أحكام غربية بعيده عن الإسلام ، مما خلق نوعًا من التنافر والتمزق لأن كلا النظامين الإسلامى والغربى متنافرين ومختلفيـــن فـــى أصولهمـــا ونشـــأتهما وقواعدهما ومناهجهما وأهدافهما وطرائقهما فى تنظيـــم العلاقـــة بيـــن النـــاس . ومجتمعات هذا شأنها لا يكتب لها الاستقرار والتقدم والنهوض والريادة ما دامت لم

تطبق أحكام الشريعة الإسلامية فى جميع المجالات والنواحى ، حت يسود الوئـام والانسجام بين أفرادها . والإسلام دين متكامل بمعنى أن أحكامه متكاملـة يكمل بعضها بعضًا ، ويرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقا ، ولا يستقيم أمـر المجتمع على الصواب إلا إذا أخذ بجميع أحكام الإسلام كلها .

٢ – ومن المفارقات أن المجتمعات الإسلامية فى شتى بقـاع الأرض ظلـت محتفظة بتقاليدها الإسلامية ، وأعرافها الخلقية ، ومقاييسها للفضيلـة والرذيلـة ، ونظرتها لما ينبغى أن تكون عليه العدالة برغم وجود هذه القوانين المستوردة مـن الغرب . ولم تستطع هذه القوانين المستوردة من الغرب طوال قرن من الزمـن أن تغير من التقاليد والاعراف والمقاييس التى تؤمن بها المجتمعات الإسلامية . وكـل الذى فعلته هذه القوانين المستوردة أنها أوجدت هـذا التنـافر بيـن المجتمعـات الأسلامية وهذه القوانين المستوردة كما أنها أثرت فـى بعـض النخـب الثقافيـة والاقتصادية والسياسية والاجتماعية من أبنـاء العرب والمسلمين التـى أصبحـت حربًا على مجتمعاتها .

٣ – كما أن هذه القوانين المستوردة من الغرب ليست متعارضـة ومخالفـة لأحكام الشرعية الإسلامية فقط ولكنها متعارضة ومخالفـة لتقاليدنـا الإسـلامية ، وأعرافنا الخلقية ومقاييسنا للفضيلة والرذيلة ، ونظرتنا لما ينبغى أن تكـون عليـه العدالة وتكون عليه العلاقات بين الناس . وقد أورد الدكتور : على عبـد الواحـد وافى فى كتابه " بحوث فى الإسلام والاجتماع " مثالاً واحدًا يقاس عليه غيره مـن مئات الأمثله الموجودة فى المجتمعات الإسلامية والتى تبين مدى التناقر بين هـذه القوانين المستوردة وبين أخلاقنا وأعرافنا، ومقاييسنا . وهذا المثال يختص بالقوانين المستوردة من الغـرب " . وتقرر هذه القوانين المستوردة الصورة المطبقـة فـى مصر وفى كثيرمن البلاد العـربية والإسلامية الأخرى ، أن الزانية لاتوقع عليهـا أيـة عقوبة إذا كانت غير متزوجة أو كانت متزوجة ولم يرفع زوجهـا الدعـوى عليها ، أو رفعها ثم طلب وقف الإجـراءات أو وقـف تنفيـذ الحكـم برضائـه بمعاشرتها كما كانت ، وأن الزانى لاتوقع عليه عقوبة ما إذا كان من زنى بها قـد بلغت الثامنة عشـرة ووقعت الجريمة برضاها وكانت غير متزوجة ولـم يرفـع

زوجها الدعوى عليها ، وهذا إذا كان الزانى نفسه غير متزوج . وكذلك لاتوقع عقوبة على الزانى المتزوج فى الحالات السابقة إذا ارتكب جريمته فى غير منزل الزوجية أو ارتكبها فى منزل الزوجية ولم ترفع زوجته الدعوى عليه ؛ وأنه لاتوقع عقوبة على هاتك العرض إذا كان من هتك عرضه ذكرا أو أنثى قد بلغ الثامنة عشرة ووقعت الجريمة برضاه . ويلاحظ أن الحالات التى يعفى فيها الزانى والزانية وهاتك العرض من العقوبة بحسب هذه القوانين تشمل فى الواقع معظم الحالات التى تحدث فيها هذه الجرائم ، لأنه من النادر أن تحدث هذه الجرائم بغير رضا الطرفين ، كما أنه من النادر أن يرتكب الزوج جريمة الزنى فى المنزل الذى يقيم فيه مع زوجته . فهذه القوانين قد أعفت من العقوبة معظم جرائم الزنى والشذوذ الجنسى ، وهتك العرض . وهذه القوانين مقتبسة من عقوبات القانون الفرنسى . ومن هذا القانون نفسه استمدت معظم القوانين الأوربية والأمريكية موادها الخاصة بهذا النوع من الجرائم .

وهذه القوانين تعبر تعبيرًا صادقا عن تقاليد الغربيين ، وعرفهم الخلقى ، ومقاييسهم للفضيلة والرذيلة ونظرهم إلى هذه الأمور . فالقوم هناك يعدون أمور الزنى ، وهتك الأعراض من الهنات الهينات ، ولا تثير كثيرًا من نفورهم ولا من اشمئزازهم ولا تهمهم كثيرًا مسائل الجنس ولا شئون العرض وما يتصل بها . ويبدو هذا فى كثير من مظاهر شئونهم الجماعية والعائلية . فهذه القوانين تستمد إذن أحكامها من واقعهم العملى، وتقتبس موادها من نظرتهم للأشياء وتقديرهم للأفعال ومناهجهم فى الحياة . وأما نحن معشر العرب فإننا لم نصل بعد إلى هذه الدرجة من الحضارة الزائفة ، ونسأل الله ألا نصل إليها . أو بعبارة أصح لم ننحدر بعد إلى هذا الدرك من البهيمية . فلا تزال مسائل العرض عندنا من أهم الأمور التى تشغلنا، ونحافظ عليها ونذود عنها ولا يزال الناس عندنا يتقاتلون ويقتلون فى سبيل المحافظة على العرض والذود عنه ، ولا نزال ننظر إلى الزنى على أنه من أكبر الفواحش وأعظم الآثام ، ولا يستسيغ فهمنا أن تواطؤ المجرمين واشتراكهما برضاهما فى جريمة الزنى يعفيهما من العقوبة ، فالتواطؤ فى جريمة الزنى لايختلف فى نظرنا عن التواطؤ فى جريمة القتل أو جريمة السرقة وما إلى ذلك . ولا يستسيغ عرفنا الخلقى أن تعفى الزوجة الزانية ويعفى من الزنى من زنى

بهـــا من العقـــوبة إذ كان جرمهما قد حدث برضا الزوج ، بل إن عرفنا الخلقـــى ليقضى فى مثل هذه الحالة ألا تقتصر العقوبة على الزوجة ومن زنى بهـــا ، بـــل يضم إليهما هذا الزوج الديوث وتوقع عليه عقوبة شديدة لاشتراكه فـــى الجريمـــة ولانحطاطه وتجرده من الشرف والغيرة . فإذا جاءت قوانيننا مع هذا وقـــررت أن الزنى وهتك العرض اللذين يقعان برضا الطرفين لا عقوبـــة فيهمـــا ، وإن زنـــى الزوجة لا عقوبة فيه مادام قد حدث برضا الزوج .... إذا جاءت قوانيننا فقـــررت هذه الأمور وما إليها مما سبق أن أشرنا إليه ، فإنها لذلك لا تنحـــرف عـــن ديننـــا الإسلامى فحسب ، بل تنحـــرف كذلك عن تقاليدنا وعرفنـــا الخلقـــى ومقاييســـنا للفضيلة والرذيلة ونظرتنا إلى هذه الأمور . وغنى عن البيان أن قوانين تتنافر مع دين الشعب وتقاليده وعرفه الخلقى تكون معولاً هداماً فى نظامه ، ولا تستقيم لـــه حياة اجتماعية ولا يتحقق له استقرار حضارى مع وجودها . وما قلناه فى قوانيين الزنى وهتك الأعراض نقـــول مثله فى جميع القوانين التى استوردنها والتى ســـار عليها قضاؤنا ، سواء فى ذلك ما يتعلق منها بالشئون الجنائية وما يتعلق بالشـــئون المدنية وما يتعلق منها بغير هذين الفرعين .

٤ – وبجانب تعارض هذه القوانين المستوردة مع ديننا الإســـلامى وتقاليدنـــا وأعرافنا الخلقية ومقاييسنا ، يورد د. على عبد الواحد وافى سببًا أخر تتميز به هذه القوانيين المـــستوردة ، وهو أنها قوانين معقدة كل التعقيد ، بها تغيـــيرات كثـــيرة تؤدى للتضليل ، وإلباس الباطل ثوب الحق ، وتعقيد إجراءات التقـــاضى وإطالـــة زمن التقاضى ، وضياع الحقوق على أصحابها لأنها فى الأصـــل مقتبســـة مـــن القوانين اليونانية والرومانية . والقوانين اليونانية والرومانية تنعكس فيهـــا عقليـــة واضعيها الذين عرفوا بالجدل والسفسطة والمهارة فى وسائل التمويـــه والخـــداع ، حتى إن السارق فى العرف اليونانى كان لا يعد سارقـــاً إلا إذا فشل فـــى التمويـــه والاحتيال وضبط متلبسًا بالسرقة . وتعلم السرقة من المسائل المتبعـــة لاكتســـاب المهارات والنجاح فى الحياة فى العرف اليونانى وأن من يضبط وهو يسرق يعـــد فاشـــلاً .

فمن هذه الناحية فإن القوانين المستوردة تتعارض مع طبيعتنا وعاداتنا العربية الإسلامية فى التقاضى والتى اكتسبناها على مر التاريخ الإسلامى ، والتى تحرص على الوصول إلى الحق من أيسر السبل وأقصرها وأبعدها عن الالتواء .

من هذا يتضح أن هذه القوانين المستوردة هى علة المشاكل التى نشاهدها الآن فى المحاكم من بطء التقاضى . فبعض القضايا تمتد سنين عديدة دون البت فيها ، وكذلك ضياع بعض الحقوق وغيرها من المشاكل التى تعانى منها المجتمعات التى تطبق هذه القوانين المستوردة .

ما سبق يدل بطريقة مختصرة عن واقع النواحى التشريعية والقانونية فى معظم البلاد العربية والإسلامية حيث حلت القوانين المستوردة محل أحكام الشريعة الإسلامية التى ظلت تحكم المجتمعات الإسلامية منذ مجىء الإسلام وحتى نهاية القرن الماضى . ومنذ احتل المستعمر البلاد العربية والإسلامية عمل على إحلال قوانينه الغربية العلمانية محل القوانين المستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية ، مع ما تحمله هذه القوانين المستوردة من مفاهيم خاصة بالمجتمعات الغربية .

فهذه القوانين المستوردة تحمل معتقدات المجتمعات الغربية الدينية ، والأخلاقية المسيحية وتاريخها المعروف الذى ذكرنا . سابقاً . كما أن هذه القوانين المستوردة تحمل العادات والتقاليد والأعراف الخلقية والمقاييس للفضيلة والرذيلة التى تؤمن بها المجتمعات الغربية مع ما تحمل هذه القوانين من تعقيدات إجرائية فى نواحى التقاضى .

وأدى ذلك إلى التمزق الذى أشرنا إليه فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية . ولا سبيل لإصلاح حال مجتمعاتنا العربية والإسلامية إلا بتوافر شروط علمائنا فى وضع تشريع شامل لجميع نواحى حياتنا مستمد من الشريعة الإسلامية لتحل محل هذه القوانيين المستوردة التى تطبق فى معظم بلادنا العربية والإسلامية .

وترجع أهمية وضع تشريع شامل لجميع نواحى حياتنا مستمد من الشريعة الإسلامية بدلاً من التشريعات المستوردة إلى ما يأتى : -

أولا : تنفيذ أوامر الله عز وجل كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة . ومن أولى المسلمات فى الدين الإسلامى الذى تؤمن به الشعوب

الإسلامية والمجتمعات الإسلامية ، أن الشريعة الإسلامية تحكم واقـــع معــاملات الناس كما تحكم مسائل العبادات ســـواء بســـواء . فالإســلام كــل لا يتجــزأ ، والإيمان به ، إيمان بكل ما جاء به . وحصر الإسلام فـــى الزوايـــا والمساجـــد وعــزله عن واقع معاملات الناس هو تنفيذ للفكر العلمانى التغريبى بفصل الديـــن عن المجتمع والدولـــة . وهو مخالف لما جاءت به الشريعة الإسلامية التى يؤمـــن بها الأفراد والشعوب والمجتمعات الإسلامية .

ثانيا : القضاء على البلبلة والتشتت والتمزق الذى أصيبـت بــه المجتمعــات الإسلامية وهدد وحدتها فى المجالات المختلفة . وهذا التمزق والتشـــتت والبلبلـــة ناتجة كما أسلفنا عن التعارض بين إيمان الشعوب الإسلامية القوى بدينها الإسلامى وبين هذه القوانين المستوردة المخالفة لما جاءت به أحكام الشريعة الإسلامية .

ثالثا : قيام وحدة المجتمع الإسلامى واستقامتها وهى الوحدة النـــى اجتمعــت عليها الشعوب الإسلامية سواء فى الدولة الإسلامية الواحدة وقت أن كانت هنـــاك دولة إسلامية واحدة أو فى الدول الإسلامية المتعددة، لأن القوانين إذا كـــانت هـــى أحكام الشريعة الإسلامية فسوف يؤدى ذلك إلى وحـــدة القوانيـــن فـــى المجتمـــع الإسلامى وسيكون ذلك أهم العوامل – بالإضافة إلـــى وحـــدة القواعـــد والنظـــم الاجتماعية – فى وحدة المجتمع الإسلامى .

ثانيا : المجتمعات الإسـلامية والتعـدد

هل هناك فى الوقت الحاضر تعدد وتنوع فى ظل الوحدة ، فى كل مجال مـن المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.... يسود المجتمعات الإسلامية ؟

ففى المجال الثقافى :

هناك أدب ظهر فى العقود الأخيرة وأطلق عليه "الأدب الإسلامى" فى مقـابل الأدب الغربى الذى يسود المجتمعات العربية والإسلامية منذ أوائل هـذا القـرن ، والذى غزته المفاهيم العلمانية كما بينا سـابقـًا .

وهناك الفنون الإسلامية الموجودة الآن والتى أبدعها الفنـانون فـى العصـر الحـاضر فى مقابل الفنون العادية السائدة والتى هى تقليد للفنـون فـى الغـرب وخاصة فى الرسم والنحت .

وكذلك بعض الأفلام والمسرحيات التاريخيـة الإسـلامية وبعـض الأفـلام والمسرحيات الاجتماعية ذات المعالجات التى تتمشـى مـع مفاهيمنـا الأخلاقيـة الإسلامية ، فى مقابل فيض من الأفلام والمسرحيات التى تحمل الطـابع الغربـى والتى تعالج المشـاكل التى تصيب المجتمعات العربية والإسلامية من وجهة نظر علمانية .

وغيرها من المجالات الثقـافية والإعلامية كالصحافة التـى تحمـل الطـابع الإسلامى فى مقابل الصحافة التى تحمل الطابع العلمانى المسيطر .

وهناك مظاهر العادات والتقاليد والملابـس والمـأكل والمشـرب المتمسـكة بالمفـاهيم الإسلامية فى مقابل مظاهر العـادات والتقـاليد والملابـس والمـأكل والمشرب .. المقلدة للغرب وغيرذلك الكثير من الأعمال والمجالات الثقافية التـى تتجلى فيها وجهة النظر الإسلامية المتوارية نتيجة لعـدم التشـجيع مـن النخـب المسيطرة ، فى مقابل الأعمال والمجالات الثقافية المعبرة عن وجهة النظر العلمانية التى تجد التشجيع من النخب المسيطرة .

وفى المجـــال الســـياسى :

هناك الأحزاب الإسلامية القليلة المحاصرة التى تدعو إلـــى الأخـذ بأحكــام الشــريعة الإسلامية فى شتى المجالات وليس فى العقائد والعبادات فقط كمـــا هــو سائد الآن فى معظم البلاد الإسلامية حيث الدين محصور فى الزوايـــا والمســـاجد بعيدًا عن واقع حياة النـــاس .

فى مقابل الأحزاب المسيطرة والتى تحمل المفاهيم العلمانية فى كثير من البلاد الإسلامية .

وفى ظل هذا الحصار السياســى المضــروب حــول الأحــزاب الإســلامية والتوجهات الإسلامية ، جنحت هذه الأحــزاب التــى تحمــل المفــاهيم العلمانيــة والمسيطرة على شتى الأمور ، إلى شكل صورى مزيف من أشكال الديمقراطية ، فانعدمت الحريات الحقيقية والديمقراطيات الحقيقية ، وأصبحت الشعوب الإسلامية تعانى من تمزق سياسى بجانب التمزق فى المجالات الأخرى فى كثير من البـــلاد الإسلامية . وأدت عوامل القهر والكبت إلى ظهور الديمقراطيات المزيفة ، وإلـــى نتائج فى غاية السوء والخطر مثل انتشار مشاعر الخـــوف والســـلوكيات الســـلبية وانتشار العنف والتطرف والإرهـــاب .

فى المجال الاقتصادى :

الاقتصاد الرأسمالى هو الاقتصاد السائد فى معظم المجتمعات الإســـلامية الآن وفى مقابله يوجد الاقتصادى الإسلامى الذى اقتصر وجوده على بعـــض البنـــوك الإسلامية .

وقد يرى البعض أن الاقتصاد الإسلامى يتشابه مع الاقتصاد الرأســـمالى فـــى كثير من الأمور ، إلا أن الاقتصاد الإسلامى هو اقتصـــاد قـــائم بذاتـــه ، لا هـــو بالرأسمالى ولاهو بالاشتراكى . ويرجع هذا التشابه إلى أن المعاملات عمومًا فـــى الإسلام الأصل فيها هو الإباحة ، ولاحظر إلا بدليل ، بمعنى :

" أن البحث عن دليل مشروعية كل معاملة أمر محمود ، ولكنه غير واجـــب لأن الأصل فى المعاملات الإباحة ولاحظر إلا بدليل ، فإذا استحدث الناس معاملـــة جديدة . فليس الواجب أن نبحث هل هى مباحة أم لا ، بل الواجب أى نبحث هـــل

هى محظورة أم لا ، لأنها مباحة بحسب الأصل ، والحظر هو الاستثناء ، ومن ثم يجب قيام الدليل عليه ، وهذا هو مذهب المحققين من العلماء" (٢).

وفى المجال التشريعى والقانونى :

كما ذكرنا سابقا فمعظم القوانين فى المجتمعات الإسلامية قوانين وضعية فى مقابل قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية .

وغير ذلك فى شتى المجالات نجد هذا النوع من التعدد . ولكن هل هذا التعدد فى المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها يدور فى ظل وحدة تقرها المجتمعات الإسلامية ؟ . بمعنى آخر ، هل هذا التعدد نتيجة إفراز طبيعى للمجتمعات الإسلامية أم تعدد نتيجة لفرض الأفكار العلمانية والتغريبية على المجتمعات الإسلامية ؟ . هل هذا التعدد يمثل مفاهيم ومعطيات الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية ، أم أنه تعدد يمثل ثقافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين ؟ .

وأخيرًا هل هذا هو التعدد المنشود؟

قدمنا فيما سبق الإجابة عن هذه الأسئلة وبينا أن التعدد الموجود فى المجتمعات الإسلامية الآن فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها... هو تعدد بين ثقافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين ، إحداهما الثقافة والحضارة الإسلامية والثانية هى الثقافة والحضارة العلمانية الغربية التى فرضها الاستعمار إبان احتلاله للبلاد العربية والإسلامية ، وعزز وجودها بالغزو الثقافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى وغيرها .... للمجتمعات الإسلامية . كما بينا أن هذا التعدد لايجمعه وحدة لأنه من ثقافتين وحضارتين مختلفتين ويبقى أن هذا التعدد ليس من إفراز المجتمعات الإسلامية ، و دليل ذلك أنه لاتوجد وحدة تحكم هذا التعدد كما أن التعدد على هذه الصورة يبين أنه نتيجة الفرض القسرى والقهرى فلو كان نتيجة إفراز المجتمعات الإسلامية لكان نتيجة حرية حقيقة باشرتها الشعوب الإسلامية أدت إلى إفراز هذا التعدد ولكانت هناك وحدة حقيقية تحكم هذا التعدد ولكانت هناك مفاهيم مشتركة تمثل هذه الوحدة .

---

(٢) د. عاشور عبد الجواد عبد الحميد: " البديل الإسلامى للفوائد المصرفية الربوية " .

ولكن كيف نشأ التعدد الموجود حاليًا والذى يمثل ثقافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين . إذا لم يكن من إفراز المجتمعات الإسلامية ولم يكن نتيجة حرية حقيقية ؟

لقد نشأ هذا التعدد نتيجة الفرض والقسر الذى باشره الاستعمار إبان احتلاله للبلاد الإسلامية . ثم تولت النخب السياسية والثقافية والاقتصادية ... المتأثرة بأفكار الاستعمار التغريبية والعلمانية إتمام المهمة بعد رحيله عن البلاد الإسلامية . ثم قامت هذه النخب السياسية والثقافية المتأثرة بأفكار الاستعمار التغريبية والعلمانية بالسير على نفس المنوال الذى وضعه وسار عليه الاستعمار وحافظت على تفعيل الأفكار العلمانية والتغريبية فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية وغيرها... فى المجتمعات الإسلامية ومقاومة الأفكار الإسلامية وعدم فرضها وتفعيلها فى المجالات المختلفة .

وأدى ذلك إلى نتيجتين خطيرتين :

النتيجة الأولى : فرض النظم والقواعد والقوانين التى تحمل المفاهيم التغريبية العلمانية فى شتى المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

النتيجة الثانية : وهى الأخطر ، هى عدم تطوير النظم والقواعد والقوانين التى تحمل المفاهيم الإسلامية لتواجه مستجدات العصر وخاصة القوانين التى تحتاج للاجتهاد والرأى نتيجة حصرها وعدم تفعيلها فى المجالات السياسية والاجتماعية والإقتصادية والثقافية وغيرها ... طوال القرن الحالى وهو القرن الذى نشأت فيه مستجدات ومسائل متنوعة ومتعددة ومعقدة تحتاج للاجتهاد والرأى .

وظل أصحاب الدعوة الإسلامية الحقيقية ، التى كانت تحث على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على الشعوب والمجتمعات وبناء النظم والقواعد الاجتماعية الإسلامية ، محاصرون ومهددون ومشردون ومعرضون للسجن والقتل . فانصرفت جهودهم إلى الحفاظ على دينهم الإسلامى كما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة فى مواجهة هذه الموجة العاتية من التغريب والأفكار العلمانية ، ولم يباشروا تطوير النظم السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية الإسلامية لأنه لم يكن مسموح لهم بذلك .

أما الشعوب الإسلامية فرغم رفضها لهذا الغزو الاستعمارى فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فقد آثرت العزلة والسلبية فى مواجهة البطش والإرهاب الاستعمارى العلمانى دون التخلى عن دينها الإسلامى .

وفى العقود الأخيرة بدأت الشعوب الإسلامية تفيق من غفلتها وتتنبه إلى أهمية دينها الإسلامى وأهمية ما يحتويه من مفاهيم ومعطيات فى مجالات الحياة المختلفة ، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفتى مما أعطى دفعة قوية للصحوة الإسلامية وخاصة بعد انتشار الوعى ومعرفة الذات ومعرفة ما عند الغير .

وكلما استطاعت الشعوب الإسلامية التقدم والقضاء على الأمية والجهل وزيادة الوعى ، كلما اتضحت الرؤية أمامها وعرفت مفاهيم ومعطيات دينها فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها ...

وأدى ذلك إلى استنهاض همم الذين يمثلون المفاهيم والمعطيات الإسلامية فى مواجهة أصحاب التيار التغريبى العلمانى . وفى العقود الأخيرة أصبحت المواجهة حادة بين من يمثلون الثقافة والحضارة الإسلامية من جانب ، ومن يمثلون الثقافة والحضارة العلمانية الغربية من جانب آخر فى كثير من البلاد العربية والإسلامية ، وخاصة بعد ما ظهرت سوءات النظام العلمانى الغربى وبدء الشعوب الأوربية فى البحث عن القيم الروحية المفقودة فى ثقافتها وحضارتها . وللأسف الشديد ، فإن هذه المواجهات اتخذت فى أوقات عديدة طوال هذا القرن ، صور العنف والاقتتال والتربص بالآخر ونية استئصال الأخر .

هكذا نشأ هذا النوع من التعدد ، وهكذا صارت نتيجته كما نرى فى بعض المجتمعات الإسلامية من صور التشتت والتمزق الذى يهدد الوحدة فى كافة المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها . واتضح لنا أن هذا النوع من التعدد الذى يمثل ثقافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين ، لايحوى مفاهيماً مشتركة تمثل الوحدة فهو تعدد لاتجمعه وحدة لأنه لايحتوى على مفاهيم مشتركة ، أى ليس هناك وحدة فى هذا النوع من التعدد . من أجل ذلك كان التمزق السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى الذى أصاب المجتمعات الإسلامية .

استرجـــاع وحـــدة المجتمع الإســـلامى :

لقد مرت أقطار العالم الإسلامى بفترات تاريخية طويلة منذ مجـــىء الإســـلام وحتى نهاية القرن الماضى . وهى تخضع للوحدة السياسية فقد كانت هناك قيـــادة واحدة ودولة واحدة للعالم الإسلامى ، أثناء حكم الخلفاء الراشدين ، وفى العصـــــر الأموى وأوائل العصر العباسى حدث أول انشقاق فى خلافة أبى جعفر المنصـــور ثانى الخلفـــاء العباسيين (١٣٦-١٥٨هـــ) حيث اســـتقل عبـــد الرحمـــن الداخـــل المعروف "بصقر قريش" بالأندلس وأسس الدولة الأموية فيها ، وظل بقيـــة العـــالم الإسلامى الممتد الأرجاء تحت قيادة واحدة ودولة إســـلامية واحـــدة هـــى الدولـــة العباسية حتى القرن الثالث الهجرى عندما نشأت الدويلات الإسلامية التـــى كـــانت تحكم ذاتيًا تحت القيادة العباسية .

وعندما اجتاح المغول بقيادة هولاكو بلاد ماوراء النهر وإيران ودخلوا بغـــداد ٦٥٦هـــ (١٢٥٨م) ســـقطت الخلافة العباسية ، وأسس المغول دولتهم الإســـلامية فى الجزء الشرقى من العالم الإسلامى . وسيطر المماليك على مصر . وفى عـــام ١٥٦١م قام السلطان سليم الأول بتوحيد العالم الإسلامى مرة أخرى تحـــت قيـــادة واحدة ما عدا إيران . واستمرت الدولة الإسلامية تحت قيادة واحدة ما عدا إيـــران منذ ذلك التاريخ ولمدة أربعـــة قرون حينما تفككت وحدة العـــالم الإســـلامى مـــرة أخرى بعد انتهـــاء الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا فى الحـــرب . وبعدهـــا أطبق الاستعمار على بقية العالم الإسلامى .

ولاشك أن الوحدة السياسية التى جمعت أقطار العالم الإسلامى كان لها أثرهـــا العظيم فى تقدم وتطور الشعوب والمجتمعات الإسلامية ، مما جعل العالم الإسلامى فى فترات الوحدة أقوى شعوب الأرض آنذاك ، غير أن هناك وحدة أخـــرى غـــير الوحدة السياسية أو وحدة التاريخ أو اللغة وما شابهها ، كانت تجمع شعوب العالم الإسلامى ومجتمعات العالم الإسلامى سواء كان هذا العالم متحدًا سياســـيًا أو كـــان دولاً متفرقة .

هذه الوحدة التى جمعت شعوب ومجتمعات العالم الإسلامى ظلت سائدة طوال عصور الإسلام المختلفة حتى نهاية القرن الماضى . وتتمثل هـــذه الوحـــدة التـــى

جمعت شعوب ومجتمعات العالم الإسلامى ، سواء كان دولة واحدة أو دولاً عديدة فى :

١- وحدة القوانين التى تسود العالم الإسلامى والمستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية .

٢- وحدة القواعد والنظم الاجتماعية الإسلامية التى كانت تشمل جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة .

فالحل إذن استرجاع وحدة المجتمعات الإسلامية ، ويتمثل فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، وبناء النظم الاجتماعية على أسس إسلامية .

وقد كانت وحدة المجتمعات الإسلامية سائدة ومستقرة طوال التاريخ الإسلامى حتى أواخر القرن الماضى حيث كانت تطبق القوانين المستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية فى معظم المجالات المختلفة .

ولما احتل المستعمر البلاد الإسلامية ، تغيرت النظم الاجتماعية نتيجة للغزو الفكرى الاستعمارى ونتيجة لما قام به المستعمر من تغيير فى هذه النظم .

وسوف يؤدى بناء النظم الاجتماعية الإسلامية وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وتنقية الثقافة العربية الإسلامية من المفاهيم العلمانية إلى سيادة وسيطرة قيم المجتمع الإسلامى وقوانينه على جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحياة العلمية والتقنية والتعليم والتربية وغيرها من المجالات المختلفة للمجتمع الإسلامى . وسوف تتأسس وتتأصل قيم المناصحة والمراجعة والنقد والرقابة العامة وحسبة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تطور وسائل الحسبة والارتقاء بها لأن وسائل وأساليب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو ما يسمى " الرقابة العامة لقيم المجتمع " لم تتطور وتتقدم منذ عهودها القديمة مثلما تطورت وتقدمت فى البلاد الأوروبية والأمريكية التى تأصلت فيها أنظمة الرقابة المالية ، والإدارية والقضائية والإعلامية وأصبح لها مؤسسات متخصصة وأقسام فى المعاهد والجامعات وأصبح الإعلام المسموع والمقروء

والمرئى يشكل السلطة الرابعة لأهميته وفاعليته وما يمكن أن يقوم به من رقابة عامة على المجتمع .

وهنا يثور السؤال :

كيف يتم الوصول إلى ذلك فى واقع المجتمعات الإسلامية التى يعيش معظمها فى ظل هذا النوع من التعدد الذى يمثل ثقافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين هما الثقافة والحضارة الإسلامية فى مقابل الثقافة والحضارة العلمانية الغربية ؟

للوصول إلى ذلك لابد من وجود حرية حقيقية . فالحرية دون حظر على أى اتجاه سوف تؤدى إلى التنافس الحر الذى يؤدى إلى التطور والتقدم ، فالاتجاه الذى يمثل الثقافة والحضارة الإسلامية سوف يطور وسائله ويجدد ما يحتاج إلى الاجتهاد والرأى فى شتى المجالات المختلفة ، وكذلك سوف يفعل الاتجاه الذى يمثل الثقافة والحضارة العلمانية الغربية ، وسوف يؤدى ذلك إلى حلول جذرية لشتى المشاكل التى تعانى منها الشعوب والمجتمعات الإسلامية ، وسوف يؤدى إلى مفاهيم مشتركة تمثل الوحدة المنشودة .

وقديمًا عندما قام المسلمون بالفتوحات الكبرى أوائل القرن الأول الهجرى ودخلوا العراق والشام وفارس ومصر وبلاد المغرب وغيرها ، تركوا الحرية للأفراد والشعوب فى هذه البلاد ولم يجبروهم على ترك معتقداتهم وثقافتهم وحضارتهم واعتناق الإسلام واتخاذ الثقافة العربية لتحل محل ثقافاتهم ، بل تركوا لهذه الشعوب الحرية المطلقة . فاعتنق الكثير من الأفراد والشعوب الإسلام وظل بعضهم على دينه وثقافته .

وقام فى هذه البلاد التى فتحت نوعان من الثقافة ، إحداهما تمثل المفاهيم الإسلامية وهى ثقافة الشعوب التى اعتنقت الإسلام ، والأخرى تمثل الثقافة التى كانت عليها الشعوب قبل مجىء الفتح الإسلامى ، وظلت الدواوين ونظم الإدارة واللغة وكثير من الكتابات والشعارات على القراطيس والطرز والستر والملابس

على حالها ولم يفرض عليها الطابع الإسلامى لعدة عقود ، بل إن بعضها استمر حتى أواخر القرن الأول الهجرى . وحين دخلت هذه الفئات الإسلام وآمنت بمعطياته ومفاهيمه ، تغيرت الثقافات وحلت الثقافة العربية الإسلامية محل غيرها من الثقافات وأصبح هناك وحدة تجمع ثقافة هذه الشعوب ، وفى ظلها صار التعدد والتنوع فى شتى المجالات . مما كان له أثره الكبير على المنتوجات الحضارية التى أبدعها المسلمون فى شتى المجالات والتى عكست معنى هذا التنوع والتعدد فى ظل الوحدة فى الحضارة الإسلامية . وكذلك جاءت كل منتوجات الحضارة الإسلامية فى شتى المجالات النظرية والعملية ، وفى العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية وفى مجالات الفنون والآداب وغيرها .... تحمل هذه الوحدة التى فى ظلها كان التعدد فى كل مجال من هذه المجالات .

الفصل الخامس

فى الاقتصاد الإسلامى

النظم والقواعد الخاصة بالاقتصاد فى المجتمعات الإسلامية أصابها هى الأخرى تغييرات يخالف كثير منها ما جاءت به الشريعة الإسلامية . فأغلب النظم والقواعد التى يسير عليها الاقتصاد فى معظم البلاد الإسلامية ، مستوردة من المجتمعات الغربية ، و لم تستخدم نظمًا وقواعد إسلامية فى كثير من المجالات الإقتصادية فى المجتمعات الإسلامية .

فكان ذلك أيضًا عاملاً من أهم العوامل التى ساعدت على التمزق فى مجتمعاتنا الإسلامية لأن الاقتصاد يعتبر من المجالات الحيوية التى تحمل انطباعات المجتمعات الروحية والمادية ويتجلى فيه خصائص الأمم وعناصر الخير والشر فيها .

وتنظيم الاقتصاد وتوجيهه وفقًا لأصول الإسلام ومبادئه الاقتصادية أمر هام جداً لوحدة المجتمعات الإسلامية والقضاء على التمزق الذى يهدد هذه الوحدة .

والاقتصاد الإسلامى يقوم على عدة أصول جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وهى أصول ثابتة صالحة لكل زمان ومكان ، فلا تغيير فيها ولا اجتهاد .

كما أن الاقتصاد الإسلامى له أيضًا أساليبه وخططه العلمية التى ذكرها العلماء والأئمة والتى تحول هذه الأصول إلى حلول واقعية للمسائل الاقتصادية .

مثل بيان العمليات الربوية وصور الفائدة المحرمة ، وإجراءات تحقيق العدالة الاجتماعية ، ومقدار حد الكفاية أو الحد الأدنى للأجور، ونطاق الملكية

الخاصة والملكية العامة ، ومدى تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى ، وخطط التنمية وغيرها ...[1] .

والأصول التى يقوم عليها الاقتصاد الإسلامى والتى ذكرها د. محمد شوقى الفنجرى عالم الاقتصاد المصرى فى بحثه عن الاقتصاد الإسلامى هى :

١ - المال مال الله والبشر مستخلفون فيه :

فالمال مال الله لأن الله سبحانه و تعالى هو خالق الإنسان وخالق عمله وكده وخالق الكون الذى يسعى فيه الإنسان ليحصل على رزقه ، وخالق الرزق والمال الذى يتحصل عليه الإنسان .

فالكون والإنسان وعمله ورزقه وماله من خلق الله سبحانه وتعالى ، والإنسان ليس له من الأمر شىء فالمال مال الله . وحرية الفرد فى جمع المال وإنفاقه محدودة بحدود موافقة الشريعة وعدم الخروج عنها مثل عدم الإنفاق فى المحرمات وفيما يضر المجتمع والإسراف والتبذير .

يقول المولى عز وجل : " وآتوهم من مال الله الذى آتاكم " [2] .

ويقول تعالى : " وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه " [3] .

ويقول تعالى : " ولله ما فى السموات والأرض " [4] .

٢- ضمان حد الكفاية لكل فرض فى المجتمع الإسلامى :

يقول المولى عز وجل : " والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم "[5].

وقوله تعالى : ".أرايت الذى يكذب بالدين، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين "[6] .

---

(١) د. محمد شوقى الفنجرى : " الاقتصاد الإسلامى " كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، المجلد الثانى .

(٢) سورة النور آية ٣٣ .
(٣) سورة الحديد آية ٧ .
(٤) سورة النجم آية ٣١ .
(٥) سورة المعارج آيات ٢٤-٢٥ .
(٦) الماعون ١-٣ .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من ترك كلاً فليأتنى فأنا مولاه "[٧] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " من ترك ضياعًا فإلى وعلى "[٨] .

فتحديد حد أدنى للأجور كافية لقيام حياة كريمة للإنسان (حد الكفاية) وكفالة العاطل الذى استنفد الأسباب والعاجز وغيرهم من أصول الاقتصاد الإسلامى .

٣- تحقيق العدالة الاجتماعية وحفظ التوازن الاقتصادى بين أفراد المجتمع الإسلامى :

يقول الله سبحانه تعالى : " كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم "[٩] .

أى لايجوز أن يكون المال متداولاً بين فئة قليلة من أفراد المجتمع أو أن يستأثر بخيرات المجتمع فئة دون أخرى [١٠] .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم " [١١] .

والعداله والتكافل فى المجتمع الإسلامى لا تشمل المسلمين فقط بل تشمل جميع أبناء المجتمع دون تفرقة فى الجنس أو اللون أو الدين "رأى عمر بن الخطاب شيخًا ضريرًا يسأل على باب، فعلم أنه يهودى ، فقال له ما ألجأك إلى ما أرى ؟ فقال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذه عمر إلى داره ، فأعطاه ما يكفيه وقتئذ وأرسل إلى خازن بيت المال وأمره أن ينظر إلى هذا وأقرنائه ويعطيهم من بيت المال مثلما يأخذ كل مسلم فقير ، " إنما الصدقات للفقراء والمساكين " وهذا من مساكين أهل الكتاب [١٢] . ولما سافر عمر بن الخطاب إلى دمشق مر بأرض قوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت فى المجتمعات الإسلامية .

---

(٧) المستدرك للحاكم . (٨) البخارى ومسلم .

(٩)الحشر ٧ .

(١٠) د. محمد شوقى الفنجرى . الاقتصاد الإسلامى . كتاب دراسات فى الحضارةالإسلامية .

(١١) أخرجه البخارى ومسلم .

(١٢) د.السيد عسكر: كتاب "المنهج الإسلامى فى بناء المجتمع الإنسانى" .

٤- احترام الملكية الخاصة :

يقول المولى عز وجل " للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن "[١٣] ، ويقول عز وجل " والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما جزاءًا بما كسبا نكالاً من الله " [١٤].

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " [١٥] ، وقوله صلى الله عليه وسلم " من قتل دون ماله فهو شهيد " .

ويضيف د. محمد شوقى الفنجرى إلى تلك الأصول :

٥- الحرية الاقتصادية المقيدة :

ذلك بتحريم أوجه النشاط الإقتصادى التى تتضمن استغلالاً أو احتكارًا أو ربا . يقول المولى عز وجل " ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " [١٦] ، ويقول المولى عز وجل " وأحل الله البيع وحرم الربا " [١٧] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " من احتكر حكرة يريد أن يغل بها على المسلمين فهو خاطئ "[١٨] .

٦ - التنمية الاقتصادية الشاملة :

الإنسان خليفة الله فى الأرض ، فيقول تعالى " إنى جاعل فى الأرض خليفة " [١٩] ، وعليه عمارة الأرض : ويقول تعالى " هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها " [٢٠].

والله سبحانه وتعالى سخر له مافى السموات والأرض ليستغلها وينعم بخيراتها ويسبح بحمده ، يقول تعالى "وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا " [٢١] ، ويقول تعالى " فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون "[٢٢].

---

(١٣) سورة النساء آية ٣٢ .
(١٤) سورة المائدة آية ٣٨.
(١٥) أخرجه مسلم .
(١٦) سورة البقرة آية ١٨٨.
(١٧) سورة البقرة آية ٢٧٥.
(١٨) أخرجه مسلم وأبوداود.
(١٩) البقرة ٣٠ .
(٢٠) سورة هود آية ٦١ .
(٢١) سورة الجاثية آية ١٣ .
(٢٢) سورة الجمعة آية١٠ .

والحرص على التنمية الاقتصادية وتعمير الدنيا ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة - أى شتلة - فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك " [٢٣].

٧- ترشيد الإنفاق :

وهو أصل من أصول الاقتصاد الإسلامى ، فالله سبحانة وتعالى حرم التبذير "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين "[٢٤] وأوجب الحجر على السفهاء الذين يسرفون أموالهم على غيرمقتضى العقل ، يقول تعالى "ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما " [٢٥] .

ونهى سبحانه وتعالى عن الترف والبذخ واعتبره جريمة فى حق المجتمع ، يقول تعالى : " وأتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانو مجرمين "[٢٦].

وحض على الاعتدال فى الإنفاق " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ".

هذه هى الأصول التى يقوم عليها الاقتصاد الإسلامى والتى ذكرها د. محمد شوقى الفنجرى وهى أصول ثابتة لاتتغير بتغير الزمن والمكان . ويطلق د. محمد شوقى الفنجرى على هذه الأصول مصطلح (المذهب الاقتصادى الإسلامى) أما الأساليب والخطط العلمية التى ذكرها العلماء والأئمة والتى تحول هذه الأصول إلى حلول واقعية للمسائل الاقتصادية مثل بيان العمليات الربوية والغير ربوية وصور الفائدة المحرمة، وإجراءات تحقيق العدالة الاجتماعية ، وبيّان مقدار حد الكفاية أو الحد الأدنى للأجور ، ونطاق الملكية العامة والملكية الخاصة ، وبيان مدى تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى ، والتخطيط الاقتصادى وغيرها ...

هذه الأساليب والخطط يطلق عليها الأستاذ الدكتور محمد شوقى الفنجرى على المستوى الفكرى اصطلاح (النظرية أو النظريات الاقتصادية الإسلامية) وعلى المستوى العلمى والتطبيقى مصطلح : (النظام أو النظم الاقتصادية الإسلامية) .

---

(٢٣) أخرجه البخارى وأحمد بن حنبل .   (٢٤) الإسراء ٢٧ .
(٢٥) سورة النساء آية ٥ .

والنظريات أو النظم الاقتصادية الإسلامية هذه هى مجال الاجتهاد والبحث حسب كل زمان ومكان وحسب مايستجد والاختلاف فيها هو (خلاف تنوع لا اختلاف تضاد) [٢٧] .

ومن هذا يتضح أن الإقتصاد الإسلامى به أصول ثابتة فى ظلها التنوع والتعدد الذى ذكرناه .

كما يتضح أيضًا معنى التعدد والتنوع فى ظل الوحدة فى المجال الاقتصادى ، أما مانشاهده الآن – فى كثير من المجتمعات الإسلامية من وجود " بنوك إسلامية " و " بنوك تقليدية " – فإنه تعدد مختلف لايجمع بينه الوحدة التى ذكرناها فهو تعدد يمثل ثقافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين .

فالبنوك التقليدية لاتخضع لأصول الاقتصاد الاسلامى وكذلك لاتخضع للنظريات أو النظم الاقتصادية الإسلامية .

وفوائدها من الربا المحرم فقد أجمع علماء المجامع الفقهية الإسلامية العالمية على حرمة الفوائد المصرفية " للبنوك التقليدية " واعتبارها من الربا المحرم ، مثل :

– قرار مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف فى مؤتمره الثانى الذى انعقد فى المحرم من عام ١٣٨٥هـ – مايو ١٩٦٥م وقد حضره علماء يمثلون خمسًا وثلاثين دولة إسلامية .

– وقرار مجمع الفقه الإسلامى التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى فى مؤتمره الثانى بجدة ، الذى انعقد فى ربيع الثانى ١٤٠٦هـ – ديسمبر ١٩٨٥م .

– وقرار المجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامى فى دورته التاسعة الذى انعقد بمكة المكرمة فى رجب ١٤٠٦هـ – مارس ١٩٨٦ . وهذا هو قرار مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف : –

– " الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرم ، لافرق فى ذلك بين مايسمى بالقرض الاستهلاكى ومايسمى بالقرض الإنتاجى ، لأن نصوص الكتاب والسنة فى مجموعها قاطعة فى تحريم النوعين " .

---

(٢٦) سورة هود آية ١١٦ .   (٢٧) مجموعة فتاوى ابن تيمية .

– كثير الربا وقليله حرام ، كما يشير إلى ذلك الفهم الصحيح فى قوله تعالى : "يأيهـا الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافـا مضاعفة "[٢٨] .

– الاقراض بالربا محرم لاتبيحه حاجة ولاضرورة ، والاقتراض بالربا محرم كذلك ، ولايرتفع إثمه إلا إذا دعت إليه الضرورة ، وكل امرئ متروك لدينه فـى تقدير ضرورته .

– الحسابات ذات الأجل، أو فتح الاعتماد بفائدة وسائر أنواع الإقراض نظـير فائدة كلها من المعاملات المحرمة "[٢٩] .

كما أن القوانين التى على أساسها تقوم " البنوك الإسـلامية " مختلفـة عـن القوانين التى تقوم على أساسها " البنـوك التقليديـة " فالقـانون المنشـئ للبنـوك الإسلامية (النظام الأساسى لهـا) يعترف بحقها فى ممارسـة أنشـطة تجاريـة وزراعية وصناعية وعقارية وغيرها أى أن البنك الإسلامى تاجر وزارع وصانع وناقل ومقدم خدمات ، ويدل على ذلك ميزانية البنك الإسلامى .

أما البنوك التقليدية فقانون البنوك والائتمان يجيز لها الاشتراك فى الشـركات والمشروعـات بشرط ألا تتجاوز مشاركتها ، رأسمالها المدفوع واحتياطاتـه ، أى أن المساهمة فى الشركات قاصرة على رأسـمال البنـك (أو مايعادل رأسماله) . ومعنى ذلك أن أموال المودعين محظور استثمارها فى أسهم الشركات ، لأن نسبة رأسمال أى بنك إلى الودائع لاتزيد عن ١٠٪ فى جميع الأحـوال وقد تصل فـى بعض الأحيان إلى ٣٠٪ أما ٩٠٪ التى تمثل أموال المودعين فمحظور اسـتثمارها فى أسهم الشركات [٣٠] .

وهذا يبين أن المعاملات فى البنوك الإسـلامية مثـل عمليـات المضاربـة والمرابحة وغيرها هى عمليات حقيقية بعيدة عن الربا المحرم وهـذا مـا أكـده الفقهاء والعلماء .

---

(٢٨) سورة آل عمران ١٣٠ .
(٢٩) كتاب " البديل الإسلامى للفوائد المصرفية الربوية " د. عاشور عبد الجواد عبد الحميـد ، دار الصحابة للتراث بطنطا .
(٣٠) المصدر السـابق .

الفصـــل الســـادس

عن المجال السياسى

أولاً : عن النظرية السياسية الإسلامية

النظرية السياسية الإسلامية شأنها شأن كل النظم الاجتماعية لها أصول ومتغيرات . أما الأصول فهى ماجاءت قطعية فى آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، والمتغيرات فهى التى تحتاج للرأى والاجتهاد حسب الزمان والمكان .

١ - ومن هذه الأصول : أصل أن الحكم لله وتطبيق أحكام الله على خلق الله ، وأصل الشورى ، وأصل الحرية ، وأصل العدل ، وأصل التقوى والإيمان ، وغيرها ...

وكل أصل من هذه الأصول وردت فيه آيات قرآنية عديدة وأحاديث نبوية شريفة مثل الآيات الكثيرة التى وردت فى مجال حرية الفرد والتى على أساسها يكون الحساب يوم القيامة . وهذه الأصول لها فروع عديدة .

٢ - أما المتغيرات فهى التى تحتاج للرأى والاجتهاد حسب الزمان والمكان . فلأن الإسلام هو الرسالة الخاتمة وهوصالح لكل زمان ومكان ، كانت هذه المتغيرات والاجتهاد فيها واجب يفرضه الدين الإسلامى . والمتغيرات فى المجال السياسى عديدة ومن بينها وسيلة مباشرة الفرد لحريته ، وطريقة تولى الحاكم أو الأمير الحكم ، ومسئولية الفرد عن اختيار الحاكم الصالح لتولى الحكم ، وحريته فى ذلك كما كان فى اجتماع الثقيفة لاختيار سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه خليفة للمسليمن ، والنظر فى الوسائل المعاصرة لمباشرة الحرية والإستفادة منها وغيرها .

وتقوم النظرية السياسية الإسلامية على أساس أن الإسلام دين ودنيا - دين ودولة .

وقد تبلورت النظرية السياسية الإسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين من بعده ، وكل الاجتهادات والبحوث فى النظرية السياسية الإسلامية ترجع إلى تلك الفترة .

وبالمفهوم الحديث فإن فكرة العقد الاجتماعى بين الحاكم والأفراد التى تطورت لتصبح بين السلطة الحاكمة والأفراد المكونين للجماعة السياسية التى نادى بها هوبز ولوك ومونتسكيو ، وجان جاك روسو ، هذه الفكرة هى أساسًا فكرة العقد التى جاءت فى النظرية السياسية الإسلامية . وأبوبكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته يوم البيعة العامة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة يقول : " أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعت لى عليكم ".

كما أن السلطات الثلاثه ظهرت فى الدولة الإسلامية منذ نشأتها . والسلطة التشريعية وهى أهم السلطات نشأت منذ عصر النبوة ، واستمرت فى عصور الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم. وقد قام على هذه السلطة أهل الاجتهاد والإفتاء وهم أهل الحل والعقد ، وهؤلاء ملتزمون بالأحكام التى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة . وبعد عصر التدوين ، تم تدوين اجتهادات المجتهدين وأصولهم ومنهم فقه أئمة المذاهب الأربعة ، والسلطة القضائية وهى من السلطات الأساسية فى النظرية السياسية الإسلامية إذ يقوم عليها نشر العدالة بين الناس وحفظ حقوقهم ، وكانت سلطة القضاء فى عصر النبوة يقوم بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ كان يجمع بين إمامة المسلمين ، وقيادة جيوشهم ، وتولى سلطة القضاء فيهم تطبيقًا لنص الآية الكريمة " فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق " [1] .

وقد فوض الرسول صلى الله عليه وسلم سلطة القضاء لمن يقوم بها ، مثل إرساله معاذ بن جبل قاضيًا إلى اليمن . وكذلك قلد على بن أبى طالب كرم الله وجه قضاء اليمن . وقد بين سيدنا عمر بن الخطاب الشروط التى يجب أن تتوافر فى القاضى .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ .

قال الماوردى : " وقد استوفى عمر بن الخطاب فى عهده إلى أبى موسى الأشعرى شروط القضاء وبين أحكام التقليد فقال فيه : فإن القضاء فريضة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . وآس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف فى عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حرامًا وحرم حلالاً . ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه إلى رشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه . ثم اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور بنظائرها ، وإجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أو بينة ، أمدًا ينتهى إليه فمن أحضر بينة أخذت له بحقه ، وإلا استحللت القضية عليه ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى . والمسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودًا فى حد أو مجربًا عليه شهادة زور ، أو ظنيًا فى ولاء ، فإن الله عفا عن الإيمان ودرأ بالبينات . وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فإن الحق فى مواطن الحق ، يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذكر والسلام " [٢] .

أما السلطة التنفيذية : فتشمل الولاه والأمراء والوزراء وقواد الجند وعمال الخراج وأصحاب الشرطة ورجال الحسبة[٣] .

والفصل بين السلطات ، كان معروفًا منذ عصر النبوة ، فالقضاة كانوا يصدرون أحكامهم بين المتفاوضين حسب أحكام الشريعة الإسلامية كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . وعلى الوالى أو الحاكم تنفيذ هذه الأحكام . كا أن القاضى كان لايخضع للوالى بل إن بعض القضاة كانوا يحكمون على الولاة بعد استدعائهم لمجالس القضاء .

والدولة فى الإسلام لها مهام كثيرة ، ومن مهامها الحفاظ على مقاصد الشريعة وتنفيذ أحكامها ، والحفاظ على هوية المجتمع الثقافية ، وقد رأينا موقف الخليفة

---

(٢) د. فتحية عبد الفتاح النبراوى . رئيسة قسم التاريخ جامعة الأزهر : " نظام الدولة الإسلامية فى المشرق " ، كتاب " دراسات فى الحضارة الإسلامية " ، المجلد الثانى .

عبد الملك بن مروان من الطرز المدونة على الستر والملابس والقراطيس التى أشرنا إليها سابقـًا ، مثله فى ذلك مثلما فعلت الدولة الفرنسية وغيرها فى العصر الحديث من بعض الفتيات المسلمات المحجبات فى مدارسها وذلك للحفاظ على هويتها الثقافية .

والإسلام بمعطياته ومفاهيمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية والأخلاقية وغيرها مثل النواحى السلوكية الفردية والعادات والتقاليد ، هو المظلة الحاكمة للمجتمعات ، والفرد والدولة .

فالقوانين وهى مجموعة القواعد التى تنظم العلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض ، وتحمى حقوقهم المادية والأدبية ، وتحاسبهم على مايأتون من أعمال لابد أن تكون مستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية ، سواء كانت قوانين قطعية أو قوانين تخضع للرأى والاجتهاد .

والدستور وهو مجموعة القواعد التى تنظم الدولة وتبين السلطات التى تقوم عليها ، وحدود هذه السلطات ، وعلاقة هذه السلطات بعضها ببعض ، وواجبات الحاكمين وصلتهم بالمحكومين ، لابد أن لايكون فيه ما يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية .

والدولة ، بهيئاتها ، ونظمها وقوانينها لابد أن تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية . والمشروعية الإسلامية تقوم على أساس أن الدولة شخص من أشخاص القانون الإسلامى ، مثلها فى ذلك مثل المشروعية فى القوانين الوضعية الغربية الحديثة التى تجعل الدولة شخص من أشخاص القانون .

كما أن الإسلام سابق للنظريات الغربية الحديثة ، فى تبين حريات الفرد الشخصية والسياسية ، وحقوق الإنسان بشتى أنواعها .

وحريات الأفراد وحقوقهم من المعطيات الأساسية للإسلام ، فحرية الفرد الشخصية ، وحريته فى اختيار السلطة التى تحكمه هى من المفاهيم الإسلامية التى دلت عليها الآيات العديدة فى القرآن الكريم وبيعة السقيفة لاختيار سيدنا أبى بكر الصديق خليفة للمسلمين كما سنوضح فيما بعد . والحاكم أو الوالى وكيفية

اختيـــاره لتولى مسئولية الحكم ، وهل هـــو بالاختيـــار ، أو الوراثـــة أو التعيـــن أوغيرها ، تركها الإســـلام لاجتهاد المسلمين فى كل عصر ، ولم يرد فيها نـــــص قرآنى أو حديث نبوى شـــريف .

وقد جاء إختيار سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فى بيعة السقيفة ، نموذجـــــًا لحرية الفرد فى اختيار السلطة التى تحكمه ، فقد كانت هناك مناقشة بين مجموعتين أو حزبين من المسلمين يمثلهما مرشحان للخلافة هما أبـــو بكـــر الصديـــق مـــن المهاجرين ، وسعد بن عبادة من الأنصار ، وتم اختيار أبى بكر الصديق رضـــــى الله عنه خليفة المسلمين .

كما أن آليات ووسائل تحقيق الديمقراطية المتبعة فى العصر الحديـــــث مثـــل الأحزاب ومجلس الشورى وانتخاب أعضاء مجلس الشورى أو البرلمان ووســــائل إختيار السلطة الحاكمة وغيرهـــا ، فكلها آليات مستمدة من الفكر الإســـلامى كمـــا تمثل فى بيعة السقيفة لاختيار سيدنا أبى بكر الصديق رضـــى اللـــه عنـــه خليفـــة للمسلمين ....

أما القوانين التى يقوم ممثلو مجلس الشورى أو البرلمان أو أى ممثلين للشعب لوضعها أو سنها فلابد أن تتقيد بأحكام الشريعة الإسلامية .

فـــإن كانت أحكام قطعية مثل أحكام العقـــوبات وغيرهـــا من الأحكـــام فـــلا تغير فيها ، ويجب أن تطبق كما وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، أما إذا كانت أحكامًا تحتاج للاجتهاد والرأى فيجـــــب أن تقيـــد بمفـــاهيم الإســـلام ومعطياته ولنا فى تراثنا الفقهى خير معين على ذلك .

ثانيا : التعدد والتنوع فى ظل الوحدة فى المجال السياسى الإسلامى :

تعدد وتنوع النظم السياسية ، حسب العصور المختلفة ، هو ثمرة من ثمرات الفكر الإسلامى .

ومع قلة البحوث فى المجال السياسى الإسلامى إلا أن النظرة المتعمقة لمعطيات الإسلام ومفاهيمه تبين لنا أن النظم السياسية، ونظم الدولة ومؤسساتها ، ونظم اختيار الخليفة أو الحاكم خاضعة للتغير حسب التطور وحسب المستحدثات والاجتهادات فى كل عصر . ولذلك جاء اختيار الخلفاء والحكام بطرق مختلفة ومتعددة فى كل عصر من عصور الإسلام .

فكان اختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، خليفة للمسلمين بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، يعد معركة انتخابية بمفهومنا العصرى للمعارك الانتخابية ، حيث كان ينافسه مرشح الأنصار سعد بن عبادة ، وفاز أبو بكر الصديق بالانتحاب الحر وبويع البيعة الخاصة فى سقيفة بنى ساعدة ، والبيعة العامة فى اليوم التالى فى المسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة . وكذلك جاء اختيار سيدنا عمر ، وعثمان وعلى بالاختيار الحر . وبعد الخلفاء الراشدين ، كانت الخلافة بالوراثة ، وأحيانًا لمن تكون له الغلبة ، وفى العصر الحديث بالانتخاب .

وتعدد وتنوع النظم السياسية ، ونظم الدولة، ونظم اختيار الحاكم أو الخليفة ، فى عصور الإسلام المختلفة ، كان يتم ويدور تحت مظلة الشرعية الإسلامية ، وبأحكامها وقوانينها ومعطياتها ومفاهيمها الثقافية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية وغيرها ..

فالشريعة الإسلامية وأحكامها فى شتى المجالات ، هى المظلة التى يدور تحت سقفها التعدد والتنوع فى النظم السياسية ، ونظم الدولة ، ونظم اختيار الخليفة أو الحاكم فى عصور الإسلام المختلفة .

تلك المظلة التى يدور تحت سقفها التعدد والتنوع السياسى من مجالس للشورى ، إلى اختيار للخليفة أو الحاكم ، هى مظلة الشريعة الإسلامية بأحكامها ،

ومقاصدها ، ومعطياتها ، ومفاهيمها الثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية وغيرها ...

وكل حضارة من الحضارات التى عرفها التاريخ البشرى كان لها هذه المظلة بشكل أو بآخر حسب مفاهيمها ومعطياتها .

والحضارة الغربية المعاصرة لها هذه المظلة التى يدور تحت سقفها التعدد السياسى ، ونظم الدولة ، واختيار الحكام ، وهى تمثل المفاهيم الغربية التى نشأت خلال العصر الحديث منذ القرن السابع عشر الميلادى مع نشأة الليبرالية الحديثة. والمظلة التى تحت سقفها تتنوع وتتعدد النظم السياسية من أحزاب وبرلمانات وغيرها فى الحضارة الغربية المعاصرة لها سمات وأعراف ومفاهيم منبثقة ومشتقة من المفاهيم العلمانية التى جاءت مع نشأة الليبرالية الحديثة فى الغرب منذ القرن السابع عشر الميلادى .

والمظلة التى يدور تحت سقفها التنوع والتعدد السياسى فى الحضارة الغربية تختلف عن المظلة التى تحت سقفها يدور التنوع والتعدد السياسى فى الحضارة الإسلامية ، فاختلاف الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية ليس فى التنوع والتعدد السياسى ، ولكن الاختلاف هو فى هذه المظلة التى تحت سقفها يدور التنوع والتعدد السياسى ، وإليها يرجع الاختلاف فى أصول النظام السياسى فى الحضارتين . فالأحزاب ومجالس الشورى أو البرلمانات، ونظم اختيار الحاكم والحريات الفردية أو الشخصية ، وحرية الناس فى اختيار من يحكموهم حتى يضمنوا حريتهم الشخصية أو الفردية ، وغيرها كلها نظم تتفق فى الحضارة الإسلامية مع الحضارة الغربية .

ولكن الاختلاف بين الحضارتين الإسلامية والغربية هو فى هذه المظلة التى تحت سقفها يدور التعدد السياسى والتى يرجع إلها الأصول التى يقوم عليها النظام السياسى فى كل من الحضارتين التى هى بطبيعتها مختلفة . وهذه المظلة يطلق عليها بعض المفكرين الإسلامين المرجعية(٤).

---

(٤) د. محمد عمارة : فى كتبه و آرائه .

والمظلة أو المرجعية لها انعكاساتها على التنوع والتعدد الذى يحـــدث تحــت سقفها ، فالتنوع والتعدد السياسى فى الحضارة الإسلامية يـــدور حســب مفــاهيم ومعطيات المرجعية أو المظلة الإسلامية . والتنوع والتعدد السياسى فى الحضـــارة الغربية يدور تحت المظلة أو المرجعية العلمانية ومفاهيمها ومعطياتها .

وتعتبر مظلة الشريعة الإسلامية ومعطياتها ومفاهيمهـــا السياســية والثقافيــة والاجتماعية والاقتصادية وغيرها هى الوحدة التى تحت ســـقفها تتعــدد وتتنــوع الأحزاب السياسية برؤاها وأفكارها ، وانتخابـــات أعضـــاء مجلــس الشــورى أو البرلمان ، وتداول السلطة واختيار الحاكم وغيرهـــا .

كما أن مجلس الشورى والبرلمان يجب أن يتقيد بأحكام الشـــريعة الإســـلامية فيما يصدره من قوانين ، وكذلك وضع الدستور خاضع لأحكام الشريعة الإسلامية .

المرجعـــية الإســـلامية والمرجعية العلمانية :

كما أسلفنا أن التعدد والتنوع فى المجال السياسى يدور فى ظـــل مرجعيـــة ، والمرجعية هى المظلة التى تحت سقفها يدور التعدد السياسى من تعـــدد الأحــزاب وتعدد الاتجاهات السياسية ونظام حر للانتخابات لأعضاء مجلس الشورى ونظـــام اختيار السلطة الحاكمة وغيرها .

والمرجعية الإسلامية تختلف عن المرجعية العلمانية اختلافًـــا جذريًـــا .

فالدين الإسلامى من عقـــائد وشرائع وأخــــلاق وجميـــع معطياتـــه الثقافيـــة والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها هو مرجعيتنا .

أما المرجعية فى الحضارة الغربية المعاصرة فهـــى المرجعيـــة العلمانيـــة . وسوف نتكلم عن كيفية قـــيام هذه المرجعية العلمانية فيما بعد إن شـــاء الله .

والمرجعية العلمانية فى الحضار الغربية المعاصرة هى المظلة التـــى يـــدور تحت سقفها التعدد فى النظام السياسى الليبرالى الحديث الذى نشأ منذ القرن السابع الميلادى . وتعدد الأحـــزاب واختيار أعضاء البرلمان ، ونظام إختيـــار الســـلطة الحاكمة وغيرهـــا يجـــرى ويتم تحت مظلة المرجعية العلمانيـــة فـــى الحضـــارة الغربية المعاصرة .

. والمرجعية العلمانية لاتعترف " بالميتافيزيقا " ولاتعترف بالديانات السماوية ، والأفراد أحرار فيما يعتقدون ولاتفرض معطيات المسيحية على الشعب والمجتمع ككل ولا على الحكومات ومؤسساتها ونظمها فى المجتمعات الغربية، ذلك لأن العلمانية وهى تنسب إلى العالم وليس إلى العلم لاتعترف إلا بما هو موجود فى العالم المادى فقط ، أما الغيبيات والأديان فلا تعترف بهما . وهذا المفهوم الذى يشكل المرجعية فى الحضارة الأوربية والأمريكية لم يتكون إلا منذ القرن السابع عشر الميلادى مع نشأة الفكر الليبرالى الحديث .

والتعدد السياسى والأحزاب والبرلمانات وغيرها من وسائل الديمقراطية الحديثة القائمة فى أوربا وأمريكا الآن تخضع للمرجعية العلمانية .

وهذا الموقف العلمانى من المسيحية فى أوربا وأمريكا يرجع إلى الظروف اللاهوتية الكنسية وسلطات الكنيسة الدينية والسياسية والاقتصادية التى كانت سائدة قبل الثورة الفرنسية كما سنذكر فيما بعد .

لماذا كانت النظم السياسية ، ونظم الدولة ومؤسساتها ، ونظام اختيار الخليفة أوالحاكم مختلفة حسب كل عصر فى الحضارة الإسلامية ؟

عندما نعود لمرجعيتنا فى حضارتنا الإسلامية ، نجد أن القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة ، قد بين أحكامًا قطعية يجب الأخذ بها كما هى ، وأحكامًا تحتاج للاجتهاد والرأى ، فأحكام الشريعة الإسلامية التى فيها نصوص قطعية مثل :

أحكام العقوبات (حد السرقة – القذف – الزنا – الحرابة) التى وردت فى آيات القرآن الكريم ، وحد الردة الذى ورد فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعقوبة شرب الخمر وأحكام الأحوال الشخصية (الزواج – الطلاق – الميراث – الوصية) ، والأحكام العامة فى المعاملات المدنية وحكم إثبات الديون وبقية الأحكام القطعية ، هذه الأحكام القطعية عددها قليل .

أما الأحكام التى تحتاج للإجتهاد والرأى فتشمل شتى المجالات . ومن الأمور التى تحتاج للاجتهاد والرأى ، حسب التطور والتقدم فى كل عصر ، النظم السياسية، ونظم الدولة ومؤساستها ، ونظم اختيار الحاكم فلم ترد فيها أحكام قطعية من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وتركت لاجتهاد المسلمين ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول " أنتم أعلم بشئون دنياكم " عندما سئل عن تأبير النخل ولأنها خاضعة للتغييرحسب كل عصر فقد تركتها الشريعة الإسلامية لاجتهادات المسلمين .

وكان أول مثل لنظم اختيار الحاكم فى تاريخ الإسلام هو اختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه خليفة للمسلمين ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو اختيار يعطينا المثل والقدوة . فاختيار أبى بكر الصديق ، خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكم الدولة الإسلامية يعطينا الصورة التى كان يراها ، صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقة اختيار الحاكم ، تبعًا لمعطيات الإسلام ومفاهيمه فى الحرية والشورى فكيف تم هذا الاختيار ؟ هذا ما سوف نناقشة ونبين حقيقته فيما يلى .

اختيار أبى بكر الصديق خليفة للمسلمين :

كان اختيار أبى بكر الصديق خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكم المسلمين ، معركة انتخابية حرة بمفهومنا العصرى لمعنى المعارك الانتخابية الحرة . فقد كان هناك مجموعتان أو فريقان أو حزبان ، مجموعة أو فريق أو حزب الأنصار ، ومجموعة أو فريق أو حزب المهاجرين . كان كلا الفريقين المهاجرين والأنصار يريد أن يحظى بشرف الخلافة . فرشح الأنصار سعد بن عبادة وهو من الخزرج، واختار المهاجرون أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وقد فاز فى النهاية أبو بكر الصديق كخليفة للمسلمين ، وبويع البيعة الخاصة فى سقيفة بنى ساعدة . وفى اليوم التالى بويع البيعة العامة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة وهذه هى تفاصيل هذه المعركة الانتخابية كما وردت فى كتب التاريخ : -

بعد وفاة النبى النبى صلى الله عليه وسلم ، أعلن أبو بكر الصديق الوفاة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : -

" أيها الناس ... إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لايموت ، ثم تلا قوله تعالى : " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين"(٥).

بعد ذلك اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وأخذوا يتشاورون فى اختيار واحد منهم للخلافة . فاستقر رأى أغلبية الأنصار من أوس وخزرج على اختيار سعد بن عبادة ، كمرشح للخلافة ، وهو من الخزرج ، ثم أخذوا يتشاورون ويتناقشون فى كيفية مواجهة المهاجرين ، وكأنهم حزب اجتمع قبل الانتخابات لينسق مواقفه ، ويجهز نفسه .

ثم حملوا سعد بن عبادة من داره وأحضروه إلى السقيفة حيث كان مريضًا . وخطب سعد بن عبادة فى الأنصار ، قبل أن يحضر المهاجرين ، وكان صوته

---

(٥) تاريخ الطبرى .

ضعيفًا لمرضه ، فكان ابنه ، أو أحد بنى عمه ، يقوم بترديد كلامه ليسمع الأنصار المجتمعين ، مما يدل على كثرة عددهم فى هذا الإجتماع .[٦]

قال سعد بن عبادة ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : –

" يامعشر الأنصار لكم سابقة فى الدين ، وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . وإن محمدًا – عليه السلام – لبث بضع عشرة سنة فى قومه ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ، ولا أن يغزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيمًا عموا به، حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه . فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرًا ، حتى أثخن الله – عز وجل – لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قرير عين . استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس " [٧] .

فأجابه الأنصار بالموافقة على رأيه وترشيحه للخلافة .

" فأجابوه بأجمعهم : أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ، ولن نعدوا ما رأيت ، ونوليك هذا الأمر ، فإنك فينا مقنع ، ولصالح المؤمنين رضا . ثم إنهم ترادوا الكلام بينهم . فقالوا فإن أبت مهاجرة قريش ، فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ؟ . فقالت طائفة منهم : فإنا نقول إذن منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدًا . فقال سعد بن عبادة بعد أن سمعها : هذا أول الوهن "[٨].

هذا موقف الأنصار والمناقشات التى دارت فيه ، فى سقيفة بنى ساعدة ، قبل أن يحضر المهاجرون أو ممثلوهم ، وفيه رشحوا سعد بن عبادة ، وتناقشوا فى

---

(٦) د. محمد الجوهرى حمد الجوهرى : " النظام السياسى الإسلامى والفكر الليبرالى ".
(٧) تاريخ الطبرى .
(٨) المصدر السابق .

الرد على المهاجرين عندما يحضرون ، ويطالبون بأن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم فعندئذ يكون " من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير".

وحين سمع عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – باجتماع الأنصار ذهب إلى أبى بكر فى دار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره باجتماع الأنصار "يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير" (٩) .

ذهب وفد الصحابة الأجلاء ، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح ممثلين للمهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب قد جهز كلامًا يريد أن يلقيه فى المجتمعين ، فقال له سيدنا أبو بكر (رويدًا حتى أتكلم ثم انطق بما أحببت) .

وتكلم أبو بكر الصديق وقال عمر بعد ذلك عن كلامه (فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه) ، قال سيدنا أبو بكر فى اجتماع السقيفة بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (إن الله بعث محمدًا رسوله إلى خلقه وشهيدًا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة وإنما هى من حجر منحوت وخشب منجور ، ثم قرأ : " ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله "(١٠).

وقالوا " مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى "(١١) .

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف ، زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم. وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم

---

(٩) المصدر السابق .
(١٠) سورة يونس آية ١٨ .
(١١) سورة الزمر آية ٣ .

ذلك إلا ظالم ، وأنتم يامعشر الأنصار من لاينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ولاتفتاتون بمشورة ولاتقض دونكم الأمور) [١٢].

وفى هذه الخطبة بيَّن أبو بكر الصديق فضل المهاجرين الأولين وفضل الأنصار على نصرة الإسلام ، وحمل رسالته والجهاد فى سبيل الله لتمكين دين الله فى الأرض . كما بين فضل المهاجرين الأولين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلهم الفضل الأول على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرة الإسلام ، ثم يأتى الأنصار فى مرتبة تالية لهم ثم باقى المهاجرين والمسلمين . وبعد ذلك بين أبو بكر أن الخليفة أو الأمير يجب أن يكون من المهاجرين الأولين والوزراء وأهل المشورة من الأنصار وأن الحكم مشاركة وشورى بينهم .

وقام الحباب بن المنذر بن الجموح أحد الأنصار ، وهو أحد الذين شهدوا بدرًا وهو الذى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر بأهمية اتخاذ موقع استراتيجى بالنسبة لمصدر المياه . فيوم بدر قال الحباب : (يارسول الله أرأيت هذا المنزل . أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال يارسول الله : فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ماوراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون . فقال رسول الله : لقد أشرت بالرأى)[١٣]. قام الحباب بن المنذر بن الجموح فى اجتماع السقيفة وقال :

(يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، وأنتم أهل العزة والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، ذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، ولاتختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم . فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير).[١٤]

---

(١٢) تاريخ الطبرى .

(١٣) ص٦٢٠ سيرة ابن هشام .

(١٤) تاريخ الطبرى .

فقال سيدنا عمر بن الخطاب : -

(هيهات ، لايجتمع إثنان فى قرن ! والله لاترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم . ولكن العرب لاتمنع إن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم. ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإماراته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ومتورط فى هلكة !) . وهو فى خطبته هذه يرفض الدعوة إلى تولية أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ويبين أن العرب لن يقبلوا تولية خليفة للمسلمين من الأنصار ، والعرب هنا يقصد بها سيدنا عمر أنهم أغلبية سكان الجزيرة العربية . فقام الحباب بن الجموح ثانيًا وقال :

(يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ماسألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور وأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جذيلها المحنك وعذيقها المرجب. أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة)[١٥] .

وهو هنا قد اشتد فى حواره وانفعل . فرد عليه سيدنا عمر : (إذًا يقتلك الله) . فأجابه الحباب بن المنذر : (بل إياك يقتل).[١٦]

فقام أبو عبيدة بن الجراح فقال :

(يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير) .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير وهو من الأنصار (من الأوس) فقال :

(يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضًا ، فإن الله ولى

---

(١٥) المصدر السابق .
(١٦) المصدر السابق .

المنة علينا بذلك ، ألا إن محمدًا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا . فاتقوا الله ولاتخالفوهم ولاتنازعوهم)[١٧].

وبشير بن سعد مع أنه من الأنصار فكان يرى أن خليفة رسول الله يجب أن يكون من المهاجرين . (فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا . فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك . فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك . أبسط يدك نبايعك) فبايعه بشير بن سعد وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح .

ثم تبعهم الأوس بقيادة أسيد بن حضير فبايع أبا بكر وكثير من الخزرج . وبذلك حصل أبو بكرالصديق - رضى الله عنه - على الأغلبية فلم يصبح مع سعد بن عبادة إلا بعض الخزرج فقط . ويقول الطبرى :

(أن أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضاقت بهم السكك ، فبايعوا أبا بكر فكان عمر يقول : ماهو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر) . وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب فكادوا يطأون سعد بن عبادة ، فلما رأى ذلك أمر أن يحملوه إلى داره ولم يبايع أبا بكر ... تلك كانت البيعة الأولى أو البيعة الخاصة لسيدنا أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة، وفى اليوم التالى اجتمع المسلمون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبايعوا أبا بكر الصديق البيعة العامة :

(لما بويع أبو بكر الصديق فى السقيفة وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيى وماوجدتها فى كتاب الله ، ولا كانت عهدًا عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ، وإن الله قد أبقى كتابه الذى هدى به رسول الله فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثانى اثنين إذا هما فى الغار فقوموا فبايعوا . فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة).[١٨]

(١٧) المصدر السابق .

(١٨) تاريخ الطبرى .

ويقصد سيدنا عمر بالمقالة التى قالها بالأمس : (قوله للناس بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إن النبى لم يمت ، وتوعده الناس بالقتل فى ذلك) ، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله وهو على المنبر ثم قال : (أما بعد أيها الناس .. فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى منكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لايدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولاتشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ماأطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) .[١٩]

وتولى أبو بكر الصديق خلافة المسلمين بعد هذه المعركة الانتخابية الحرة بما دار فيها من شدة فى الكلام أحيانًا ، ومنطق واقتناع أحيانًا أخرى ، بدون حجر على رأى أو قهر لفكر ، فقد ظل سعد بن عبادة وأولاده وبعض عشيرته على موقفهم ولم يبايعوا أبا بكر الصديق حتى وفاة أبى بكر الصديق ، ولم يتعرض أحد لهم بأذى .

وحق الإختلاف فى الرأى وتنوع الآراء وتعدد المواقف مكفول فى الإسلام ، فعلى بن أبى طالب وطلحة ، والزبير ، وبنو هاشم لم يبايعوا أبا بكر إلا بعد ستة أشهر (فى أغلب الأقوال) وكذ أبو سفيان بن حرب لم يبايع إلا متأخرًا .

كما يتضح من هذه المعركة الانتخابية أن طريقة اختيار الحاكم أو الوالى لم ينزل بها نص من القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة والحاكم أو الوالى يكون بالانتخاب ، ولايكون بالتعيين أو الوراثة أو الاستيلاء على الحكم بالقوة ، وهذه المعركة الانتخابية لم يرق فيها نقطة دم واحده .

كما تبين هذه المعركة الانتخابية الحرة كذلك ، أنه تحت مظلة الشريعة ، يكون اختيار الخليفة أو الحاكم بأغلبية الأصوات ، فالذى رجح كفة سيدنا أبى بكر الصديق هو انضمام الأوس وكثير من الخزرج إلى المهاجرين فى تأييد سيدنا أبى بكر الصديق .

---

(١٩) المصدر السابق .

كما تبين هذه المعركة أن الحرية هى جوهر العملية الانتخابية وأن الحاكم نائب عن الأمة ، ومقيد بأحكام الشريعة الإسلامية ومراقبة الأمة أو ممثليها للحاكم واجب ، فكما يقول أبو بكر الصديق بعد انتخابه : " أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم"[٢٠] .

كما يتضح كذلك من اختيار أبى بكر الصديق خليفة للمسلمين بالانتخاب الحر ، والآراء التى أبداها بعض المسلمين فى اجتماع سقيفة بنى ساعدة ، وتأييد الأغلبية لاختيار أبى بكر الصديق يتضح من ذلك – أن الإنسان المسلم له الحرية فى اختيار الخليفة أو الحاكم أو السلطة التى تحكمه .

(٢٠) المصدر السابق .

ثالثا : عن الحرية فى الإسلام

كما تبين لنا فى اختيار سيدنا أبى بكر الصديق خليفة للمسلمين وبيعته البيعة الخاصة والبيعة العامة ، أن الإنسان المسلم له حق الاختيار فى السلطة التى تحكمه . فحرية الإنسان فى اختيار الحاكم أو السلطة التى تحكمه (الحرية السياسية) من أسس نظام الشورى الإسلامى . وهذا النوع من الحرية " حرية الإنسان المسلم فى اختيار السلطة التى تحكمه " لم ترد فيه نص من القرآن أو السنة النبوية الصحيحة ولكنه ترك لاجتهاد المسلمين كما أسلفنا سابقًا .

ولكن هناك نوع آخر من الحرية التى يتمتع بها الفرد المسلم وردت فى آيات عديدة من القرآن الكريم ، ويطلق عليها الحرية الفردية أو الشخصية ويطلقون عليها الحرية المدنية :

يقول المولى عز وجل فى كتابه الكريم : " من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها "[٢١] .

" فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب "[٢٢] .

" إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين"[٢٣] .

" وهديناه النجدين " [٢٤] .

وغيرها من الآيات العديدة فى القرآن الكريم : -

" لست عليهم بمسيطر " [٢٥] .

" وما أنت عليهم بجبار "[٢٦] .

" وماأنت عليهم بوكيل "[٢٧] .

" فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر "[٢٨] .

---

(٢١) فصلت آية ٤٦.
(٢٢) الرعد آية ٤٠.
(٢٣)الشعراء آية ٤.
(٢٤) البلد آية ١٠.
(٢٥) الغاشية آية ٢٢.
(٢٦) سورة ق آية ٤٥ .
(٢٧) سورة الزمر آية ١٠٧.
(٢٨) سورة الكهف آية ٢٩ .

" أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين "[٢٩].

ويقول عز وجل فى سورة البقرة :

"وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"[٣٠] .

صدق الله العظيم

وغيرها من الآيات القرآنية التى تبين هذا النوع من الحرية التى أفاءها الله سبحانه وتعالى على عباده ، فهى منحة إلهية للإنسان وفطرة فطره الله عليها .
وهذا النوع من الحرية " الحرية الشخصية أو الفردية " لما له من أهمية فقد نصت كثير من الآيات القرآنية عليه . فكأن هناك نوعان من الحرية فى نظام الشورى الإسلامى : -

النوع الأول هو حق الإنسان فى التمتع بحريته الشخصية وهو حق طبيعى يعتبر " هبة إلهية " أو " منحة إلهية " ، فالإنسان حر وعلى أساس هذه الحرية سوف يحاسب يوم القيامة .

النوع الآخر من الحرية هو حق الإنسان فى اختيار السلطة التى تحكمه .

وهذان النوعان من الحرية " حق الإنسان فى التمتع بحريته الشخصية أو الفردية وحقه فى اختيار السلطة التى تحكمه " هما أساس " النظام الحر " أو " النظام الفردى " الذى تمثله الليبرالية الحديثة التى نشأت فى أوربا منذ القرن السابع عشر الميلادى . وهذان النوعان من حقوق الإنسان فى الحرية أخذهما الفكر الليبرالى الحديث من الإسلام وهما نتيجة لتأثير الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية وأطلق عليهما الحرية الفردية والحرية السياسية .

---

(٢٩) سورة يونس آية ٩٩ . (٣٠) البقرة آيات ٣٤ -٣٨ .

ولكن نظرًا للظروف التى مرت بها أوروبا بالنسبة للكنسية والكهنوتية المسيحية منذ انتهاء الحروب الصليبية وحتى نشأة الليبرالية الحديثة فى القرن السابع عشر الميلادى ، حيث سادت أوروبا مرحلة نقد للكنيسة ورجالها وإظهار المأخذ عليها وعلى سلطتها . واستمرت هذه المرحلة طوال القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ، تبعتها مرحلة الإصلاح الدينى بقيادة مارتن لوثر ونشأة البروتستانتية الدينية والحروب الدينية التى عمت كل أوروبا ثم مرحلة الشك والإلحاد التى قادها الفلاسفة فى فرنسا فى القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادى .

نتيجة لذلك جاء الفكر الليبرالى الحديث بمفاهيمه " العلمانية " و " فصل الدين عن الدولة " ، و " فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية " ، نظرًا لهذه الظروف جاء الفكر الليبرالى الحديث يرفض تطبيق القوانين اللاهوتية الكنيسية ، والمعطيات المسيحية على المجتمع والشعب ككل وعلى الدولة بمؤسساتها ونظمها وقوانينها . أما القوانين اللاهوتية الكنيسية والمعطيات المسيحية فقد جعلها الفكر الليبرالى الحديث شأنًا من شئون الفرد وهو حر فى الإيمان بها أو رفضها كما شاء ، ولكن لا تطبق على الشعب والمجتمع ككل . (٣١)

وكذلك لا تطبق على الدولة ومؤسساتها ونظمها وقوانينها .

أما فى نظام الشورى الإسلامى ، فهذان النوعان من الحرية " حرية الفرد الشخصية وحريته فى اختيار السلطة التى تحكمه " مرتبطان بالتعاليم الإسلامية ، ومرتبطان بالأحكام التى جاءت بها الشريعة الإسلامية والتى تطبق على المجتمع والشعب ككل ، وتطبق على الدولة ومؤسساتها ونظمها وقوانينها (٣٢).

ومن الملاحظ أن الفكر الليبرالى الحديث يجعل من الحرية الفردية "الشخصية" الأساس والهدف ، أما الحرية السياسية فيجعلها وسيلة لتحقيق الحرية الفردية . فكأن الفرد يختار السلطة التى تحكمه حتى يضمن حريته الفردية . وهذا هو نفس المفهوم فى نظام الشورى الإسلامى لنفس هذين النوعين من الحرية ، فالحرية

---

(٣١) د. محمد الجوهرى حمد الجوهرى : كتاب " النظام السياسى الإسلامى والفكرالليبرالى " ، دار الفكر العربى ١٩٩٣.

(٣٢) المصدر السابق .

الفردية أو الشخصية وردت فيها آيات قرآنية كثيرة كما ذكرنا سابقًا لأهميتها أما حرية الإنسان فى اختيار السلطة التى تحكمه " الحرية السياسية " فلم يرد فيها أى نص من القرآن الكريم أو الحديث النبوى الصحيح وتركت لاختيار المسلمين واجتهاداتهم فهى قابلة للتغيير والتبديل حسب اختلاف الأمكنة والأزمنة .

أما الحاكم أو الوالى المرشح لتولى الحكم فهناك شروط لمن يتقدم لهذا المنصب أوردها الفقهاء والعلماء ، والالتزام بها ضرورى .

ويتضح لنا مما سبق أن : -

١ - الإسلام يتيح للفرد الحرية الشخصية أو المدنية والحرية السياسية وجميع أنواع الحريات الأخرى ، وكذلك يتيح للفرد التمتع بحقوق الإنسان بشتى أنواعها .

٢ - المظلة أو المرجعية التى تحت سقفها يباشر الإنسان حرياته وحقوقه هى المظلة أو المرجعية الإسلامية بمعطياتها القانونية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من أحكام الشريعة الإسلامية فى شتى المجالات .

٣ - الحضارة الإسلامية تختلف عن الحضارة الغربية المعاصرة فى المرجعية أو المظلة التى تحت سقفها يباشر الإنسان حرياته وحقوقه ، فالمرجعية فى الحضارة الإسلامية هى الإسلام بمعطياته ومفاهيمه وبما جاءت به الشريعة الإسلامية من أحكام شملت شتى المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها . أما المرجعية فى الحضارة الغربية المعاصرة فهى العلمانية بمفاهيمها ومعطياتها .

٤ - المرجعية الإسلامية تنطلق من أحكام الشريعة الإسلامية التى تطبق على الشعب والمجتمع ككل ، وعلى الدولة بمؤسساتها ونظمها وقوانينها. أما المرجعية العلمانية فهى تنطلق من مفاهيم مادية بعد أن هدمت الأفكار اللاهوتية الكنيسية فى أوروبا ، ولذلك لا تطبق المعطيات والأحكام المسيحية على الشعب والمجتمع الأوروبى ككل ، ولا على الدولة بمؤسساتها ونظمها وقوانينها .

٥ - الفكر الليبرالى الحديث فى شقه السياسى الذى نشأ فى أوروبا منذ القرن السابع عشر الميلادى والذى تجسد فى هذين النوعين من الحرية اللذين

ذكرناهما سابقا ، والذى يطلق عليه الآن الديمقراطية ، يختلف عن الديمقراطية اليونانية القديمة .

٦ – الحرية الفردية أو الشخصية والحرية السياسية وجميع أنواع الحريات ، وجميع حقوق الإنسان استلهمها الفكر الليبرالى الحديث من الإسلام ، والإسلام كان له السبق فى هذا المجال .

٧ – المظلة أو المرجعية سواء كانت مرجعية إسلامية ، أو مرجعية علمانية لها انعكاساتها على ما يدور تحت سقفها وخاصة فيما يشرع من قوانين أو دساتير .

٨ – الآليات والوسائل التى بواسطتها يستطيع الفرد مباشرة حرياته السياسية ، مثل الأحزاب أو مجلس الشورى أو البرلمان ، ونظام اختيار الحاكم وغيرها ، عرفها المسلمون فى بيعة السقيفة ، حيث كان هناك فريقان أو حزبان هما المهاجرين والأنصار يتنافسان للفوز بشرف إختيار الخليفة من أحدهما ، وكان هناك مرشحان للخلافة هما سعد بن عبادة وأبو بكر الصديق ، حيث اجتمع المسلمون فى مكان واحد هو سقيفة بنى ساعدة .

غير أن تطور الآليات يرجع الفضل فيه لإنجلترا . فقد عرفت إنجلترا البرلمان فى صورته البدائية لأول مرة سنة ١٢٩٥م (كان آخر خروج للصليبيين من الديار الإسلامية سنة ١٢٩١م) فى عهد الملك إدوارد الأول ، وعرف بهذا الاسم فى عهد الملك إدوارد الثالث ملك إنجلترا (١٣٣٠م–١٣٧٧م) [٣٣] .

وقد تطور البرلمان فى إنجلترا بعد ذلك ففى سنة ١٣٢٢ ميلادية فى عهد الملك إدوارد الثالث تقررت سابقة خطيرة كان لها أثر فى تطور البرلمان وهى أنه يجب موافقة البرلمان على أى قانون تسنة الحكومة الإنجليزية .

وفى مارس سنة ١٧٨٢ ميلادية بعد هزيمة إنجلترا وجلائها عن أمريكا التى كانت تحتلها ، وقيام الأسبان فى هذه السنة بالإستيلاء على بعض المستعمرات البريطانية ، وكذلك قيام الفرنسيين بالاستيلاء على عدد من جزر الهند الغربية ، فى ظل هذه الهزائم المتكررة التى أصيبت بها إنجلترا ، ارتفعت الأصوات الغاضبة فى أنحاء إنجلترا تندد بالحكومة الإنجليزية وفشلها ؛ عندئذ اجتمع البرلمان

---

(٣٣) المصدر السابق .

وقرر أغلبية المجتمعين ، بأنهم لم يعودوا يثقون فى الوزارة الحالية ، وتقررت بهذا سابقة تاريخية لطريقة حجب الثقة عن الحكومة وتغييرها .[٣٤]

وفى نوفمبر سنة ١٧٨٣ ميلادية قدم وزير الدولة البريطانى مشروع قانون لإصلاح الهند (وضع شركة الهند الشرقية تحت هيمنة مندوبين تعينهم الوزارة) ، حيث كانت الهند مستعمرة إنجليزية ، ووافق مجلس العموم على القانون . ولكن الملك أرسل إلى مجلس اللوردات يقول : إنه سيعتبر أى شخص يصوت للمشروع عدوًا ، ورغم هذا التحذير الملكى لمجلس اللوردات ، وافق مجلس اللوردات على القانون بأغلبية ٩٥ ضد ٧٦ صوتًا ، واحتج نواب مجلس العموم على تدخل الملك الصارخ فى شئون مجلس اللوردات ، وأودعوا احتجاجهم بوثيقة رسمية لدى المجلس ، وتقرر بذلك طريقة الاحتجاج الرسمية على تدخل الملك فى شئون البرلمان .

ثم أصبح الوزراء فيما بعد مسئولين أمام البرلمان لا أمام الملك ، وهكذا عملت إنجلترا على تطوير البرلمان منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

" وحتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م ، كانت كل أوروبا يحكمها ملوك مستبدون ، يضعون القوانين ويستبدلونها ماعدا إنجلترا فقد كان فيها برلمان ، وحكومة دستورية امتدحها الفلاسفة والمفكرون ، وحسدوا إنجلترا عليها "[٣٥].

وفى سنة ١٧٨٩م (وهى نفس السنة التى قامت فيها الثورة الفرنسية) ، تم وضع الدستور الأمريكى وتم اتحاد الولايات الأمريكية . فبعد طرد الاحتلال العسكرى البريطانى فى معركة بنكرهيل بقيادة جورج واشنطن ، ورحيل القوات البريطانية عن أمريكا ، وتوقيع المعاهدة التى أنهت الحرب سنة ١٧٨٣م، تطلعت الولايات الأمريكية الثلاث عشرة إلى الاتحاد ووضع الدستور الاتحادى. وفى سنة ١٧٨٧م اجتمع مؤتمر قومى من ممثلين للولايات الثلاث عشرة فى فيلادلفيا لهذا الغرض ، وقد امتدت مناقشات المؤتمر القومى شهورًا طويلة وتم الاتفاق على الدستور واشترط المجتمعون بعد انتهاء المناقشات على موافقة تسع ولايات من

---

(٣٤) المصدر السابق . (٣٥) ول ديورانت : " قصة الحضارة ".

الولايات الثلاث عشرة ليكون الدستور ساريًا . وقد وافقت ولايــات نيوجيرســي ، وبنسلفانيا ، وديلاور على الدستور قبل أن تنتهى سنة ١٧٨٧م .

وفى المدة من ١٧٨٧م إلى ١٧٨٩م وهى فترة انتظار موافقة ســت ولايــات أخرى على الدستور ليصبح سارى المفعول ، دارت مناقشات داخل كل ولاية ، كما انتشر القلق والصراع بين الولايات ، وأدى الصراع من أجل الموافقة على الدستور إلى ظهور حزبين ، حزب الموافقين على الدستور الاتحادى أو حــزب الاتحــاد ، وحزب المعارضين للاتحاد وكان ذلك إيذانًا بنشأة الأحزاب الســياسية .

واستمر الصراع بين الحزبين فى المؤتمرات والصحافة ، وفى ســنة ١٧٨٩م تحقق قيام الاتحاد بين الولايات وقيام حكومة اتحادية ، وبذلك قامت الأحزاب فــى الولايات المتحدة الأمريكية وكان لقيامها أثره فى حل مشاكل الدستور الأمريكــى . فالدستور كان يقرر أن انتخاب رئيس للولايات المتحدة الأمريكية يكــون بواســطة مجمع انتخابى خاص ، ويتكون هــذا المجمع الانتخابى من أعضاء من الولايــات بنسبة تمثيلها فى البرلمان ، وهذا المجمع الانتخابى يقوم باختيار رئيس للولايــات المتحــدة الأمريكية . (ولم يتحقق لهذا المجمــع الانتخــابى أن يتكــون أبــدًا لأن الأحزاب الساسية التى رؤى تكوينها فيما بعد كانت كفيلة بحل مشـــكلة اختيـــار الرئيس)[٣٦].

وهكذا نشأت الأحزاب فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وما سبق صورة للآليات والوسائل التى بواسطتها يستطيع الفـــرد مباشــرة حرياته السياسية التى طورتها الحضارة الغربية ولكن أساسها إســلامى كما تمثــل فى بيعــة السقيفة لاختيار سيدنا أبى بكر خليفة للمسلمين .

---

(٣٦) آلان نيفنز وهنرى ستيل كوماجر : " موجز تاريخ الولايات المتحدة " ، ترجمة محمد بدر الدين خليل .

الفصـــل الســـابع

العلـــوم فى الحضــارة الإســلامية

كثيرًا ما يطلق عصر العلم على عصر النهضة الأوربيـــة .

ولاشك أن عصر النهضة الأوربية كان له إسهاماته العظيمة فى تقدم العلـــوم، لكن التقدم الكبير للعلوم حدث فى القرن العشرين .

أما البداية الحقيقية لعصر العلم فترجع إلى العصر الأموى والعصر العباسى ، حيث أخذت العلوم بداياتها الحقيقية وآثارها العملية فى العصر الإسلامى .

ومصطلح " عصر العلم " فى العصر الحديث والذى يطلقه الغربيـــون علـــى عصر النهضة الأوربية ، يحمل فى معناه ، الإيمان بالعلم وحده وعدم الإيمان بمـــا وراء الطبيعة والكهنوتية المسيحية ، وذلك يرجع إلى الظروف التى نشـــــأ فيهـــا الفكر الغربى الحديث والتى ناقشناها من قبل .

والحقيقة أن أوروبـــا عندما قامت بنقل علوم المسلمين العلميـــة والنظريـــة ، وتجـــاربهم العملية ، ونقلت الصناعات والتقنية عـــن المســـلمين وهـــى بالتـــأكيد صناعات ذات تقنية بسيطة ، ونقلت ترجمات العلماء المسلمين لعلـــــوم اليونـــان ، ونقلت مفاهيم المجتمعات الإسلامية السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرهـــا ، كان ذلك إيذانًا ببداية النهضة العلمية فى أوربا التى قامت تقليدًا للعلوم الإســـــلامية وسارت على نفس المنهج التجريبى الذى ابتدعه المسلمون . وعندئذ بدأ اصطـــــدام الكنيسة وكهنوتها مع مسيرة العلم فى أوروبا .

فعندما قام جاليليو ببناء منظاره الفلكى المكبر، رصد القمر ووجد على سطحه الكثير من التجاعيد ، ولم يكن صادق الاستدارة كما صورته فلسفة الإغريق. وفـــى ٢٢ يونيو سنة ١٦٣٣ وكان قد بلغ التاسعة والستين حضر أمـــام قضـــاة محكمـــة التفتيش حيث أقســـم ووعـــد بالتنـــازل عن مكتشفاته العلميـــة .. ثمنًـــا لإنقـــاذ حـــياتـــه .

فلهذا السبب وهو اصطدام الأفكار الكهنوتية مع العلم ولأسباب أخرى ذكرناها سابقًا كان الهجوم على الكنيسة ونشأة المادية الجديدة والعلمانية في أوروبا التى صاحبت مسيرة العلوم التجريبية . ومن هنا اكتسب مصطلح " عصر العلم " و " عصر التنوير الأوربى " و " عصر العقل " وغيرها من المصطلحات فى الثقافة والحضارة الأوروبية معناها المعادى للكنيسة والمسيحية .

وهكذا يتضح أن مصطلح " عصر العلم " فى الفكر الأوربى يحمل فى معناه التحرر من الأفكار الكهنوتية المسيحية التى تتصادم مع العقل ، وكذلك مصطلح عصر التنوير أو الاستنارة فى العرف الغربى يحمل نفس المعنى السابق .

أما فى العرف الإسلامى ؛ فإن " مصطلح " عصر العلم " بدأ مع بداية الإسلام ، لأن الإسلام ليس فيه ما يتصادم مع الحقائق العلمية بل إن هناك حقائق علمية مكتشفة حديثًا نجد ما يؤيدها فى آيات القرآن الكريم . وعصر الاستنارة وعصر التنوير فى المفهوم الإسلامى يعنى الاستنارة من الجهل وليس الاستنارة من الدين . والرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثة الصحيح يستعيذ بالله من الجهل والتجهيل " اللهم أعوذ بك أن أجهل أو يجهل على " .

ومن الحقائق التاريخية أن العلوم الطبيعية نشأت أول ما نشأت عند المسلمين فى أحضان الدين الإسلامى وفى ظل تعاليم القرآن الكريم .

وكانت أول آيات القرآن الكريم على الإطلاق تحض على طلب العلم والمعرفة فكانت إيذانا بعصر العلم :

" اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم "[1].

وقوله تعالى : " وقل رب زدنى علما "[2] .

ويقول المولى عز وجل :

---

(١) القلم آية ١ - ٥ .   (٢) طه آية ١١٤ .

" وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجـر الأنهار خلالها تفجيـرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينـا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فـي السماء ولن نؤمن لرقـيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قـل سبحان ربـي هـل كنت إلا بشرا رسولا "[٣] .

وهكذا سخر القرآن الكريم من المكابرين عندما طلبوا من الرسول صلى اللـه عليه وسلم عمل الخوارق .

ويقول المولى عز وجل : " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الأيات لقوم يعلمون "[٤] .

ويقول سبحانه وتعالى : "وابتغ فيما آتاك الله الدارالآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك "[٥]. ويقول سبحانه وتعالى : " قل سيروا فـي الأرض فانظروا كيف بدأ الخلـق "[٦].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا " .

ويقول المولى عز وجل : " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيـن لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد "[٧].

وغيرها من الآيات القرآنية العديدة والأحاديث النبوية الصحيحة التـي تبين اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء مثل : " هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ". وقوله تعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء ". وغيرها من الآيات العديدة التى

---

(٣) الإسراء آية ٩٠ - ٩٣ .
(٤) الأعراف آية ٣٢ .
(٥) القصص آية ٧٧.
(٦) العنكبوت آية ٢٠ .
(٧) فصلت آية ٥٣ .

تبين أهمية العلم والعلماء . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " . ويقول : " اطلبوا العلم ولو فى الصين " .

إذن الإسلام من بدايته يحض على طلب العلم ، ويدعو المسلمين إلى طلب العلم ، والقرآن الكريم به كثير من الحقائق التى لم تكن معروفة وقت نزوله ، وعندما تقدمت العلوم اتضح لنا معناها فى العصر الحديث . والقرآن الكريم لايوجد فى آياته ما يتصادم مع الحقائق العلمية الصحيحة .

لذلك لم يكن غريبًا أن يهتم المسلمون بالعلم فى عصر ازدهار المسلمين . وعندما انحرف المسلمون عن جادة الصواب وأهملوا دينهم ، تأخروا فى المجال العلمى وسبقهم غيرهم .

وللمسلمين إسهامات عظيمة فى المجال العلمى ، فقد أبدعوا فى جميع المجالات العلمية وقاموا بترجمة التراث اليونانى والفارسى والهندى وغيره ، وفهموا هذا التراث وهضموه ، وما كان منه صالحًا استفادوا منه وتركوا ما عداه . وجاءت إبداعات العلماء المسلمين – فى شتى العلوم – جديدة بعيدة عن تقليد من سبقوهم ، وابتدعوا علوماً جديدة لم تعرفها البشرية قبلهم مثل علم الجبر الذى اخترعه الخوارزمى ، وعلم الاجتماع الذى اخترعه عبد الرحمن بن خلدون ، وعلم أصول الفقه الذى إخترعه الإمام الشافعى، ووضعوا الأساس العلمى لهذه العلوم ، وهو نفس الأساس الذى نسير عليه اليوم . هذا غير إسهاماتهم الجديدة فى شتى العلوم الأخرى . وكان للعلماء المسلمين مناهجهم العلمية فى التفكير والبحث والتجريب ولذلك جاءت إبداعتهم المميزة عنوانًا على ذلك فى العلوم المختلفة مثل الرياضيات والكيمياء ، والصيدلة والطب ، وعلوم النبات والحيوان ، وعلوم التاريخ والجغرفيا والفلك والاجتماع وغيرها . وسنحاول أن نلقى ضوءًا على هذه المناهج من كتابات علماء المسلمين أنفسهم قدر الإمكان .

أولا : وضع المنهج التجريبى العلمى

يقـول " Briffault " مؤلف كتاب "بناة الإنسانية Making of Humanity " :
" إن روجر بيكون درس اللغـة العربية والعلم العزبى فى مدرسة أكسفورد على يد خلفـاء معلمى العرب فى الأندلس . وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى، فلم يكـون روجـر بيكون إلا رسـولاً من رسـل العلم والمنهج الإسلامى التجريبـى إلـى أوروبـا المسيحية "[٨] .

كان العلماء المسلمون رواد المناهج التجريبية العملية فى كثير من المجـالات العلمية ، وجعلوا التجربة العملية شرط للوصول إلى الحقيقة العلمية .

– يقـول جابر بن حـيان رائد الكيمياء الحديثة (٧٢١-٨١٥ م) فـى كتابـه عن نتائج تجاربه العملية : " يجب أن تعلم أننا نذكر فى هذه الكتب خـواص مـا رأيناه فقط دون ما سمعناه ، أو ما قيل لنا وقرأناه بعد أن امتحناه وجربنـاه ، فمـا صح أوردناه ، وما بطل رفضناه "[٩] .

وفى كتاب " سـر الأسرار " الذى ألفه أبو بكر الرازى ، الذى يعتبر مؤسـس علم الكيمياء الحديثة فى الشرق والغرب والمولود سـنة ٨٥٤ م ، تبيـان واضـح لطريقة إجراء التجارب الكيميائية ، فهو يصف المواد المستخدمة والأدوات والآلات التى يستعملها وبعد ذلك يصف طريقة تحضير كل مادة ، مبينًا نتـائج التجربـة ، وعلى هذا النحو وصف ما يزيـد على ٢٠ جهازًا ، بعضها زجـاجى والبعـض الآخر معدنى ، على غرار المستخدم الآن فى معامل الكيمياء الحديثة .

وكان الرازى بعد ذلك يشرح كيفية تركيب الجهاز ويدعم شرحه بالتعليمـات الواضحة الجلية [١٠] .

---

(٨) يوسف كمال : " الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة " ، دار الوفـاء للطبـع والنشـر ١٩٩٠م .
(٩) د. محمد جمال الدين الفندى : " دراسات فى الحضارة الإسلامية " بمناسبة القرن الخـامس عشر الهجرى ، تراث المسلمين فى مجال العلوم . ص٢٧٤.
(١٠) المصدر السابق ص ٢٥٦ .

وقـــام الرازى بتحضير عدد من الأحماض ، ولازالت الطرق التى استخدمها فى تحضير هذه الأحماض هى الطريقة المتبعة الآن .

ولعله أول من ذكر حامض الكبريتيك وأطلق عليه اسم (زيت الزاج أو الزاج الأخضر) وقـــام بنقله إلى الأوربيين (البيرالكبير) وسماه (كبريت الفلاسفة) .

وقام أبو بكر الرازى بتقطير الكحول من المواد السكرية والنشوية المتخمرة ، وكان الكحول يستخدم فى الصيدليات وصناعة الأدوية من أجل العلاج .

وأول من نقل طريقة أبى بكر الرازى فى تقطير الكحـــول إلـــى الأوروبييـــن (أرنودو فيلينتف) .

وقد ترجم كتاب الرازى (سر الأسرار) إلى اللغة اللاتينية بواسطة (كريمونـــا) فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وكان المرجع المعتمد فى مـــدارس أوروبـــا مدة طويلة . (١١)

وبواسطة المنهج التجريبى العلمى ، استطاع العلماء المسلمون أن يحضـــــروا كثيرا من المواد الكيماوية التى تدخل الآن فى الصناعات الحديثـــة مثـــل صناعـــة الورق والصابون والحرير والمفرقعات والأصباغ والسماد الصناعى .

كما قـــام عـــلماء الفـــلك بقياس طول قطر الأرض ومحيطهـــا . وقـــد رأس ثابت بن قرة لجنة لقياس طول قطر الأرض ومحيطها أيام هارون الرشيد (وذلـــك بأن قـــــاس طول الدرجة القوسية بدقة ، واتجه فريق صوب الشمال ، بينما اتجه فريق آخر صوب الجنوب ، فى نفس خط الطول ، وكان يقيس خطـــوط العـــرض بقياس ارتفاع النجم القطبى ، وهى طريقة سليمة . ولقد وجـــد أن طـــول الدرجـــة القوسية يعادل نحو ٥٦ ميلا) (١٢).

وهذه الطريقة أعطت رقمًا سليمًا لطول محيط الأرض وطول نصف قطرها ، مما جعل المستكشفين أمثال كولومبس يبحرون غربًا فى المحيط الأطلسى وهم على يقين بأنهم سيعودون من حيث بدأوا مع التقدير التقريبى للمسافة .

---

(١١) المصدر السابق . (١٢) المصدر السابق .

وهكذا نجــد أن الفضل الحقيقى الذى كان وراء نجاح المستكشفين الأوربييــن أمثال كولومبس وماركو بولو و فاسكودا جـامــا يرجع إلى أعمال العلماء العرب أمثال ثابت بن قــرة والشريف الإدريسى وابن بطوطة الرحالة العظيم .

والإدريسى الجغرافى العظيم الذى كانت له طرق عملية فى علــم الجغرفيــا ورســم خريطة العــالم هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريــس وهو شريف من بيت الحسن بن على بن أبى طالب ولد سنة ٤٩٣هـــ (١١٠٠م) وتوفى ســنة ٥٦٠هــ (١١٦٤م) ووضع كتابه المشهور فى علم الجغرفيا (نزهــة المشــتاق فى اختراق الآفاق) سنة ٥٤٨هــ . وكان الإدريسى قد قام بصنع كــرة من الفضة تشــبه الكرة الأرضية ثم رسم عليها خريطة العــالم . وقــد وصــف الإدريسى عمله هذا فى مقدمة كتابه المذكور . وقد فقدت الكرة ولكن ظل وصــف الأرض وأقاليمها السبعة وطريقة رسم الخرائط على الكرة موجود فى هذا الكتاب . والإدريسى فى كتابه يقدم لنا جغرافية الأرض وأقاليمها الســبعة وطريقــة رســم الخرائط على الكرة فى هذا الكتاب .

والإدريسى فى كتابه يقدم لنا جغرافية الأرض الطبيعية والبشرية والاقتصادية بشكل مذهل . فقد نقش على الكرة الفضية كما يقول فى كتــابه " صــور الأقــاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيغها (سواحلها) وريفها وخلجانها وبحارها ومجــارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها (بلادها المسكونة) وغامرها (غير المســكونة) ، وما بين كل بلدانها وبين غيرها من الطرقــات المطروقــة والأميــال المحــددة ، والمسافات المشهورة والمراسى المعروفة " [١٣] ونقل فى كتابه الخريطة الســطحية لهذه الأقاليم السبعة كما هى مرسومة علــى الكــرة الأرضيــة ، وقــام بوصــف مزروعات أقطارها أوبلادها وغلاتها وأجناس نباتها والاستعمالات التى تســتعمل فيها والصناعات القائمة بها والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وملابسهم وثقافاتهم ، كما قام بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارهــا وجبالهــا ومســافاتها والعجائب التى تذكر عنها . وقام الإدريســى بعمل الكرة الأرضية التى كانت تزن

---

(١٣) المصدر الســابق .

٤٠٠ رطل بالرومى فى كل رطل ١١٢ درهما [١٤] ، وتأليف كتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " فى مدة خمسة عشر عامًا .

ويقول د. حسين مؤنس :

(وقد بدأ الإدريسى عمله برسم مايمكن أن نسمية (كروكى) لخريطة الأرض، رسمها على لوحة طويلة عريضة تسع صورة الأرض وماعليها ، ثم قام بعملية حسابية رياضية معقدة ، لكى يستطيع نقل خريطة الأرض هذه على كرة الفضة ، وعلى الكرة وضع المواقع ورسم القارات والبحار والأنهار بغاية الدقة ، بعد أن أتم هذا العمل العجيب شرع فى القسم الثالث من مهمته وهو تحويل هذه الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة . وهذه عملية فى غاية الصعوبة تحتاج إلى تفكير طويل وحساب كبير ، قام بمثلها عالم هولندى من رجال النهضة فبلغ به الخلود وذلك هو جيرارادوس ميركاتور (١٥١٢-١٥٩٤م) الهولندى الذى ابتكر ما يسمى بالمساقط ورسم الخرائط على لوحات ومازلنا نحن إلى الآن نقول : " خريطة على طريقة ميركاتور " فهذا العمل الجليل صنعه الإدريسى فى صمت وهدوء .

وقام الإدريسى بعد ذلك فقسم هذه الخريطة المسطحة إلى سبعة أقسام مستعرضة فوق خط الاستواء وخطين جنوبه ، وتلك هى الأقاليم السبعة المعروفة فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية وأصلها عند بطليموس (وهو جغرافى يونانى مصرى ولد فى أسيوط وعاش وعمل فى الإسكندرية) ، ثم قسم هذه الخريطة إلى عشرة أقسام طولية بخطوط رأسية متوازية هى خطوط الطول ، وبذلك حصل على سبعين قسمًا مربعًا ، فأخذ كل قسم ورسمه رسمًا مفصلاً مكبرًا ووصفه بكل مافيه من معالم الجغرافية الطبيعية والبشرية ودوَّن الوصف فى ذلك الكتاب العظيم المسمى بنزهة المشتاق ، وقد أخذ الأقاليم إقليمًا إقليمًا وفى كل إقليم وصف كل واحد من أجزائه على حدة) [١٥] .

---

(١٤) المصدر السابق . (١٥) المصدر السابق .

وقبل الإدريسى كان هناك أبو القاسم إبراهيم محمد الفارســـى الإصطخـرى المعروف بالكرخى ، الذى عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجـــرى ، والذى بـرع فى رسم الخـرائـط وله كتاب يعرف باسم " صور الأقاليم " الــذى ألفه على اسم كتاب أبى زيد البلخى .

كما أن له كتابه المشهور فى علم الجغرافية " مسالك الممالك " ، والنسخ التى وصلت إلينا من هذا الكتاب تضم ٢٩٩ لوحة منها إحدى وعشــرون خريطـة ، الخريطة الأولى فى صورة الأرض ، والثانية فى ديار العرب ، والثالثة فى بحـر فارس والرابعة فى بلاد المغرب ، والخامسة فى بلاد مصر ، والسادسة فى بــلاد الشام ، والسابعة فى بحر الروم ، والثامنة فى صفة البحر وما فيه ، والتاسعة فـى العراق ، والعاشرة فى خوذستان ، والحادية عشرة فى إقليم فارس ، والثانية عشر فى إقليم كرمان ، والثالثة عشـرة فى بلاد السند ، والرابعة عشرة فـى أرمينيـة وأذربيجان ، والخامسة عشرة فى جبال السـند ومافيها مـن المـدن ، والسادسـة عشرة فى إقليم الديلم وطبرستان ، والسابعة عشرة فى بحر الخـزر " قزويـن " ، والثامنة عشـرة فى مفازة بين فـارس وخراسـان ، والتاسعة عشرة فـى إقليـم سجستان ، والخريطـة العشرون فى إقليم خراسان ، والحادية والعشـرون فيمـا وراء النهر ومكتوب عليها (كتاب صور الأقاليم)(١٦) .

كما كان هناك كثير من الاختراعات وليدة الأبحاث العلميـة مثـل المراصـد الفلكية والساعات والموازيـن والمزولـة الشمسـية ، وأجهـزة قيـاس الكثافـة (الإيرومترات) الذى اخترعه أبو جعفر الخازنى (الخازن) . كما إخـترع الخـازن ميزانًا خاصـا لوزن الأجسام فى الهواء وفى الماء (وكانت لهذا المـيزان خمـس كفات إحداها على ذراع مدرج كأنها القبان)(١٧) .

والمزولة الشمسية التى اخترعها المسلمون كانت تستخدم فى قياس الزمـن ، خصوصًا لتعيين مواقيت الصلاة . وهى فى أبسط صورها عبارة عن عمود رأسى مثبت على قاعدة مستديرة يعرض لأشعة الشمس ، بحيث يبين طول الظل الممدود

---

(١٦) المصدر السابق . (١٧) المصدر السابق .

لهــذا العمود ساعات النهار فى أى مكان على لوحه مدرجة تبيـــن اتجــاه الظــل وطوله ، وبطبيعة الحال تكون الشمس فى الزوال (منتصف النهار) عندمــا يصــل طول الظل أقل قيمة له ، ولايكون طول الظل صفرًا إلا فـــى حــالات التعــامد ، ولاتتوافر هذه الحالة إلا بين خطى عرض $23\frac{1}{2}$ درجة شمالاً وجنوبًا[١٨] . ولثابت بن قرة كتاب عن المزولة الشمسية .

وقد أقام المسلمون المراصد الفلكية التى شملت معظم بلاد العــالم الإســلامى من الأندلس إلى الهند. وقــد عمل ثابت بن قرة بالمرصد الفلكى الذى شيده المأمون فى بغداد عام ٨٥١ م . وفى هذا المرصد صاغ ثابت بن قرة نظريته التى حــاول فيها تفسير الظاهرة الفلكية المعروفة (بهزة الاعتدالين) : (وقد لخص هذه الظــاهرة فى أن محور دوران الأرض يهتز أو يترنح كما تترنح النحلة وهى تــدور حــول محورها فتروح متمايلة هنا وهناك)[١٩] .

واتخــذ ابن يونس المصرى وهو (أبو الحســن على بن سعيد عبد الرحمـــن بن أحمد بن يونـــس المصرى) مرصده الفلكى على صخرة كبيرة مسطحة فى جبل المقطم فى مكان يقــال له (بركة الجــيش) وهناك رصد كسوفين للشمس عــــامى ٩٧٧م ، ٩٧٨م بتشجيع من الفاطميين ، ثم بنى له العزيز الفاطمى مرصدًا علـــى جبل المقطم بالقرب من الفسطاط زوده بالمعدات والأجهزة. وابن يونس المصـــرى هو صاحب الزيج الحاكمى المعروف (والزيج كلمة فارسية الأصل معناها الجداول الفلكية والرياضية) وله زيج آخر صغير يعرف بزيج ابن يونس . وأرقـــام هذيـــن الزيجين صحيحة حتى الرقم السابع عشر[٢٠]. وقد حسب ابن يونس المصرى ميــل دائرة البروج بدقة عظيمة بعد أن رصد كسوف الشمس وخسوف القمر. وهـــو أول من توصل إلى حل بعض معادلات حساب المثلثات التى تستخدم فى علم الفلك .

---

(١٨) المصدر السابق . (١٩) المصدر السابق .
(٢٠) المصدر السابق .

فى مجال العلوم الرياضية

برع المسلمون فى فروع الرياضة كلها الحساب والجبر والهندسة ، ففى الحساب أخذوا بنظام الحساب العشرى ونبذوا الحساب الستينى (الذى لا زال يستخدم فى قياس الزمن) لأن القرآن الكريم أخذ بالحساب العشرى[٢١] .

" من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها "[٢٢] .

" وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم "[٢٣] .

" فى كل سنبلة مائة حبة "[٢٤] .

كما نقلوا الأشكال التى تدل على الأعداد من الهنود ، وكون علماء المسلمين من تلك الأشكال سلسلتين هما السلسة الهندية التى نستعملها الآن ١- ٢- ٣- ٤- .

والسلسة الغبارية التى انتشر استعمالها فى الأندلس ومنها انتقلت إلى أوربا وهى التى تستعمل فى آوربا الآن . 4 - 3 - 2 - 1 ويطلق عليها الأرقام العربية ، ونحن نطلق عليها خطأ (الأرقام الأفرنجية) . والأصل فى تسميتها الغبارية أن الهنود كانوا يبسطون الغبار على لوح ويرسمون عليه الأرقام [٢٥] .

والعالم الجليل جمشيد بن محمود بن مسعود الملقب بغياث الدين الذى ألف العديد من الكتب ومنها كتابه (مفتاح الحساب) من أبرز علماء المسلمين فى الحساب .

أما فى الجبر ، فالمسلمون هم الذين ابتدعوا علم الجبر . ومن المعروف أن العالم المسلم الخوارزمى هو الذى ابتكر علم الجبر ووضع أسسه .

وقد نبغ الخوارزمى كذلك فى الحساب والفلك والجغرافيا ، فهو من العلماء المسلمين الأفذاذ الذين يزهو بهم التاريخ ، وكان له الفضل فى تطور العلوم الحديثة .

---

(٢١) المصدر السابق .
(٢٢) الأنعام آية ١٦٠.
(٢٣) سبأ آية ٤٥.
(٢٤) البقرة آية ٢٦١.
(٢٥) د.محمد جمال الدين الفندى : " تراث المسلمين فى مجال العلوم كتاب : " دراسات فى الحضارة الإسلامية " ، المجلد الثانى .

وقد وضع كتابه (الجبر والمقابلة) فى عصر الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) وبه العديد من المعادلات الجبرية التى نستخدمها الآن وحلولها مثل :

$م س^{٢ن} + ب س^{ن} = جـ$

وكذلك المعادلة :

$س^{٤} + ٥س^{٢} = ١٢٦$. وأورد الخوارزمى حلها وغير ذلك من المعـــادلات الجبرية الكثيرة والتعبيرات الجبرية التى نستخدمها فى العصر الحديث مثل : $س^{٢} + ٥ س = ٢٤$.

يقول الخوارزمى فى كيفية اختراعه لعلم الجبر :

"وإنى لما نظرت فيما يحتاج إليه الناس فى الحساب وجدت جميع ذلك عـددا . وجميع الأعداد إنما تركبت من الواحد، والواحد داخل فى جميع الأعداد . ووجدت جميع مايلفظ به من الأعداد ، ماجاوز الواحد إلى العشرة يخرج مخرج الواحد، ثم تثنى العشرة وتثلث كما فعل بالواحد ، فتكون منها العشرون والثلاثون إلـى تمـام المائة . ثم تثنى المائة وتثلث كما بالواحد والعشرة إلى الألف ، ثم كذلك تردد الألف عند كل عقد إلى غـاية المدرك من العدد . ووجدت الأعداد التـى يحتـاج إليهـا حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة ضروب : وهى جذور ، وأموال ، وعدد مفـرد لاينسب إلى جذر ولا إلى مال . فالجذر منها كل شيء مضروب فـى نفسـه مـن الواحد ، ومافوقه من الأعداد ومادونه من الكسور . والمال كل ما اجتمع من الجذر المضروب فى نفسه . والعدد المفرد كل ملفوظ به من العدد بلا نسبة إلـى جـذر ولامال . فمن هذه الضروب الثلاثة مايعدل بعضه بعضًا "[٢٦] .

ويرمز إلى الجذر بالرمز س وإلى المال بالرمز $س^{٢}$ وأما العدد المفرد فهـو خال من س ، $س^{٢}$ مثل $س^{٢} + ب س + جـ = صفر$.

وتوصل الخوارزمى إلى معرفة جذور الكميات التخيلية [٢٧] وذكر كثيرًا مـن المسائل وحلولها الهندسية .

---

(٢٦) المصدر السابق . (٢٧) المصدر السابق .

وتوصل المسلمون إلى تعيين قيم الحدود فى نظرية ذات الحدين ، وبحثوا فى المتواليات العددية والهندسية كما فى أعمال السموءل بن حمزة المغربى . ويعتبر ثابت بن قرة من الذين مهدوا لحساب التفاضل والتكامل [٢٨].

وفى مجال الهندسة :

قام المسلمون بنقل علوم الهندسة اليونانية مثل هندسة إقليدس وأضافوا إليها الشيء الوفير حتى توصلوا إلى حسابات الفلك الكروى التى تعتبر أكبر خطوة نقلت علم الفلك إلى علم حديث متطور ، غير المفاهيم التى أتى بها أرسطو وغيره عن العالم والكون والأرض [٢٩].

وألف المسلمون فى المساحات والحجوم والتحليل الهندسى وحل المعادلات الجبرية هندسيًا ، كما طبقوا المعادلات الهندسية فى الأغراض العملية . وبين المسلمون طريقة إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها (النسبة التقريبية ط ، وقد أورد الخوارزمى فى كتابه (الجبر والمقابلة) نسبتها السليمة $\frac{22}{7}$) .

وفى حساب المثلثات أورد البيرونى تعيين مساحة المثلث بدلالة أضلاعه . واستخدم الحسن بن الهيثم الهندسة المستوية والمجسمة فى بحوث الضوء وتعيين نقطة إنعكاس الضوء فى المرايا الكرية والأسطوانية والمخروطية ، وابتكر الحلول العلمية لهذه المسائل ، واستخدم حساب المثلثات فى معظم الحالات التطبيقية واستخدم الظلال والقواطع ونحوها .

واستخدم الخليلى حساب الفلك الكروى الذى أدى إلى تقدم حقيقى فى علم الفلك . كما حسب جداول فلكية اتضح فى ظل الدراسات الحديثة أنها هى نفسها الجداول التى حسبها كبرنيق بعد ذلك بنحو ٤٠٠ سنة وأدت إلى إعلان أن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية وليست الأرض هى مركز الكون كما كان يظن الأقدمون .

---

(٢٨) المصدر السابق .   (٢٩) المصدر السابق .

كما توصل المسلمون إلى حساب اللوغاريتمات . ووضع العالم المسلم " سنان ابن الفتح الحرانى " كتابا فى الجمع والتفريق يبين ذلك . كما بحثوا فى المتواليـات العددية والهندسية . يقول " ابن حمزة المغربى ": (إن أس أساس أى حد من حدود متوالية هندسية تبدأ من الواحد الصحيح يساوى مجموع أس أساس الحدين اللذيـن حاصل ضربهما يساوى الحد المذكور ناقصًا واحـدًا "[٣٠].

وهو صحيح حتى الآن . وقام أبو الوفاء البوزجانى (٩٤٠م-٩٩٨م) بإسهامات عظيمة فى علم الرياضيات ، فلقد وضع الأساس لحل المعادلات الرياضيـة مـن الدرجة الرابعة حلاً هندسيًا ، كما توصل إلى حلول تتعلق بالقطع المكـافئ والتـى أدت إلى نشأة الهندسة التحليلية التى كان ديكارت من روادها ، كما أدت إلى ظهور حساب التفاضل والتكامل ، وأدخل حساب الظل ، واستخدام النسبة المثلثية " ظـا " فى حل المسائل الرياضية ، وحسابات القاطع ، والقاطع تمام وجـداول الممـاس ، وطريقة مبتكرة لحساب جداول الجيب .

ثانيا : وضع أسس وأصول بعض العلوم الجديدة

قام المسلمون بوضع أسس بعض العلوم الجديدة التى لم تكن معروفة من قبـل مثل علم الجبر بواسطة محمد بن موسى الخوارزمى الذى عاصر الخليفة المـأمون وذكرناه سابقا ، وعلم الاجتماع بواسطة ابن خلدون ، وعلم أصـول الفقـه الـذى وضعه الشافعى . كما كان للمسلمين إسهاماتهم الجديدة فى علوم الرياضـة مثـل حساب المثلثات وحساب المثلث الكروى التى أدت إلى تقدم علم الفلـك الحديـث، وعلوم الطبيعة مثل أعمال الخـازن (أبو عبد الرحمن أبو جعفر الخـازنى) فـى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى فى موضوع " كتلة الهواء " وأن للهواء قوة دافعة كالسوائل ، وأن وزن الجسم المغمور فى الهواء ينقص عن وزنه الحقيقـى ، وأن مقـدار ما ينقصه من وزن إنما يتوقف على كثافته البسيطة وكيفية عملهـا مثـل اتزان الميزان والقبان ونحوهما، وله كتاب عثر عليه صدفة فى منتصـف القـرن الماضى يسمى " ميزان الحكمة " ويعتبر أول كتاب وضع فى العلوم الطبيعية ومادة الهيدروستاتيكا[٣١].

---

(٣٠) المصدر السابق .

(٣١) المصدر السابق .

وقد أوضح الخازن أن قاعدة أرشميدس للأجسام المغمورة لايقتصر سـريانها على السوائل فقط بل تسرى كذلك على الغازات .

وأبحاثه فى الكثافة وطريقة تعيينها للأجسام الصلبـة والسـائلة صحيحـة ، واخترع الخازن نوعًا من " الإيرومترات " من أجل قياس الكثافات ، ولمـا كـانت الكثافة تعتمد على الحرارة . فقد مهد السبيل لجاليليو لاختراع الترمومتر ، كما كان للخازن اجتهاداته عن قوة الجاذبية وتعيين مركز الثقل وقام بشرح بعض الآلات .

كما كان للمسلمين إسهاماتهم العظيمة فى علم النبات مثل أعمال ابن البيطـار (عبد الله بن أحمد البيطار ولد فى أواخر القرن السادس الهجـرى فـى الأندلـس وتوفى فى دمشق سنة ١٢٤٨م.) ، وقد قام هذا العالم برحلات عديدة للبحث عـن النباتات وجمع عينات منها وتصنيفها ومواضع إنباتها وأسمائها ، وقد استخلص من النباتات العقـاقير المتنوعة وكتب فى ذلك تحقيقات ميدانية ورسائل عديدة ، وكتابه " الجامع لمفردات الأدوية والأغذية " من أهم الكتب عن النباتات والنباتات الطبيـة والأدوية فى العصور الوسطى وقـد رجع فى تأليفه إلـى ١٥٠ مصـدرًا منهـا عشرين مصدرًا يونانينا والباقى من المصادر العربية .

وكذلك علم الحيوان الذى ألف فيه كمال الدين الدميرى ، وهو عالم أزهرى ولد فى صعيد مصر فى قرية دميرة سنة ١٣٤٩م قبيل عصر النهضة الأوربية ، ألـف الدميرى كتابه العظـيم " حياة الحيوان الكبرى " ، ورتب فيـه الحيونـات ترتيبًـا أبجديًا على طريقة المعجم ، وتناول بالبحث ١٠٦٩ كائنًا وجعل لكل كائن صفـات معينة مميزة تتضمن كل ما كان معروفا عنه آنذاك .

وإسهامات المسلمين الجديدة والمبتكرة فى مجالات الطب والصيدلة والتـاريخ والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية والكيمياء والفلك وغيرها لايمكن أن نحصيها فى مجالنا هذا .

كما قام الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى (١٥٠-٢٠٤هـ) بوضـع أسس علم جديد فى الفكر الإسلامى هو "علم أصول الفقه " وذلك فى رسالة رواهـا

وكتبها تلميذه المصرى الربيع بن سليمان المرادى ، وبذلك يعتبر أول من ألف وجمع أصول الفقه الإسلامى . وعلم أصول الفقه هو علم يختص بضبط القواعد التى يعتصم بها المجتهد عن الخطأ فى الاستنباط ، كتقديم النصوص على القياس، وتقديم القرآن الكريم على السنة، وتعريف دلالات ألفاظ نصوص هذين المصدرين ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وقواعد القياس الصحيحة ، والمصالح ، ومقاصد الأحكام وغيرها .

ولنر الآن كيف قام العلامة ابن خلدون بوضع أسس علم جديد وهو علم الاجتماع والذى أطلق عليه علم " العمران البشرى "، وذلك لأول مرة فى التاريخ وقبل أن تعرف أوروبا علم الاجتماع بأربعة قرون . كما أنه قام بوضع أسس علم التاريخ وقد جاء الاعتراف بفضله فى العصر الحديث من علماء الغرب أنفسهم ، فهو ليس مؤرخاً فقط بل واضع نظريات حديثة فى علم التاريخ بجانب أنه منشئ علم الاجتماع .

وقد دون ابن خلدون خلاصة فكره فى كتابه الضخم الذى سماه " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " ، وهو سبعة أجزاء والجزء الأول أو (المقدمة) هو المشهور منها .

ونحاول أن نتعرف على مقتطفات قليلة من أفكار الكتاب الأول (المقدمة) لنر أصالة هذا العالم العظيم وكيفية نشأة " علم الاجتماع " الذى أطلق عليه " علم العمران البشرى " أو " العمران " أو " الاجتماع الإنسانى " وذلك عندما كان يبحث عن العوامل التى تجعل المؤرخ ينحرف عن جادة الصدق فى كتابة التاريخ .

وبعض أن وصل إلى نتيجة هامة وهى : (أن التاريخ فى حقيقته ليس إلا خبرًا عن الاجتماع الإنسانى) ، وأن تمحيص الخبر لنعرف صدقه من كذبه يقتضى معرفة طبائع العمران البشرى (أى معرفة طبيعة علم الاجتماع) ثم يبين ابن خلدون أهمية وخصائص هذا العلم فى كتابه الأول (المقدمة) وهوما سوف يتضح فى السياق التالى :

(١) رأى عبد الرحمن بن خلدون فحول المؤرخين العظام فى الإسلام أمثال ابن إسحاق والطبرى وابن الكلبى ، ومحمد بن عمر الواقدى وسيف بن عمر الأسدى وغيرهم من المشاهير ، قد خلفهم بعض المؤرخين المتطفلين الذين خلطوا الحقائق بالروايات الملفقة ، يقول ابن خلدون (إن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها ، وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولارفضوا ترهات الأحاديث ولادفعوها . فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح فى الغالب كليل . والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل ، والتقليد عريق فى الآدميين وسليل ، والتطفل على الفنون عريض طويل . ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل . والحق لايقاوم سلطانه . والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملى وينقل ، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل . والعلم يجلوا لها صفحات القلوب ويثقل)[٣٢] .

(٢) وبعد أن أورد ابن خلدون أهمية التاريخ وفوائده الجمة ، بين أنه لكى تتحصل الفائدة من التاريخ ، فيجب على المؤرخ أن يتسلح بالعلم والمعرفة ، ويحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى يقول : " فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ، وكثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا أو سمينًا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ، ولاسبروها بمعيار الحكمة والوقوف على

---

(٣٢) عبد الرحمن بن خلدون : " مقدمة العلامة ابن خلدون " بيروت ، ١٩٨٨ .

طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار ، فضلوا عن الحق وتــاهوا فى بيداء الوهم والغلط ، ولاسيما فى إحصاء الأعداد من الأموال والعســاكر ، إذا عرضت فى الحكايات إذ هى مظنة الكذب ومطية الهزر ، ولابد من ردهــا إلــى الأصول وعرضها على القواعد "[٣٣].

(٣) أورد ابن خلدون أمثلة كثيرة من كتب المؤرخين وأتى بمــا يثبــت عــدم صحتها مثل عدد جيوش بنى إسرائيل التىأحصاهم سيدنا موسى فى التيــه والتــى ذكرها بعض المؤرخين ، ومثل الأقوال الكثيرة التى ذكرها بعض المؤرخين عــن أسباب نكبة البرامكة والتى لاتستقيم مع العقل وبين أسباب معقولة لهذه المأســاة ، ومثل أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب وانتشــارهم فى أماكن عديدة فــى العالم ، وبيَّن أن هذه الأخبار بعيدة عن الصحة .

(٤) وبعد أن أوضح ابن خلدون العوامل الكثيرة والعميقة المدلول التى قد توثر على المؤرخ فينحرف عن جادة الصدق فى تسجيل التاريخ ، خلص إلى نتيجة هامة وهى : أن التاريخ فى حقيقته ليس إلا خبر عن الاجتماع الإنســانى ، الــذى هــو عمران العالم . ولما كان الكذب متطرقــًا للخبر بطبيعته وله أســباب تقتضيــه ، فيجب التمحيص والنظر فى الخبر لنتبين صدقه من كذبه . وتمحيص الخبر يقتضى معرفة طبائع العمران البشرى (أى معرفة طبيعة علم الاجتمــاع ، وهــو أحســن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار فيقول : " وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبــار وتميــيز صدقها من كذبها "[٣٤].

ثم يبين ابن خلدون أهمية معرفة طبيعة علــم الاجتمــاع أو (علــم العمــران البشرى) كما يسميه، لأن ذلك سيعطينا معيارًا صحيحًا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه من أخبار. فمعرفة طبيعة علم العمران البشرى " علم الاجتماع "هدف أساسى سعى ابن خلدون لبيان أهميته ، وهو الهدف الذى من أجله

---

(٣٣) المصدر السابق . (٣٤) المصدر السابق .

وضع ابن خلدون كتابه الأول (المقدمة) . يقول ابـن خلـدون : "وإذا كـان ذلـك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، بالإمكان والاستحالة ، أن ننظـر فى الاجتماع البشرى وهو العمران ونميز مايلحقه من الأحوال لذاته ، وبمقتضـى طبعه ، وما يكون عارضًـا لايعتد به ، وما لايمكن أن يعـرض له ، وإذا فعلنـا ذلك ، كان لنا قانونـًا فى تمـييز الحق من الباطل فى الأخـبار ، والصدق مـن الكذب بوجه برهانى لامدخل للشك فيه ، وحينئذ إذا سمعنا عن شىء من الأحـوال فى العمران ، علمنا مانحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه ، وكـان ذلـك لنـا معيـارًا صحيحًا يتحـرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيمـا ينقلونـه ، وهـو غرض الكتاب الأول من تأليفـنا " .

وكان هذا علمًا مستقلاً بنفسه . فإنه ذو موضـوع وهـو العمـران البشـرى والاجتمـاع الإنسانى ، وذو مسائل وهى بيان مايلحقه من العـوارض والأحـوال لذاته واحدة بعد أخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيًا كان أم عقليًا .

ويضيف ابن خلدون مبينًا أن علم " العمران البشرى " علم جديد لم يعرفه أحد قبلـه : " وأعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريـب النزعـة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى إليه الغوص ..... ولعمرى لم أقف علـى الكلام فى منحـاه لأحد من الخليقة " .

ويضيف : " ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهامًا ، وأعثرنا على علم جعلنـا بيـن نكرة وجهينة خبره ، فإن كنت قد استوْفيت مسائله ، وميزت عن سـائر الصنـائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهـداية ، وإن فاتنى شىء فى إحصائه واشـتبهت بغيره ، فللناظر المحقق إصلاحه ، ولى الفضل لأنى نهجت لهم السبيل ، وأوضحت له الطريق والله يهدى لنوره من يشاء "(٣٥) .

ثم يبين ابن خلدون بعد ذلك أهمية علم الاجتمـاع وأن الاجتمـاع الإنسـانى ضرورى لأن هناك أمورًا كثيرة توجب هذا الاجتماع ، مثل حاجة الإنسان للتعامل

---

(٣٥) المصدر السابق .

مع غيره ، لكى يحصل على حاجاته ، مثل حاجته إلى الطعام وما يستدعيه ذلك من زارع يزرع ، وطاحن يطحن ، وخباز يخبز . فالتعاون ضرورى فى شتى المجالات . ويضرب مثلاً بأمور الحرب وغيرها من الأمور مبينًا " أن الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى وإلا لم يكمل وجودهم ، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم ، واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعاً لهذا العلم " .(٣٦)

وهكذا تتابعت فصول " المقدمة " وهى ستة فصول . ومن خلال هذه الفصول ، نستشف مايلى :

١ – ضرورة الاجتماع الإنسانى ، إذ يستحيل على البشر أن يعيشوا منفردين، ودافعهم إلى ذلك هو ضرورة حصولهم على قوتهم وحماية أنفسهم من اعتداء الحيوانات .

٢ – ضرورة الدولة : وإذا تحقق هذا الاجتماع يصبح هناك ضرورة للدولة لكى تمنع العدوان من بعض الناس على البعض الآخر ، لأن البشر بطبيعتهم ينزعون إلى الظلم والعدوان .

٣ – أكثر المصطلحات التى نعرفها اليوم والتى أطلقت على العلوم الإنسانية ، كعلم الحضارات ، وعلم فلسفة التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم الإقتصاد السياسى ، وعلم الجغرافيا ، وعلم التربية ، ما هى إلا ترجمة وتفريع واستنباط لما ورد فى مقدمة ابن خلدون .

---

(٣٦) المصدر السابق .

الاســـتغــــراب

(امتداد لدراسات العلماء المسلمين فى العصرين الأموى والعباسى)

الاستغراب عكس الاستشراق .

والمستغربون عكس المستشرقون .

ومستغرب عكس مستشرق .

ولتعريف مصطلح "الاستغراب " يجب أن نعرف " الاستشراق" أولاً .

"والاستشراق" عرفه بعض العلماء المسلمين ومنهم د. أحمد عبد الرحيم السايح فى كتابه " الاستشراق فى ميدان نقد الفكر الإسلامى " باعتباره طلب علوم الشـــرق ولغاتهم وآدابهم ، والمستشرق هو العالم المتمكن من المعارف الخاصــــة بالشــرق ولغاته وآدابه .

وهذا التعريف لايفى بالمعنى الكامل والحقيقى للاستشراق ، فالاستشراق فـــى واقعـــه الحاضر ماهو إلا دراسة علوم الشرق ولغاته وآدابه مـــن خلفيـــة ثقافيـــة علمانية للدارس .

والمستشرق هو العالم العلمانى المتمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاتـــه وآدابـــه .

وبهذا التعريف يمكن أن نفهم بعض كتابات المستشرقين التى لاتتوخى الصدق والحقيقة فى بعض الأحيان .

وبذلك يمكن أن نعرف " الاستغراب " اصطلاحًا " بأنه دراسة علوم الغــــرب ولغاته وآدابه من خلفية ثقافية إسلامية للدارس .

فالاستغراب بهذا المعنى يعنى دراسة وفهم علوم الغرب ونقدها وتبيان وجــــه الحق فيها من خلفية ثقافية إسلامية للدارس .

أما مصطلح " التغريب Westernization " فقد ظهر منذ حوالى قرنيـــن مـــن الزمن وشـــاع استعماله فى عصر محمد على باشا فى مصر ، بعد أن قام محمـــد على بعزل الأزهر الشريف وجعل الدراســة فيه تختص بالعلوم الدينية مثل علـــوم التفسير والحديث والفقـــه والتوحيد ، واللغه العربية وآدابها وما يتصل بهـــا مـــن بلاغة وصرف ونحو . وقام بإلغاء المواد العلمية التى كانت تدرس فـــى الأزهـــر طوال العصر العثمانى مثل علم الفلك وكان يسمى علم الهيئة ، وعلـــم الطبيعـــة ، وعلم الأحياء الذى كان يسمى علم المواليد ، والرياضيـــات مـــن حســـاب وجـــبر وهندســـة ، فبدلاً من تطوير دراســـة هذه المواد العلمية التى كانت تـــدرس فـــى الأزهر قام بإلغائها ، وجعل الأزهر يختص بدراسة المواد الدينية واللغة العربية .

ويرجع ذلك لأن محمد على قد قـــام بإنشاء المدارس الابتدائية وأطلق عليهـــا مدارس المبتديان ، والمدارس الثانوية وأطلق عليها المدارس التجهيزية ، والمدارس العالية وأطلق عليها المدارس الخصوصية .

ومصطلح " التغريب " يعنى نقل علوم الغرب والأخذ بها بدون نقد أو تمحيص حتى ولو كان فيها ما يخالف مفاهيم الإسلام ومعطياته ، كما قال د.طـــه حســـين " نأخذ بالمدنية الغربية حلوها ومرها وخيرها وشرها " .

" والاســـتغراب " أو دراســـة علوم الغـــرب من وجهة نظر إسلامية ، ما هو إلا امتداد لدراسات العلماء المسلمين فى العصرين الأموى والعباسى ، لعلوم اليونان والفرس والصينين والهنود بعد أن قاموا بترجمتها إلى العربية ، ودراستها ونقدهـــا وتمحيصها من وجهة نظر إسلامية .

خـــاتمـة

هناك مجموعة من الأسئلة أردت أن أثيرها جملة واحدة وسوف تتضح معالمها فى هذا السياق :

لقـد انقطعت وانتهـت حضـارات العيلاميين والسومريين ، والبـابليين وحضارة الإغريق ، وحضارة المصريين القدماء ، وحضارات أخرى عديدة ، منها ماالكتشفه علماء الآثار ، ومنها مالم يكتشف بعد ، وكل عدة عقود يكتشف العلماء آثار حضارة من الحضارات القديمة المنقرضة والتى لم يبـق لهـا إلا آثارهـا . والسؤال :

ألم تكن لهذه الحضارات المنقرضة أو المنقطعة التى لم يبق منها إلا الآثار الدالة عليها ، ثقافات ؟

إن الآثار المكتشفة لأغلب هذه الحضارات تدل على ثقافة الشعوب الذين أقاموا هذه الحضارات . فأغلب هذه الآثار تدل على الاعتقاد الدينـى كمـا فـى الآثـار المصرية القديمة ، وكذلك الآثار اليونانية والبابلية وغيرها . كما يوجد فى أغلب الآثار مايدل على العادات والأخلاق ، وبعض الآثـار تدل على النواحى القانونيـة مثل " قانون حمورابى " فى الثقافة البابليـة وغيرها من العناصر المكونة لنسيج الثقـافة الكلى .

إذن فكل حضارة منقرضة كانت لها ثقافة انقرضت معها .

هل يمكن أن تنقرض وتموت حضارة ، وتظل ثقافتها موجودة ؟

وهل يمكن أن تموت ثقافة ، والحضارة التى تمثلها موجودة ؟

أسئلة تحتاج للبحث والدراسة ، ولكن يمكن ملاحظة الآتى :

١ - من تعريفنا لمصطلح " الحضارة " يتضح أن وجود " الثقافة " هو أساس وجود أى " حضارة " من الحضارات .

ولايمكن أن تموت " حضـــــارة " من الحضارات و " الثقــافة " التى تمثلهــا موجودة .

فالإنتاج الحضارى لأى شعب من الشعوب تنعكس عليه ثقافته . كما أن التقدم الحضارى لايرتبط بالثقافة ، ولكن يرتبط أساسـًا بالإدارة العلمية والتقنية .

٢ – من تعريفنا السابق لمصطلح " الثقافة " وأيضًا من الشواهد التاريخيــــة ، يتضح أن انقطاع أو موت أو انقراض " ثقافة " من الثقافـــات ، مرتبــط بعنصــر الاعتقـــاد فى هذه " الثقــــافة " .

فعندما آمن الإمبراطور الرومانى أغسطين بالمسيحية وقام بنشرها فى أنحـــاء الإمبراطورية الرومانية ، انقطعت " الثقافة " الإغريقية وحلت محلهـــا " الثقافـــة " المسيحية .

وعندما دخلت مصر والمغرب والشام والعراق وفارس وغيرها فى الإسلام ، ماتت ثقافات هذه الشعوب ، وحلت محلها " الثقافة العربية ".

وعندما بدأ الفكر الغربى الحديث ينتشر فى أوربا ، فى القرن الســـابع عشــر الميلادى ، وأصبحت " المادية الجديدة " هى عنصر الاعتقـــاد الحقيقــى للشـــعوب الأوربية ، قامت " الثقافة الغربية العلمانية " الحديثة وانتشرت بعد الثورة الفرنســـية ١٧٨٩م ، وحلت محل الثقافة الغربية المسيحية القديمة التى انقطعت .

٣ – إن انقراض " الثقافة " أو موتها أو انقطاعها يعتمد على مقدرة عنصــــر الاعتقـــاد ، على مسايرة التطور الإنســـانى ، ومسايرة التقـــدم العلمـــى ، وعلـــى الموائمة مع فطرة الإنسان التى فطره الله عليها .

هل يمكن أن تنقطـــع أو تنقرض أو تموت " الثقـــافة العـــربية " و" الحضارة الإسلامية " ؟

وهل يمكن أن تنقطع أو تنقرض أو تموت " الثقافة الغربية العلمانية " الحديثة و" الحضارة الغربية الحديثة " ؟

وماهو مصير الآثار التى ألحقها الغزو الحضارى العلمانى الغربى لبعض مجالات الحضارة الإسلامية وخاصة القواعد والنظم الاجتماعية ؟

والإجابة عن هذه الأسئلة لايمكن أن نوفيها حقها كاملة ، ولكن هذه الدراسة التى بين أيدينا ، يمكن أن تعطينا بعض الإيضاحات . ففى مجال التعدد والتنوع فى ظل الوحدة فى " الثقافة العربية " و" الحضارة الإسلامية " سوف نشير إلى مايلى :

أولاً : إذا أمعنا النظر فى المجتمعات الغربية نلاحظ أن " الثقافة " الأم هى " الثقافة العلمانية-الغربية " الحديثة ، وتشمل مساحة جغرافية عظيمة فى العصر الراهن ، فهى تشمل أوروبا وأمريكا ومساحة كبيرة من العالم المسيحى وغير المسيحى فى أستراليا وأفريقيا وآسيا .

كما نلاحظ أن الاختلافات الثقافية بين بعض الشعوب لايغير من مفاهيم الثقافة الأم ، مثلاً الاختلاف بين ثقافة فرنسا وثقافة الولايات المتحدة الأمريكية لا يغير من مفاهيم " الثقافة العلمانية الغربية " الحديثة وهى الثقافة الأم التى تسود كلا المجتمعين الفرنسى والأمريكى .

كما أن وجود ثقافات مختلفة لبعض المجموعات العرقية أو الدينية أو الجغرافية ، فى ظل الثقاقة الأم يجب أن لا يغير أويهدد أو يغزو مفاهيم الثقافة الأم .

وبذلك يمكن أن نفهم مادار فى الحرب التى استمرت أربعة أعوام فى البوسنة والهرسك بين الصرب والكروات والمسلمين ، ونجاح القوة والسياسة فى عدم وجود دولة بوسنية مستقلة لها ثقافة وحضارة تختلف عن الثقافة والحضارة الغربية ، وتهدد بغزو الثقافة الغربية فى قلب أوروبا ، والسماح فقط بقيام دولة بوسنية تحمل مفاهيم الثقافة والحضارة العلمانية الغربية الحديثة .

وكذلك يمكن أن نتتبع ما تحاول أن تقوم به روسيا الآن فى الشيشان على نفس الطريق ، مع ملاحظة أن الشعب الشيشانى يختلف عن الشعب البوسنى لشدة إيمانه بدينه الإسلامى وثقافته العربية وحضارته الإسلامية . فهل ينجح الشعب الشيشانى فى الاحتفاظ بوحدة ثقافته والحصول على استقلاله فى نفس الوقت ؟

وكذلك يمكن أن نفهم الاتجاه الذى ظهر حديثـًا فى الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والذى يدل على القلق العميق ومحـاولة الحفـاظ على الهويـة الثقافيـة بوحدتها وسيطرتها ، مثل الضجـة الإعلامية التى ثارت مؤخـرًا حـول بعـض الفتيات المسلمات المحجبات فى إحدى مدارس بعض الدول الغربية والإجـراءات القانونية التى أعقبتها . وكذلك مناقشة أمور " الثقافة " علـى مـائدة المفاوضـات السياسية ، ومحاولة فرض مفاهيم " الثقـافة " العلمانية الغربية الحـديثة علـى العالم كله ، والذى ظهر جليا فى مؤتمرات الأمم المتحدة ، مثل مؤتمرات السـكان ومؤتمرات الثقافة وغيرها .

ثانيا : تعتبر " الثقافة " من الخصوصيات لكل شعب ولكل أمة ، والأمم تحافظ على ثقافاتها ولاتفرط فى مفاهيمها، ولاتسمح بغزو الثقافات الأخرى لها ، والأمـم الغربية والأمريكية خير مثال لذلك . ووجـود ثقافات أخرى مغايرة ، لمجموعات من الأفراد ، فى المجتمع الأمريكى أو المجتمع الفرنسى أو المجتمع الإنجلـيزى ، لايعنى سيطرة ثقـافات هذه المجموعات على الثقـافة الأم أو غزوهـا وتهديـد وحدتها ، فالثقافة الأم ، هى التى تسيطر وتسـود ، ومفاهيمهـا هـى المسـيطرة والسـائدة . وفى ظل سيطرة وسيادة ووحدة الثقافة الأم ، يمكن السـماح بوجـود ثقافات مغايرة لمجموعات عرقية أو دينية أو غيرها بشرط خضوع أصحاب هـذه الثقافات المغايرة لمفاهيم الحضارة الغربية السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة ... وبشرط عدم تهديد هذه الثقافات المغايرة لمفاهيم الثقافة الأم .

والثقافة فى المجتمعات الغربية المعاصرة مثلها مثل (عـرض) الأنثـى فـى المجتمعات الإسلامية ، ومحافظة الشعوب والمجتمعات فى أوروبا على ثقافتهـا ، مثل محافظة المجتمعات الإسلامية على (عرض الأنثى) ، وتهديد وحدة الثقافـة عند هـذه المجتمعات مثل (العرض) فى مجتمعنا يمكـن أن تـراق الدمـاء فـى المحافظة عليه .

ثالثا : لاشك أن " الثقافة " العلمانية الغربية الحديثة و" الحضـارة " الغربيـة الحديثة لها تأثير كبير على رقعة عريضة من سكان كوكبنا الأرضى . ويرجع ذلك لأسباب عديدة ، ولكن الحقبة الاستعمارية المباشرة ، كانت السبب الرئيسـى فـى بداية هذا التأثير واستمراره .

وقد اختلفت الشعوب والمجتمعات ، فى مدى استجابتها للاستعمار ومفاهيمه الثقافية والحضارية ، أو كما أطلق عليها " مالك بن نبى " مدى قابليتها للاستعمار. وعلى أية حال فإن هناك أمتان كانت استجابتهما أو قابليتهما للاستعمار ولغزوه الفكرى ، مختلفة عن بقية الأمم . وهاتان الأمتان هما الأمة الصينية والأمة الإسلامية، وذلك لأسباب مختلفة فى كلتا الأمتين . فالأمة الصينية ظلت محتفظة بوحدة ثقافتها مع الاستفادة من معطيات الحضارة الغربية فى مجالاتها المختلفة .

واحتفاظ الأمة الصينية بوحدة ثقافتها ، لايرجع إلى قوة عنصر الاعتقاد وهو الديانة البوذية ولكن يرجع ذلك إلى النظام الشيوعى الذى فرض على الشعب الصينى وما صاحبه من المحافظة والالتزام والحماية للنظام الشيوعى من غزو النظام الرأسمالى ، وما استتبعه من حماية "الثقافة" الصينية من غزو " الثقافة " الغربية العلمانية . كما أن المستعمر الغربى لم يحتل الأراضى الصينية ولكنها احتلت بواسطة المستعمر اليابانى ولفترة قصيرة ، مع ملاحظة أن الصين واليابان لهما نفس الديانة البوذية (انتقلت الديانه البوذية من الصين إلى اليابان فى القرن السادس الميلادى)(١).

أما الأمة الإسلامية فبالرغم من احتلال معظم أراضيها لفترة طويلة بواسطة المستعمر الغربى ، وقيامه بفرض ثقافته وحضارته بالقسر والقهر والفرض ، إلا أن الأمه الإسلامية ظلت محتفظة بوحدة ثقافتها ووحدة حضارتها رغم ما أصابها من بعض التيارات والشوائب التى لازالت موجودة حتى الآن والتى تهدد وحدة ثقافتها ووحدة حضارتها . ويرجع ذلك إلى قوة عنصر الاعتقاد وهو الدين الإسلامى . فالدين الإسلامى بما اشتمل عليه من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وعلاقات وأحكام الحدود وغيرها ، جاء شاملاً لحياة الإنسان الروحية والجسدية فليس فى الإسلام خصام بين الروح والجسد ، فالاهتمام بالجوانب المادية يصاحبه إهتمام بالجوانب الروحية فى الإسلام ، كما نصت على ذلك آيات عديدة فى القرآن.

---

(١) Grolier Academic Encycloepe dia : " Japan People " .

والمشكلة هى فى عدم فهم الإسلام حقيقة الفهم ، ليس من غير المسلمين ، بل من المسلمين أنفسهم ، وقد أشار إلى ذلك الفيلسوف الفرنسى المسلم " رجاء جارودى" عندما قال :

إن المسلمين يقرأون القرآن الكريم بعيون ميتة ومشكلتنا الآن كيف نواجه مستجدات القرن العشرين ؟

والمولى عز وجل يقول فى القرآن الكريم " والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا "[٢] .

إذن فالدين الإسلامى هو السبب الحقيقى فى عدم انهيار وحدة " الثقافة العربية " ووحدة " الحضارة الإسلامية " .

وقد أشار إلى ذلك " غلادستون " رئيس وزراء إنجلترا إبان الحقبة الاستعمارية ، حيث وقف فى مجلس العموم البريطانى وفى يده المصحف الشريف قائلاً : ليس لنا بقاء فى البلاد الإسلامية وهذا الكتاب موجود فى الأرض .

رابعا : ظلت الشعوب والمجتمعات الإسلامية محتفظة بوحدة ثقافتها ووحدة حضارتها طول عصور الإسلام المختلفة ، وظل التعدد والتنوع يدور فى ظل هذه الوحدة . ولقد إحتفظت الشعوب والمجتمعات بهذه الوحدة حتى فى عصور الضعف والتأخر والانحطاط . وطوال العصور الإسلامية كانت الأمة قادرة على هضم كل المستجدات والمتغيرات ، مع الاحتفاظ بوحدة ثقافتها ووحدة حضارتها . وفى أواخر القرن الماضى عندما حل الضعف بالأمة ، وانفرطت وحدة الإمبراطورية الإسلامية العثمانية السياسية ، ودخل الاستعمار معظم البلاد الإسلامية ، فإنه بدأ سريعًا فى عمل التغييرات التى كان يراها ضرورية لضمان بقائه فى البلاد التى احتلها ، دون مقاومة ، وخاصة أن المقاومة للاحتلال كانت ضارية بالرغم من ضعف الإمكانيات حينذاك .

ففى مصر مثلا قام " لورد كرومر " بتولى شئون البلاد الفعلية ، وفى المجال العسكرى تولت قوات الاحتلال البريطانى قيادة الجيش وقيادة الشرطة المصرية ،

---

(٢) سورة الفرقان آية ٧٣ .

وعملت على إعادة تنظيم الجيش والشرطة ، وفى الحقيقة إخضاعهما لسيطرتها والعمل على تقليل عدد قواتهما ، وإضعافهما وصبغهما بالصبغة الاستعمارية .

كما كانت معظم قيادات العمل السياسى والاقتصادى والثقافى والتعليمى والقضائى ، وكثير من الوزراء والمستشارين ، من الإنجليز والموالين لهم من المصريين .

وكان العمل يجرى على قدم وساق فى تغيير النظام الاقتصادى والقانونى والتعليمى للبلاد ، وقامت " لجنة دنلوب " برئاسة السيد "دنلوب" الذى عين مستشارًا لوزارة المعارف المصرية ، بوضع أسس ومناهج التعليم لمصر ولمنطقة الشرق الأوسط كلها ، وتغيرت القوانين، والنظم القضائية ، والنظم الاقتصادية ، والإدارية ، ونظم التربية والتعليم ، واكتسبت كثير من النظم الاجتماعية والقواعد الاجتماعية مفاهيم الحضارة الغربية الحديثة والثقافة الغربية الحديثة .

وقامت قوات الاحتلال الإنجليزى بالعمل على إنشاء وافتتاح الخمارات ، والنوادى الليلية ، والسينمات ، والعمل على نشر العادات والتقاليد الإنجليزية ، فى المطاعم والمنتديات والمدارس ، ودور السينما ، والصحف والمجلات .

وفى ظل الاحتلال الإنجلبزى ، جاءت مجموعة الكتاب والصحفيين خريجى مدارس الإرساليات التبشيرية فى الشام ، إلى مصر ، ومنهم فارس نمر ، ويعقوب صروف ، وجورج زيدان ، وإلياس سركيس ، وفرح أنطون ، وشبيلى شميل وغيرهم ، وسيطروا على صحف ومجلات الأهرام والمقطم والمقتطف والهلال ، وعملوا على نشر " الثقافة الغربية العلمانية " . وطوال السبعين عامًا التى مكثها المستعمر الإنجليزى فى مصر عمل على نشر مفاهيم " الثقافة الغربية العلمانية " الحديثة ، وتثبيت التغييرات الحضارية التى أدخلها على مجالات السياسة والاقتصاد والنواحى الاجتماعية ، ونظام التربية والتعليم ، والنظام التشريعى ، والقوانين ونظم التقاضى والمحاكم ، وفصل الدين الإسلامى عن السياسة ، وفصل الدين عن أحوال الناس وحياتهم العادية وعلاقاتهم ومعاملاتهم ، وإنشاء نظم برلمانية شكلية على النمط الغربى ، تضع القوانين الوضعية التى

لاتخرج عن المفاهيم الغربية الحديثة ، والعمل على إبعاد الإسلاميين الذين قاوموا أفكار الاستعمار العلمانية ، وعدم تمكينهم من تولى قيادة العمل السياسى أو الاقتصادى أو التعليمى أو الثقافى .

وانزوت الأفكار الإسلامية التى كانت تدعو إلى النهضة والتقدم على أسس إسلامية، والتى كانت تدعو إلى مقاومة الاستعمار وإخراجه من البلاد الإسلامية ، ومقاومة أفكاره العلمانية. انزوت هذه الأفكار الإسلامية فى بحر لجى من التغريب والأفكار الغربية العلمانية ، بعد أن رحل قادتها أمثال : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ومصطفى كامل . ولم يستطع خلفاؤهم من المفكرين والعلماء الإسلاميين ، مع كثرتهم فى البلاد الإسلامية ، أن يغيروا من الأفكار العلمانية الغربية المسيطرة ، أو أن يزحزحوا المستعمر عن البلاد .

وفى ظل الاحتلال وتحت رعايته ولدت وتربت ونشأت أجيال من المسلمين تشربت أفكار الثقافة الغربية العلمانية الحديثة ، وأفكار الحضارة الغربية الحديثة ، فى المدارس والجامعات ، وعايشتها فى المجالات الإجتماعية والمنتديات الثقافية ، والنوادى والملاهى والسينما والمسرح والصحف والمجلات .

وكانت هذه الأجيال التى تحمل مفاهيم الثقافة الغربية والحضارة الغربية الحديثة ، هى التى تولت قيادة العمل فى المجالات المختلفة ، أثناء وبعد رحيل المستعمر عن البلاد الإسلامية .

وكان من الطبيعى أن تكون هذه الأجيال وتلاميذهم ، هم الذين يتولون الدفاع عن مفاهيم الثقافة الغربية العلمانية الحديثة ومفاهيم الحضارة الغربية ، بدلاً من المستعمر نفسه .

وبعد ذلك تغيرت الإستراتيجية الاستعمارية فى العقود التالية لرحيل الاستعمار عن البلاد التى احتلها، وأصبحت هذه الإستراتيجية هى مساعدة النظم السياسية التى تعمل على نشر مفاهيم " الثقافة الغربية العلمانية الحديثة " ومفاهيم " الحضارة الغربية الحديثة " . ومقاومة النظم السياسية التى تعمل على خلاف ذلك . وكان للعالم الإسلامى نصيب الأسد فى هذه الإستراتيجية .

خامسا : نتيجة لما قام به الاستعمار وغزوه الفكرى ، تغيرت كثير من مفاهيم العناصر المكونة لنسيج " الثقافة العربية " الكلى ، مما هدد وحدتها ، ولكن الدين الإسلامى كان العامل الحاسم فى عدم تداعى وحدة " الثقافة العربية " وانهيارها .

كما أن الدين الإسلامى كان العامل الحاسم فى الاحتفاظ بوحدة " الحضارة الإسلامية " رغم ما أصاب كثيرًا من مجالاتها المختلفة ، من غزو فكرى وتغيير ، وخاصة فى مجالات النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقواعد القوانين وغيرها ، وهذه بعض الأمثله لذلك :

(أ) أمثلة لبعض المجالات الثقافية التى أصاب مفاهيمها التغيير نتيجة للغزو الفكرى :

(١) القوانين : حلت القوانين الوضعية محل القوانين المستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية فى كثير من أقطار العالم الإسلامى ، ونتيجة لذلك حدثت بعض التغييرات فى سلوكيات الأفراد وتصرفاتهم ، وانتشار السلوكيات المنحرفة التى لم يعد هناك رادع قوى لوقفها ومنع انتشارها ، مثل انتشار الجنس المحرم والإباحية ، والمخدرات وشرب الخمر والبارات ، والاختلاسات والسرقات ، وغير ذلك من السلوكيات المنحرفة التى أصبحت القوانين الوضعية غير كافية لوقفها أو ردعها .

(٢) الأخلاق : انتشرت الأخلاق المرذولة التى لايقرها الإسلام ، فانتشر الغش والمكر والخداع فى المعاملات ، والنصب والاحتيال فى الأعمال المالية ، وغابت الشفافية والوضوح ، وحلت محلها أساليب الالتواء والخداع فى الأعمال الاقتصادية والمالية والتجارية فى كثير من بلدان العالم الإسلامى . وانتشرت أساليب الفهلوة والرشوة والمحسوبية التى كادت أن تكون من الأساليب المعترف بها فى مجالات التجارة والعمل فى كثير من البلاد الإسلامية .

(٣) العادات : دخلت كثير من عادات وتقاليد المجتمعات الغربية إلى البلاد الإسلامية، وأصبح كثير من الشباب والرجال والنساء يميل إلى تقليد العادات

الغربية فى أزيـــاء الملابس والمأكل والمشرب وبعض العـــادات الاجتماعيـــة مثل الاحتفالات والأعياد والمناسبات والأفراح وعادات الســـماع ، وعـــادات قضاء أوقات الفراغ ، والسهر وغير ذلك من العادات . وكان لوسائل الإعلام باع كبير فى هذا المجال، كما كان للفنون عمومًا أثر كبير فى ذلك .

(٤) الفنون : إنتشرت الفنون الغربية بجميع أنواعها فى المجتمعات الإسلامية وقام العاملون فى حقل الفنون بتقليد الفنون الغربية فى الموسيقى والغناء والرقـــص والسينما والمسرح ، وفى مجال الفنون التشكيلية كالرسم والنحت والزخرفـــة والعمارة ، وفى مجال الأدب بشتى أنواعه . وكان للفنون تأثيرها الكبير فـــى نشر العادات والتقاليد والسلوكيات الغربية وخاصة بين الشباب فى كثير مـــن المجتمعات الإسلامية .

أما الفنون الإسلامية فقد أنزوت ولم تتطور فى القرن الآخير.

(ب) أما فى مجالات " الحضارة الإسلامية " فإن الغزو الفكرى كان له تـــأثير عميق فى مجال السياسة والإقتصاد والإجتماع وغيرها . وقد ألقينا الضـــوء علـــى بعض هذه المجالات فى فصول هذه الدراسة ، وبينا الاختلال الذى يهـــدد وحـــدة الحضارة الإسلامية نتيجة التغييرات فى بعض هذه المجالات .

سادسا : إذا أمعنا النظر نجد أن الشعوب والمجتمعات الإسلامية ، ترفض هذه التغييرات التى أدخلها الغزو الفكرى ، علـــى بعـــض مجـــالات الثقافـــة العربيـــة والحضارة الإسلامية ، وتقاومها ، وترى أنها لاتتفق مع الدين الإسلامى ومفاهيمه ومعطياته .

سابعـــا : من الملاحظ فى الوقت الراهن أن الغزو الفكرى ، أدى إلـــى نـــوع عجيب من التنوع والتعدد فى مجالات " الثقافة العربيـــة " ومجـــالات " الحضـــارة الإسلامية " ، ولكنه تعدد لاتربطه وحدة يدور فى ظلها ، فهو تعدد يمثـــل ثقـــافتين مختلفتين وحضارتين مختلفتين هما " الثقافة والحضارة الإسلامـــية " فى مقـــابل " الثقافة والحضارة العلمانية الغربية الحديثة " . وهو فى الحقيقة نـــوع مـــن التعـــدد المتنافر المتصادم ، لعدم وجود وحدة ومفاهيم مشتركة يدور فى ظلها. وهو ســـبب

التمزق والتشتت التى تعيشه بعض المجتمعات الإسلامية فى الوقت الراهن . وهذا النوع من التعدد المتنافر المتصادم عائق أكيد فى سبيل نهضـــة وتقـدم الشـعوب الإسلامية ، إذا اتخذ من الصراع وسيلة لوجوده واستمراره ، ولـــن يفلـح القسـر والقهر فى تغليب ثقافة على أخرى أو حضارة على أخرى ، داخل الوطن الواحد ، بين أبناء الوطن الواحد ، لأن الفرض والقسر لن يحل المشكلة ، بل سوف يؤجـل الحل إلى وقت لاحق .

والحل الأمثل لمثل هذا النوع من التعدد ، هو الحرية السياسية الحقيقية ، التى تحول التنافر والتصادم إلى تنافس . فالحرية السياسية الحقيقية بمفاهيمها فى تداول السلطة ، دون استئثار طرف بالسلطة وإقصاء للآخـــر ، سوف يـــثرى الحيـاة الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويكون هناك تنافس حـــر للتمـيز ، وتطوير للمفاهيم فى شتى المجالات لكلا الثقافتين والحضارتين المختلفتين .

ومع أن هذا النوع من التعدد السياسى لايجمعه وحـــدة ، إلا أنــه ضـــرورة موقوتة قد تمتد لعقود ، حتى تسترد " الثقافة العربية " وحدتها وتسترد " الحضـــارة الإسلامية " وحدتها .

وهذا النوع من التعدد السياسى قد باشرته بالفعل بعض الدول الإسلامية فـــى العقد الأخير مثل الجمهورية التركية .

ثامنا : إذا أمعنا النظـــر فى الوحدة التى تربط " الثقافة العلمانيـــة الغربيـــة " الحديثة والتى فى ظلها يدور التنوع والتعدد فى الغرب ، فإننا نلاحــظ أن عنصـــر الاعتقاد فى هذه الثقافة هو : " المادية الجديدة " التى نشأت منذ القرن السابع عشر الميلادى وتطورت حتى استقام أمرها بعد الثورة الفرنسية ، وكان لها أثرها علـــى بقية العناصر المكونة للنسيج الكلى " للثقافة العلمانية الغربية الحديثة " .

كما أننا سوف نلاحظ أن وحدة " الحضارة الغربية الحديثة " ترجع إلى هـــذه المفاهيم العلمانية المادية الجديدة .

إذن فالعلمانية المادية هى المرجعية أو المظلة التى تحت ظلها يـــدور التعـــدد والتنوع فى هذه الثقافة وهذه الحضارة الأوربية الغربية ، وهى أساس الوحدة فـــى كل منهما .

وقد أوضحنا سابقـــا أن وحدة " الثقافة العربية " ترجع إلى عنصر الاعتقـــاد وهو الدين الإسلامى والذى له انعكاساته على بقـية العناصر المكونـــة للنســـيج الكلى " للثقافة العربية " . فالدين الإسلامى بمعطياته ومفاهيمه هـــو المرجعيــة أو المظلة التى فى ظلها يدور التنوع والتعدد فى " الثقافة العربية " ، كمـــا أن الديــن الإسلامى بمعطياته ومفاهيمه يمثل وحـــدة " الحضارة الإسلامية " وهو المرجعيــة والمظلة التى تحت سقفها يدور التنوع والتعدد فى كل مجال من مجالات " الحضارة الإسلامية " السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

كما أوضحنا أن التعدد المنشـــود والتنوع المنشود فى ظل الوحدة فى " الثقافة العربية " و " الحضارة الإسلامية " يتطلب استعادة وحدة " الثقافة العربية " واستعادة وحدة " الحضارة الإسلامية " فى المجالات المختلفة وهى المجالات التى أصابهـــا الغزو الفكرى العلمانى الغربى ، والتى يمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلى :

١ – تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وإحلالها محل القوانين الوضعية المســـتوردة من القانون الفرنسى أو الإنجليزى أو غيره . والقوانين المستمدة مـــن أحكـــام الشريعة الإسلامية نوعان نوع قطعى جاءت به آيات القرآن الكريـــم والســـنة النبوية الصحيحة وهذه عددهـــا قليل ، ونوع يحتاج للاجتهاد والـــرأى وهـــى تمثل أغلبية القوانين .

٢ – تطوير بعض مجالات " الثقافة العربية " وتنقيتها من الشوائب والتغييرات التى أدخلها الغزو الثقافى مثل الفنون ، وأغلب أنواع الفنون الآن مثل الموســـيقى والغناء والأفلام السينمائية والروايات والمسرحيات ما هى إلا فنـــون غربيـــة تحمل مفاهيم " الثقافة العلمانية الغربية " الحديثة .

وتطوير " الفنون الإسلامية " ليس أمر صعبًا أو عويصًا ولكنه فقط يخضع للتوجهات السياسية والإعلامية المتحكمة فى مثل هذه الفنون فى أغلب الـــدول الإسلامية .

وتطوير " الفنون الإسلامية " له أهمية كبيرة لأنه من أكبر الوسائل الفعالـــة فى نشر وسيادة الأخلاق الإسلامية والعادات والتقاليد الإسلامية التى هى مـــن أسس " الثقافة العربية " .

كما أن تطوير الأدب العربى يحتاج لإبداع الأدباء الإسلاميين . وكان لرابطة العالم الإسلامى فضل إنشاء مجلة الأدب الإسلامى فى العقد الأخير. كما أن جمهورية إيران الإسلامية لها فضل الريادة فى تطوير الفنون الإسلامية فى العقد الأخير .

٣ - بناء القواعد والنظم الاجتماعية على أسس إسلامية . ففى مجال التربية والتعليم ، لازالت كثير من الدول الإسلامية تسير على أسس السياسة التى وضعتها لجنة (دنلوب) فى أوائل هذا القرن، حيث نحت دراسة الدين الإسلامى من المدارس وجعلت له حصة واحدة فى الأسبوع ولا امتحان فى مادة الدين، ونحت دراسة الدين الإسلامى كما نحت دراسة التاريخ الإسلامى وعلوم الدين الإسلامى . نتيجة لذلك نشأت أجيال لا تفهم دينها فهمًا عميقًا مستوعبًا ، فتمسكت بالقشور وتركت الأسس والأصول ، وبعدت عن الأخلاق الإسلامية والعادات الإسلامية ، وقلدت الغرب فى عاداته وتقاليده وسلوكياته . فبناء نظام التربية والتعليم على أساس إسلامى يجب أن يأخذ مساره الصحيح ليس فى التربية الدينية فقط ولكن فى التربية الأخلاقية والسلوكية والاجتماعية وغيرها .

وكذلك بناء النظم السياسية والاقتصادية ونظام التقاضى وغيرها من النظم الاجتماعية على أساس إسلامى .

٤- ونحب أن نلقى الضوء بشكل مختصر على النظام السياسى الإسلامى ووحدته وشكل التعدد السياسى فى ظل الوحدة المنشودة والتى سبق مناقشتها فى المجال السياسى .

ففى ظل وحدة النظام السياسى الإسلامى والتى تقوم على قوانين الشريعة وأحكام الدستور الإسلامى ، يكون التعدد فى المجال السياسى من مجلس للشورى ، وأحزاب ، وحريات الأفراد وحرية الفرد فى اختيار السلطة التى تحكمه ، وتداول السلطة ، وعلاقة السلطات الثلاث بعضها ببعض ، وعلاقتها بالأفراد .

وتحت مظلة الشريعة الإسلامية ، فإن الفرد حر حرية حقيقية ، فهو يتمتع بنوعين من الحرية ، مثله مثل الفرد فى المجتمعات الغربية الحديثة .

النوع الأول : حرية الفرد الشخصية وهى حرية لايتدخل فيهــا الآخــرون ، والقــرآن الكريم به العديد من الآيات الكريمة التى تبين هــذه الحريــة ، والتــى ذكرناها فى الفصل السادس من هذه الدراسة ، وهى تؤكد على أهمية هذا النوع من الحرية ، لأنها أساس الحساب يوم القيامة ، إن عمل خيرًا فجزاؤه الجنة وإن عمل شرًا فجزاؤه النار .

وإذا تأملنا عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ، نجد أن روح هذه الحريــة تسرى فى المجتمع الإسلامى ، تحت مظلة أحكام الشريعة الإسلامية ، بقوانينهــا وأخلاقها وعاداتها . فهاهو سيدنا عمر بن الخطاب ، أثناء فترة خلافته ، يجيء إليه من يبلغه أن أحدهم يتناول الخمر فى بيته ، فيرفض تسلق سور البيــت ليتجســس عليه ويقــول : إن الله عز وجــل نهى عن التجســس " ولاتجسســوا ولايغتــب بعضكم بعضا "[٣].

وهذا النوع من الحرية ، وهو الحرية الشخصية لايختلف عن الحرية الفرديــة فى الدول الغــربية فى العصر الراهن ، إلا أن المجتمعــات الغربيــة فــى فــترة تحررها من سلطات الملوك المستبدين وسلطة الإقطــاع ، تحــررت أيضًــا مــن الاعتقادات اللاهوتية الكنسية وسلطات الكنيسة ، وهى السلطات الثلاث المتحالفــة والتى عملت أوربا طوال قرون عديدة للتحرر منها ، وتم لها ذلك بقيــام الثــورة الفرنسية ، حيث نشأت ديانة جديدة هى " المادية الجديدة " . فكأن الحرية الفرديــة فى الغرب ، تشمل أيضًا التحرر من الأفكار اللاهوتية المسيحية . فالفرد هنــاك ، والحكومات بمؤسساتها ، والمجتمعات بنظمها وقواعدها ، لاتخضع ككــل لأحكــام دينية مسيحية . والفرد حــر فى اعتقــاد مايشاء ، وهــو ما يطلقون عليه " المادية الجديــدة " .

أما فى النظام السياسى الإسلامى فإن الحرية الشخصية لاتعنى التحــرر مــن الدين الإسلامى بمعطياتــه ومفاهيمــه ، والفــرد والحكومــات بمؤسســاتها ، والمجتمعات بنظمها وقواعدها ، تخضع ككل لأحكام الشريعة الإسلامية .

النوع الثانى من الحرية التى يتمتع بها الفرد المسلم ، هو حرية الفــرد فــى اختيار السلطة التى تحكمه . وطريقة اختيار السلطة الحاكمة أو الحاكم ، أو طريقة

---

(٣) سورة الحجرات آية ١٢ .

تولى الخليفة الحكم ، لم ينـــزل بها نص قرآنى أو حديث نبوى صحيـــح ، وإنما تركت لاجتهاد المسلمين فى كل عصر .

وكان اختيار سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه خليفـــه للمســـلمين بعـــد وفـــاة النبى صلى الله عليه وسلم ، هو أول صورة لاجتهاد المسلمين ، وهو يمثل مفهوم الصحابة رضوان الله عليهم فى هذا المجال . وهو يعطينا صـــورة حقيقيـــة تؤكد فهم الصحابة الأجلاء للدين الإسلامى ومعطياته فى هذا المجال .

ففى سقيفة بنى ساعدة، كان هناك مرشحان للخلافة هما : سعد بن عبادة وهو من الأنصار وأبو بكر الصديق وهو من المهاجرين ، وكان كلا المرشحين ينطبـــق عليهما الشروط التى أوردها الفقهاء فيما بعد ، فى الصفات التى يجب أن يتصـــف بها المرشح للخـــلافة . وكان كل من المرشحين يمثل مجموعـــة أو حـــزب همـــا المهاجرون والأنصار ، وكل مجمـــوعة تريد أن يكون الخليفـــة منهـــا . واختـــار المسلمون أبا بكر الصديق ، وبويع البيعة الخاصة وفى اليوم التالى بويـــع البيعـــة العامة فى المسجد النبوى الشريف .

فالفرد المسلم له حرية اختيار السلطة التى تحكمه ، مادام المرشحون لتولـــى المسئولية ، ينطبق عليهم الشـــروط التى أوردها الفقهـــاء فـــى الترشـــيح لهـــذا المنصب . كما أنهم يجب أن يلتزموا بالقانون والدستور وهمـــا أحكـــام الشـــريعة الإسلامية والدســـتور الإسلامى . أما مجلس الشورى فهو متقيد فى القوانين التـــى يصدرها بأحكام الشريعة الإسلامية .

أهــم المصـــــادر والمراجع

❋ القــرآن الكريم .

❋ كتب الســـــنة :

- صحيح البخارى طبعة دار الشعب القاهرة .
- صحيح مسلم		طبعة القاهرة ١٩٥٥.
- سنن النسائى		طبعة القاهرة ١٩٦٤.
- " الموطـــــــأ "		للإمام مالك - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى دار إحياء التراث القاهرة ١٩٥١.

❋ الكتب

- **ابن تيمية :**

السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية - تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور - طبعة القاهرة -١٩٧١.

- **ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) :**

مقدمة العلامة ابن خلدون - طبعة بيروت - ١٩٨٨ .

- **ابن هشام :**

السيرة النبوية لابن هشام - طبعة القاهرة .

- **ابن قدامة (الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة) :**

منهاج القاصدين - مكتبة إحياء الكتب الإسلامية - بيروت .

- **ابن جبير (أبو الحسن محمد بن جبير الأندلسى ت ٦١٤هـ) :**

رحلة بن جبير - مطبعة السعادة بالقاهرة - ١٣٢٦هـ .

- **أبو حذيفة (إبراهيم بن محمد) :**

اللهو المباح فى العصر الحديث - دار الصحابة للتراث بطنطا - ١٩٨٧ .

- **أبو الفرج قدامة بن جعفر :**
نقد الشعر – تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجى – طبعة بيروت .
- **أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٧٧٩هـ) :**
تحفة النظار فى غرائب الأمصار – تحقيق طلال حرب – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .
- **آدم متز :**
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة الإسلامية – ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة – طبعة بيروت – ١٩٦٧
- **الشعراوى (الشيخ محمد متولى الشعراوى) :**
تفسير القرآن – خواطر فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حول القرآن الكريم – ٦مجلدات تصدر تباعا – أخبار اليوم – القاهرة .
هذا هو الإسلام – مكتبة التراث الإسلامى – القاهرة – ١٩٩٠م .
- **الحريرى(أبو محمد القاسم بن على الحريرى البصرى) :**
المقامات الأدبية – شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر – ١٩٥٠م .– طبعة ثالثة .
- **أحمد شلبى د. :**
بحوث فى الحضارة الإسلامية –مكتبة الشباب – القاهرة – ١٩٩٤.
- **أحمد الجندى :**
رواد النغم العربى – طلاس للدراسة والترجمة والنشر– بيروت – ١٩٨٤م .
- **السيد عسكر :**
المنهج الإسلامى فى بناء المجتمع الإنسانى – دار البشير – القاهرة –١٩٩٠ .
- **السيد سابق (الشيخ) :**
فقه السنة – دار الكتاب العربى – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

- **الغزالى(الإمام أبو حامد الغزالى) :**
إحياء علوم الدين - إعداد ودراسة إصلاح عبد السلام الرفاعى- مركز الأهرام للترجمة والنشر- ١٩٨٨.
- **أكرم ضياء العمرى د. :**
قيم المجتمع الإسلامى من منظور تاريخى - كتاب الأمة - سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - قطر - ١٩٩٤م.
- **أمين صالح د. :**
البناء الاجتماعى للمجتمع الإسلامى - الصدر لخدمات الطباعة - القاهرة - ١٩٩٠.
- **أنور الجندى :**
اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار- دار الاعتصام - القاهرة
- **بدوى طبانة د. :**
نظرات فى أصول الأدب والنقد - شركة عكاظ للنشر والتوزيع - ١٩٨٣م.
- **باقر شريف القرشى :**
النظام السياسى فى الإسلام - دار التعارف والمطبوعات - بيروت - ١٩٨٢م .
- **بيتر جران :**
الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر ١٧٦٠-١٨٤٠م - ترجمة محروس سليمان مراجعة د. رءوف عباس .
دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - ١٩٩٢.
- **جوستاف لوبون :**
حضارة العــرب - ترجمة عادل زعيتر - مكتبة عيســى البــابى الحلبى - القاهرة -١٩٦٩.

- **جمال حمدان د. :**

شخصية مصر– ٣ أجزاء – عالم الكتب – القاهرة – ١٩٨٤.

- **حسن طبل د. :**

مدخل إلى النقد الأدبى – جامعة القاهرة كلية دار العلوم .

- **حسين مؤنس د.:**

تاريخ موجز للفكر العربى– دار الرشاد – القاهرة – ١٤١٦هـ –١٩٩٦م

- **روبرت سبيلر :**

الأدب الأمريكى ١٩١٠– ١٩٦٠م– مكتبة النهضة المصرية – ترجمة محمود محمود .

- **رينيه وليك وآوستن وارن :**

نظرية الأدب – ترجمة د. عادل سلامة –

دار المريخ للنشر – الرياض – ١٩٩١ .

- **زكى نجيب محمود د.:**

فى تحديث الثقافة العربية – دار الشروق – القاهرة – ١٩٩٣م – طبعة ثانية .

قشور ولباب – دار الشروق – القاهرة – ١٤٠١هـ–١٩٨١م.

- **زكريا فايد :**

العلمانية ، النشأة والأثر فى الشرق والغرب – الزهراء للإعلام العربى – القاهرة – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

- **سيد قطب :**

فى ظلال القرآن – دار الشروق – القاهرة – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢.

- **عاشور عبد الجواد عبد الحميد د. :**

البديل الإسلامى للفوائد المصرفية – دار الصحابة للتراث – طنطا.

- **عباس خضر :**
القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٠م – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٦– ١٩٩٢.
- **عبد الحليم محمود (الإمام الدكتور) :**
القرآن والنبى – دار المعارف – ١٩٨٥ – طبعة ثانية .
- **عبد الرزاق السنهورى باشا د. :**
فقه الخلافة وتطورها – ترجمة د. نادية السنهورى – مراجعة وتعليق د. توفيق الشاوى – طبعة القاهرة – ١٩٨٩.
- **عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدى د. :**
ملامح التوجيه الإسلامى للعلوم لدى علماء المسلمين – مركز الكتاب للنشر – القاهرة – ١٩٩٣
- **عبد الهادى الجوهرى د. :**
تاريخ الفكر الاجتماعى – مكتبة النهضة – القاهرة – ١٩٩٤.
- **عبد القادر محمود د. :**
الفكر الإسلامى والفلسفات المعارضة فى القديم والحديث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦م.
- **على عشرى زايد د. :**
عن بناء القصيدة العربية – مكتبة الشباب – القاهرة – ١٩٩٣.
- **فرنسيس فوكوياما :**
نهاية التاريخ وخاتم البشر – مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة – ١٤١٣– ١٩٩٣م
- **فرانكلين – ل – باومر :**
الفكر الأوربى الحديث ، الاتصال والتغير فى الأفكار(١٦٠٠– ١٩٥٠) – ترجمة د. أحمد حمدى محمود – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٩م .

- **فهمى هـويدى :**

تزييف الوعى - دار الشروق- ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .

التدين المنقوص - دار الشروق - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ .

- **محمد عمارة د. :**

الإسلام والسياسة ، الرد على شبهات العلمانيين - دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة - ١٩٩٢م

- **محمد على الشوابكة د. :**

- **أنور أبو سويلم د.:**

معجم مصطلحات العروض والقافية - نشر بدعم من جامعة مؤتة - دار البشير - عمان - الأردن - ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

- **محمد جمال الدين الفندى د. :**

مع القرآن فى الكون - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٢م.

- **محمد محمد عبد القادر الخطيب د. :**

دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية - مطبعة الحسين الإسلامية -١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- **محمد الجوهرى حمد الجوهرى د. :**

النظام السياسى الإسلامى والفكر الليبرالى - دار الفكر العربى - ١٩٩٣.

- **منير محمد الغضبان :**

المنهج الحركى للسيرة النبوية - مكتبة المنار - الأردن - ١٩٩٢.

- **مالك بن نبى :**

مشكلة الثقافة - ترجمة عبد الصبور شاهين - دار الفكر - ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

- **مصطفى شاهين د.:**

علم الاجتماع والمجتمع الإسلامى - دار إحياء التراث للطباعة - ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

- **مانويل جوميث تورنيو :**
الفن الإسلامى فى أسبانيا – ترجمـــــة د. لطفـــى عبـــد الســـميع، د. السيدمحمد سالم – القاهرة .
- **نادية حسنى صقر د.:**
العلم ومناهج البحث فى الحضارة الإســـلامية – مكتبـــة النهضـــة المصرية – ١٩٩١ .
- **نخبة من العلماء :**
دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، بمناسبة القرن الخـــــامس عشر الهجرى – ٣ مجلدات – الهيئة المصرية العامة للكتـــــاب – ١٩٨٥م.
- **ول وايريل ديورانت :**
مجموعة قصة الحضارة – ترجمة نخبة من المترجمين – الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية .
- **ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى الحموى– ت٦٢٦هـــ) :**
معجم البلدان – طبعة بيروت – ١٩٧٧م.

- Encyclopedia Britanica.

- Eyre,E: European Civilization (vol.3 The Midde Ages) London , 1935.

- Grolier Academic Encyclopedia: (Also published under the title : Academic American Encyclopedia) .

- Saintsbury, History of the french Novel.

- Warwick C.F., Mirabeau and the french Revolution.



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق - الهرم - ت/فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩

عندما آمن الإمبراطور الرومانى أغسطين بالمسيحية وقام بنشرها فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، انقطعت " الثقافة " الإغريقية وحلت محلها "الثقافة" المسيحية ، وعندما دخلت مصر والمغرب والشام والعراق وفارس وغيرها فى الإسلام ، ماتت ثقافات هذه الشعوب ، وحلت محلها " الثقافة العربية " ، وعندما بدأ الفكر الغربى الحديث ينتشر فى أوربا ، فى القرن السابع عشر الميلادى ، وأصبحت " المادية الجديدة " هى عنصر الاعتقاد الحقيقى للشعوب الأوربية ، قامت " الثقافة الغربية العلمانية " الحديثة وانتشرت بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩م ، وحلت محل الثقافة الغربية المسيحية القديمة التى انقطعت .

إن انقراض " الثقافة " أو موتها أو انقطاعها يعتمد على مقدرة عنصر الاعتقاد ، على مسايرة التطور الإنسانى ، ومسايرة التقدم العلمى، وعلى المواءمة مع فطرة الإنسان التى فطره الله عليها .. والسؤال ..

– هل يمكن أن تنقطع أو تنقرض أو تموت " الثقافة العربية " و "الحضارة الإسلامية " ؟

– وهل يمكن أن تنقطع أو تنقرض أو تموت " الثقافة الغربية العلمانية الحديثة " و " الحضارة الغربية الحديثة " ؟

– وماهو مصير الآثار التى ألحقها الغزو الحضارى العلمانى الغربى لبعض مجالات الحضارة الإسلامية وخاصة القواعد والنظم الاجتماعية ؟

فى هذا الكتاب إجابات على تساؤلات كثيرة غاية فى الدقة والحساسية، وبه تفسيرات وحلول لإشكاليات شغلت الباحثين والمهتمين بالثقافة العربية والحضارة الإسلامية ، عالجها المؤلف بشكل غير مسبوق وله رأيه الواضح وفكره الثاقب .

الناشر

دار الأمين

DAR AL AMEEN

٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة تليفون/ فاكس: ٣٤٧٣٦٩١
١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم
١٠ شارع بستان الدكة (من شارع الألفى) القاهرة ت : ٥٩٣٢٧٠٦